إبراهيم فرغلي

قارئة القطار

رواية

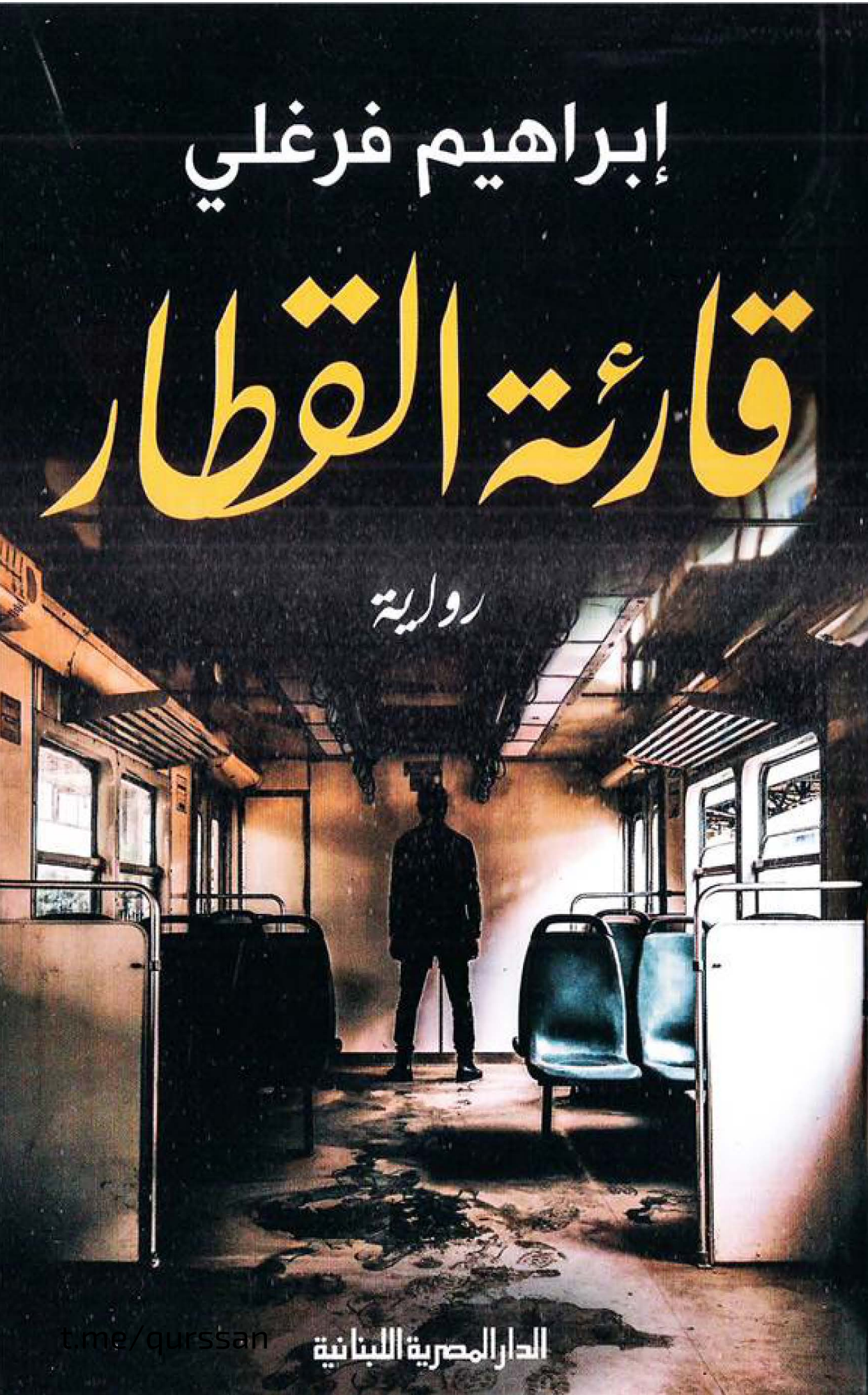

t.me/qurssan

الدار المصرية اللبنانية

فرغلي، إبراهيم.
قارئة القطار: رواية / إبراهيم فرغلي .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2021.
256 ص؛ 20 سم.
تدمك: 3 - 302 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 1579 /2021

©
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : 2021م

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

t.me/qurssan

إبراهيم فرغلي

قارئة القطار

رواية

الدار المصرية اللبنانية

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مصفوفة حقائبي على رفوف الذاكرة

و السفر الطويل ..

يبدأ دون أن تسير القاطرة!

أمل دنقل

t.me/qurssan

t.me/qurssan

ماذا تفيد الكلمات البائسة؟

قلتِ لهم ما قلتِ عن قوافل الغبارْ

فاتهموا عينيكِ، يا زرقاء، بالبوار!

أمل دُنقل

t.me/qurssan

t.me/qurssan

القسم الأول

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

استيقظتُ على صوت نداءٍ قادم من عالم بعيد، سرعان ما تبيّنت أنه النداء الأخير للقطار. نهضتُ مخطوفًا بالذعر. تلفت حولي أتأمل وجوه الجالسين في المقهى. لم أجد وجهًا مما ألفته قبل أن أغفو في مكاني. كيف تحوّلَت الغفوة التي غافلتني إلى نومٍ غادرٍ عميق؟ لم أتعرف موقع رصيف القطار المقصود. فالمقهى يقعُ على مسافة بعيدة نسبيا عن أرصفة القطارات.

انتزعت محفظتي الجلدية من جيب البنطلون الخلفي، وأخرجت ورقةً نقدية لم أتحقق من قيمتها، ألقيتُ بها على المنضدة، وحملت الحقيبة، وخرجت مهرولًا. الحقيبة على كتفي تمنعني من الركض بالخفّة التي أبتغيها. لكن ليس أمامي سوى الاستمرار في الجري بأقصى ما يمكنني.

أدرك أن فوات القطار يعني فقدان وظيفتي الجديدة، التي من المتوقع أن أتسلمها بعد تواصلهم معي وتأكيد قبولهم لي في العمل كمندوب للتسويق في شركة الأدوية. لم يكن لديّ أي استعداد لفقدان الفرصة، ولا العودة لأمي وأبي خالي الوفاض، ليس حُبًّا في البقاء معهما، بل رغبة في الفكاك من إسار العائلة. خاتلتني ملامح

t.me/qurssan

وجهيهما، ولكنني سرعان نفضت ذلك من ذهني كي لا أفقد تركيزي، ولأواصل الركض بأقصى ما يمكنني من سرعة. أما طيف دلال الذي انبثق ضاحكًا، فقد كان السبب الحقيقي للسفر، ولكن، عليّ الآن أن ألحق بالقطار.

توجهتُ صوب الرصيف الثاني، وكان القطار بعيدًا نسبيًّا عن الموضع الطبيعي له. لكن لم يتملكني شك في أنه القطار المقصود، فلم يكن ثمة قطار آخر. ورأيته يتحرك ببطء، فانخلع قلبي، وكدت ألقي بالحقيبة لأتخفف من كل شيء وألحق به.

في العربة الأخيرة، وضعتُ قدمًا على عتبة الباب المفتوح، وأمسكت بالمقبض، وبالكاد انزلقت إلى داخل القطار، وما إن وضعت قدمي حتى انفلتت المحفظة التي كنت أمسك بها منذ خرجت من المقهى، ولولا الستر لأفلتت قدمي وسقطت. ألقيت بالحقيبة، ثم انطرحت على الأرض، وتمددت على ظهري أكاد لا أصدق أنني فعلتها. شعرت بالضيق والغيظ من انفلات المحفظة. ثم أصابني الهلع حين تبينت أنني لا أحمل هاتفي المحمول! هل نسيته مع صبي المقهى الذي أعطيته له ليشحنه؟!

بقيت في مكاني حتى استرددت أنفاسي اللاهثة ثم قفزت ناهضًا. فتشت في جيوبي بحثًا عن التذكرة، فيما ألح سؤالٌ مباغت لم أحر له إجابة: إلى أين يتجه هذا القطار؟

فتحتُ الحقيبة وأخذت أعبث بما فيها، وبدا لي أنني نسيتها في المقهى. مسحتُ العرق على جبهتي بظهر كفي، وابتسمتُ لفكرة أنني أضعت نفسي في قطارٍ لا أعرف وجهته.

t.me/qurssan

توقف لهاثي، وسَرَت في جسدي برودة لطيفة. شعرتُ بألم في ساقي اليسرى. لم أعط للأمر أهمية. أخرجتُ علبة سجائري. تلَفتُ حولي فلم أجد أحدًا. ورغم جفاف حلقي، أشعلتُ سيجارة، وأسندت ظهري على الباب المغلق في الجهة المقابلة، ونفثتُ الدخان. وبقيت على الأرض جالسًا، منتشيًا، ومبتهجًا بتمكني من اللحاق بالقطار.

***

دهستُ عُقب السيجارة. استخدمت قدمي اليسرى أختبر ساقي المتألمة. كان الألم محتملًا. لعلها تقلصت بسبب الركض قبل الصعود للقطار. وفي الأثناء تذكرتُ أنني حين غفوت كنتُ ممسكًا بكتاب. فتحتُ الحقيبة وتنفست الصعداء، فقد وجدته غافيًا فوق أغراضي. أعدت غلق الحقيبة ونهضت متجهًا إلى الباب الداخلي لعربة الركاب.

تأملتُ المقاعد المخملية الزرقاء المتراصة على امتداد العربة، ورَاق لي خلوّها من المسافرين. سيكون لي إذن حظ اختيار المقعد المناسب، والعزلة، والنافذة.

تجولت في العربة الخاوية جيئةً وذهابًا، وألفيتني مرتاحًا لمقعدين في منتصف العربة، أبهجني ابتعاد موقعهما عن بابي العربة حيث تغدو حركة الداخلين والقادمين موترة. ألقيت نظرة من النافذة، فلم أر شيئًا في الخارج. كان الجو مضببًا.

أخرجتُ الكتاب. وضعتُ ساقًا متألمة بتقلصات مجهولة الأسباب، ومكسوّة ببنطلوني الأخضر على الأخرى. تأملت حذائي

t.me/qurssan

البُنّي الأنيق وكأنني أراه للمرة الأولى. شعرت بابتلال ظهري بالعرق. فكرت أن أخلع الجاكيت، لكني أوصيت نفسي بالتريث، فجو العربة المكيف قد يغدو باردًا بعد قليل.

أمسكتُ بالكتاب. تأملتُ العنوان على الغلاف. "كتاب الأحلام". أحسست أنني أقرأه للمرة الأولى. ولم أفهم سر الانقطاع الغريب في ذاكرتي. وجدت فاصلًا من ورق مقوى بين صفحتين، فرحتُ أتابع القراءة، وأدهشني أنني لا أذكر شيئًا مما قرأت في الكتاب.

مع ذلك تابعت القراءة، من موضع الفاصل. كانت الفقرة تتناول الجسد في رحلته بين الطفولة والشيخوخة. يتأمل كاتبها وهن الجسد التدريجي المرتبط بزيادة نضج العقل وقوته، حتى ينتهي الأمر بهما معًا للذبول. تعجبت من عدم قدرتي على تذكر شيء.

انتبهتُ، بعد وهلة، لاستمرار خلو العربة من البشر. لا بائع متجولًا ممن يصادف المرء عادةً، ولا مسافر فضوليًّا يتفقّد المارة في طريقه إلى الحمّام، أو متسللًا يبحث عن عربة خالية. ولا حتى مفتش القطار المباغت الذي يتحرى امتلاك المسافرين لتذاكرهم.

نهضتُ متقدمًا باتجاه العربة الأمامية. فتحت باب العربة وأغلقته، ثم مررتُ بين العربتين متبوعًا بهدير القطار الذي كان صوته يعلو في المساحة الفاصلة بين عربتين، ثم بطرقتي اصطكاك البابين المتواليتين. وهالني أنني لم أجد في العربة اللاحقة أحدًا أيضًا.

t.me/qurssan

تكـرر مشـهد المقاعـد الخالية فـي العربات الصامتـة المهجورة. هرولـتُ قليـلًا، مندهشًـا. ألقيت النظـر من نوافـذ العربـات المتتابعة لكني لم أر شـيئا فـي الخارج. وصلت إلى العربة الخامسـة، ولم أجد بها مقاعد كشـأن بقية العربات. فقد استُبدلت بها مقصورات متجاورة مغلقـة الأبـواب، تطل جميعا علـى ممر خال، مسـاحته نصف عرض مسـاحة العربات، امتدت إلى يسـاره نوافـذ القطار الواسـعة العريضة التي لا تكشف شيئًا في الخارج.

لعلهـا عربـات النـوم. وهـو مـا تأكـد لـي حيـن وجـدتُ إحـدى المقصورات مفتوحة. ألقيتُ نظـرةً حذرة. منضدة طولية صغيرة مثبتة في منتصف المسـافة بين أريكتين جلديتين متقابلتين، تكفي كل منهما لشـخص يمكنه التمدد عليها. وفي مقصورة أخرى كان هناك سـريران علويان.

شعرت بالقلق، وتنامت حيرتي، بين العودة لمكاني، والاستمرار فـي البحث عن كائنات أخرى تعيش في هذا القطار، ثم قفز في بالي خاطـرٌ ثالث أوعز لـي بتجاهل هذا الهراء كله، والاسـتمتاع بالتمدد على أريكة. فلا شـك أن القطار سـيتوقف ليحمل مسـافرين آخرين من محطات أخرى. وبهذا الخاطر المطمئن قلت لنفسـي أن القراءة فـي كابينـة مريحـة كهذه سـيكون أفضل مـن أي خيار آخـر. وبقيتُ مترددًا بين العودة إلى مقعدي الذي اخترت، أو التقدم حتى كافتيريا القطار.

t.me/qurssan

2

انتصـرَتْ شـهوتي لتنـاول القهـوة، ورؤيـة أي من المسـافرين في كافيتريـا القطار. دلفت إلى عربة النـوم الثالثة، وكانت عربة نوم أخرى خاوية وصامتة أيضًا. فغالبني إحساسي بالارتياب.

تقدمـتُ بحذرٍ. وجدت المقصورة الأولى خالية، فصرختُ بأعلى الصوت:

- معقوووووول؟! ألا يوجد بشر هنا في هذا القطار؟

أتاني صوت أنثوي محمّل بالعتاب والتأنيب:

- أنتَ هناك! ما هذا الصراخ؟

تجمّـدتُ فـي مكاني. أوشـكتُ على الهـروب متسـللًا من حيث جئت. لكن كان عليّ أن أتمتم ولو بكلمة اعتذار، فوجدتني أقول:

- عفـوًا عفـوًا، أعتذر يـا مدام! كنتُ أظـن أنّ عربـات القطار كلها خالية، لأنّي لم أجد أحدًا.

- أخفِـض صوتـك، ولا تحـاول أن تمـر الآن أمـام غرفتـي. فأنـا عارية.

t.me/qurssan

جاءني صوتُها ناعمًا، لكنه كان حاسمًا بشكل بدا معه المرور أمام بابها مخاطرة كبيرة. انبثقت صورة لها في خيالي؛ فرأيتها شقراء في نهاية الأربعينيات، وتخيلتها تقف عارية في مقصورتها.

ومثل أي طفل مهذب خجول امتثلتُ لما طلبتْ. وعدتُ من حيث جئت. مارًّا بالغرف المُغلقة ومقصورات النوم الصامتة، وصولًا إلى العربة الأولى.

تعرفت على موقع جلوسي من حقيبتي وعلبة السجائر التي التقطتها، وخرجت من العربة إلى المساحة الصغيرة التي تضم باب العربة الخارجي. تأملت علبة السجائر الزرقاء، كتب عليها باللاتينية كلمة "رويال"، وشعرت للحظات بأنني لم أكن أدخن هذا النوع من السجائر من قبل.

لم أهتم بأمر علبة السجائر، لأن سؤالًا انبثق في ذهني: ألم يكن من الأجدى أن أسألها عن كافتيريا القطار. لماذا أصابني الرعب من كلمة "عارية"؟ كان بإمكاني تجاهل صاحبة الصوت، والمرور أمام مقصورتها في هدوء. لكن المهم أن وجودها في النهاية مُبدّد لمخاوفي من العزلة التي ساورني الإحساس بها.

تناولتُ حقيبتي وعلّقتها على كتفي، وفي اليد الأخرى أمسكتُ بكتابي، مقررًا العودة والمرور أمام مقصورة تلك السيدة بسرعةٍ وخفّة، متجاهلًا وجودها.

قبل وصولي إلى العربة السابعة، التي تؤوي السيدة العارية. وتحديدًا عند الباب الأخير في العربة السادسة، وضعتُ حقيبتي

t.me/qurssan

في الزاوية المجاورة للباب. وتقدمتُ بخطواتٍ حذرة حتى دلفتُ العربة المقصودة وتعمدت إغلاق الباب بقوّة، بحيث يمكنها أن تسمعه.

وقفت مكاني أنتظر أن يصدر عنها صوت أو رد فعل. لا شيء. تقدمتُ بخطوات حذرة حتّى اقتربت من باب المقصورة. تناهى لسمعي صوت هسهسات غامضة فتجمدت في مكاني.

اقتربتُ على طرفي قدمي، ملتصقًا بجدار غرفتها المفتوح. وتلصّصتُ عليها بنظرة خاطفة.

رأيت جسدًا أنثويًّا ممدّدًا على الأريكة، أمسكت صاحبته كتابًا؛ وقد دسّت وجهها بين ضفّتيه. جسدها النحيف يتمدد عاريًا كومضةِ برقٍ بشرية. والمقصورة شبه معتمة، لا تضيئها سوى إضاءة مركّزة من مصباح في سقف المقصورة، تسللت لتنعكس على الجسد العاري. وخلفها كانت نافذة القطار وقد أسدلت ستارتها.

نحيت نظري برأسٍ سريع الحركة بسبب رغبتيّ المتناقضتين المتمثلتين في خطف نظرة أخرى إلى الجسد العاري، وضرورة غض البصر.

وسقطتُ جالسًا على الأرض، مستندًا بظهري، خلال سقوطي البطيء، إلى الجدار المصقول، منصتًا للصوت الليّن العذب، الذي يتراقص، مع بحّةٍ مميزة بين مقطع وآخر، على هسيس حرف السين.

t.me/qurssan

ومن فرط إحساسي بالفتنة، لم أدر ماذا أفعل؟ فتحت "كتاب الأحلام"، وباغتني بانطفاء أوراقه، كأنما اسودّت صفحاته. قلتُ لعله تأثير بريق جسد قارئة القطار.

مرّ الوقت، لكنها لم تتوقف عن القراءة. ولم تشرد عجلات القطار عن ضرب القضبان التي تتوالى في طَرقَاتها الرتيبة، ولا ذهني عن الأسئلة. أحاول تفسير كلمات القارئة العارية المبهمة التي لا يصلني منها سوى همسات.

حينما امتلكت نفسي نهضت. وقفتُ في منتصف المساحة التي يحتلها الباب المفتوح مواجهًا كتابها وعريها وجمال جسدها. هالني التناقض بين حسيّة جسدها والطفولية التي ظهرت بها قدماها النحيلتان الناتئتان من ساقين هزيلتين مرتخيتين، كأنهما لم تمارسا المشي من قبل أبدًا.

توقفَتْ عن القراءة، ولم تُزح الكتاب عن موضعه. لمحتُ جانبًا من نهدها الأيسر بينما اختبأ ما خفي منه خلف الكتاب. الضوءُ الساقط عليها من المصباح العلوي، يضيء لها صفحات كتابها، وينير لي جسدها الرشيق الناعم.

تمتكتُ برباطة جأشي، مواجهًا عريها بثبات، وعازمًا على إغلاق باب غرفتها فور أن أنتهي من كلامي معها.

سألتني: "لماذا جئت بلا استئذان"؟

t.me/qurssan

جاء صوتُها هامسًا وناعمًا كأنّه مخدِّر.

قلت: "لم أرغب في مقاطعتك".

أزاحت الكتاب أخيرًا، وأنامته على بطنها فظهر نهداها الصغيران. لها وجه بيضاوي نحيف، خطفتني عن تأمله نظارة سوداء بعدستين دائريتين، استندت النظارة على أنف صغير ينتهي بنبقة رقيقة، وبدا وجهها جميلًا بجبهته المستطيلة التي تجلّت أمامي بسبب قصّها لشعرها من أعلى الجبهة، بينما أسدلت بقية أمواج شعرها ليبدو كستارٍ مخمليّ أسود لامع حول وجهها وكتفيها.

قلت: "هل يمكنني أن أسأل، لماذا أنت عارية؟".

قالت بهمسٍ، لم تمنعه رقته من إلباسه نبرة سخرية: "لماذا أنا عارية؟ ألا تخجل أنت مما ترتديه؟".

انتبهتُ للسترةِ الخضراء التي أرتدي، فتسللت يداي، بلا وعي، إلى ربطة العنق، كأنني اكتشفت لتوّي سر اختناقي منذ وصلت إلى القطار. حاولت استدعاء السبب الذي لأجله ارتديت هذه السترة، لكني اكتشفت أنه انمحى من ذاكرتي. وداهمني طيفٌ من إحساسٍ بالوجل، أحسست معه بتوتر شديد.

لفّني شعورٌ بالحرج، فتحللتُ من خناق الجاكيت، وحللتُ أزرارَ القميص الأصفر، ثم خلعته بسرعة كمن يتخلص من إثمٍ ثقيل. ورغم ارتباكي فقد تنفستُ براحةٍ حين وجدتُ نفسي عاري الصدر أمامها.

t.me/qurssan

داهمني شعور بأنها تتهكم عليّ، وإنني قد جعلت من نفسي مسخرة بتعريي على هذا النحو، وفي محاولة للتخلص من الحرج سألتها باقتضاب:

- "ألا يوجد أحدٌ في هذا القطار؟".

- "تقريبًا". جاءني ردها المبهم بسرعة.

تأملت إجابتها المحيّرة، وسألتُها:

- "ماذا تقرئين"؟

- "كتاب الأحلام".

هتفت: "مصادفة مدهشة! هذا هو الكتاب الذي أقرأه الآن أنا أيضًا"!

نظرت إليَّ أخيرًا، فحاولت التكهن بشكل عينيها المختبئتين خلف نظارتها السوداء المريبة.

لم تعلّق بشيء، فعدتُ أسألها:

- "منذ متى وأنتِ هنا؟".

- "هل سيستمر هذا التحقيق طويلًا؟".

أجابت بتبرم واضح، وقبل أن أنطق استدركت قائلة:

- "منذ بدأ القطار رحلته هذه".

إجاباتها الغامضة محيّرة، تبدو كالألغاز.

t.me/qurssan

مسني شعورٌ بالضيق، ومع ذلك، وربما بأثر الرّقة الشديدة في نبرات صوتها، راودتني رغبة عجيبة في الاقتراب منها لكي ألمسها. لكنّي أفقت على صوتها الهامس:

"أقرأ لأنه قدري. لو توقفت سيتوقف القطار. ولن يكون في إمكان أحد تحمّل كارثة كهذه. هذا هو عملي الوحيد هنا؛ أن أمنع القطار عن التوقف. ولأجل ذلك أقرأ ليلًا ونهارًا كما ترى".

ومن دون سابق إنذار أعادت الكتاب إلى موضعه أمام وجهها، وعاودت القراءة، فيما تداعى صوتُ ارتطام عجلات القطار الرتيب.

تأملتها للحظات. بطنها الناعم الهضيم، حوضها الضيق، فخذيها النحيلين، ولسان النار المحلوق الناعم الداكن، ثم الساقين الهزيلتين وقدميها النحيفتين بأناملهما الدقيقة. أغلقتُ الباب هاربا من فتنتها، فسمعت صوتها صارخًا تأمرني بإعادة فتح الباب، فامتثلتُ لها، غاضًّا بصري، ثم هرولت لا ألوي على شيء.

سرتُ قُدمًا، من عربةٍ إلى أخرى. تتداعى كلماتها العجيبة في أذني، ولا أصدق منها حرفًا. أي قراءة هذه التي تسيّر قطارًا؟!

المقاعد كلها خالية، والقطار يخبُّ إلى غايته المجهولة مثل حيوانٍ شارد كلما صفعت الرياح وجهه، زادت مناطحته لها جنونًا.

وبعد أن مررت بثلاث عربات نوم أخرى، خالية، وصلت إلى عربةٍ سبقني لها صوت جلبةٍ بدا غريبًا في هذا الصمت الموحش.

t.me/qurssan

أصـواتٌ مختلطـة لم أتمكن من اسـتبيانها. ضحكاتٌ خشـنة لكن لها رنّات أنثوية. صرخاتٌ مشبعة ببهجةٍ غامضة ومرح. وترنيمات مبهمة. ثمة موسيقى أيضًا. لم أتمكن من تمييزها بين ضجيج الأصوات. بدت الأصوات المتنافرة في اختلاطها مزيجًا من ضجيج الحياة.

ابتسـمتُ لنفسـي؛ مدركًا أن قارئـة القطار قد خدعتنـي. وأن مكانًا صاخبًـا وضاجًّـا بالحياة، كالـذي تصدر منه تلك الأصـوات، لا بد أن تتوافر لي فيه الفرصة، أخيرًا، لتناول القهوة.

أمسـكتُ بباب المقبض وعالجته محاولًا فتحه أكثر من مرّة، لكنه اسـتعصى. عانـدتُ المقبـض بمزيـدٍ من محـاولات الضغـط القويّة، فاستجاب مقبضه لضغطة اليد، أما الباب نفسه فقد بدا عنيدًا.

ألصقتُ جبهتي بلوح الزجاج الشـفّاف المستطيل في قلب الباب. وحدّقـت لكـي أرى مصدر الضجـة والصخب. لم أر شـيئًا. ثمّة قاعة طويلـة خالية. بالأحرى عربة قطار فسـيحة مُفرغة من المقاعد وغرف النوم. وثمة ظلال مشوشـة لأشخاص بدوا جامدين في أماكنهم، فمن الـذي أغلـق الباب؟ ولمـاذا يسـتعصي وحده مـن بين أبـواب القطار الأخرى؟

عدتُ إلى الممر الصغير الذي يفصل بين العربة وسابقتها. وجلستُ يائسًا، متعبًا، وحائرًا. تحسستُ صدري العاري، فتذكرت أنني خلعت قميصي عند قارئة القطار. لا بد أنني نسيت السجائر في جيب القميص أو الجاكيت. اللعنة!

t.me/qurssan

3

قصدت العودة لقارئة القطار. أهرول فأتعثر. أتوقف لألتقط أنفاسي. أستند إلى ظهور المقاعد. أترنح، ثم أعاند نفسي فأعاود الهرولة.

ما إن وقع بصري عليها حتى استحال غضبي لابتسامة بلهاء. كانت لاتزال تتمتم بقراءتها؛ ممدّدة بجسدها النحيف الهزيل.

زنبقة بيضاء تُضوّعُ الغرفة بأريجٍ لا مثيل له. وبهمسها تثير الحواس. تأكّد لديّ إحساسٌ غامضٌ بامتلاكِ المعرفة، كأن المعنى هو ما يتسرب من صوتها إلى وعيي، حتى لو لم أنصت بكامل تركيزي للكلمات.

لم تتوقف عن القراءة. وعلا صوتُها لأول مرة، فأصغيت بكل حواسي تقريبًا:

"في الحُلم، يعيشُ الوهمُ حُرًّا، يتشبه بالحقائق. أما الحلم نفسه فيمضي في مسارات خفيّة في مدينةِ العقل الشاسعة، يتلمّس دروبه بين آلاتها الجبارة، ثم يندثر في قاع الذاكرة. فإن أحيت الذاكرة الحلم عاش للأبد، وإن ألقته في أوديتها السريّة اندثر في هاوية النسيان. في الحلم نرى صورًا ملوّنة أو شاحبة. تنبثق، بإيعازٍ من وحش اللاوعي

t.me/qurssan

البدائي، صورٌ تتشكل وتتجاور أو تقفز لتقول جُمَلاً بلا معنى أو تهذر بالخرافة، ووقتما نصحو تلعب الذاكرة بالحلم كما تشتهي، فتُزيح ونضيف وتترك إما أثراً منقوشاً في الروح لا يذهب، أو تُغيّب ما كان حُلما في متاهة العدم، ليصبح وهمًا لا وجود له".

توقفَتْ عن القراءة فجأة، قبل أن تسألني:

- "لماذا عُدت؟".

- "جئتُ لأسألك عن العربة المغلقة".

لاح على وجهها ظل ابتسامة، انفرجت من شفتيها الرقيقتين، وقالت:

- "الحفل؟ هل وصلت إليه؟".

- "أي حفل؟".

- "عربة الحفل، المكان الوحيد المأهول بالبشر في هذا القطار، ألم تصل إليها؟".

لم أجبها بل سألتها:

- "ولماذا لا تلحقين أنتِ بهم؟"

- "لا تناسبني الحفلات. أفضّل العُزلة والهدوء كما ترى، ثم إن الداخل للحفل لا يخرج منه أبدًا".

- "لا يخرج منه؟!".

t.me/qurssan

- "أبداً".

كانت تنطق كلمة "أبداً" بطريقةٍ فيها إلحاح كيدي أو استفزازي، مع ذلك تقولها ببساطة وثقة مفرطيْن.

- "لماذا تبدين وكأنك تحاولين إيقاعي في فخاخ الغموض واليأس والخوف؟".

- "الحقائق دائمًا لها أثر مغاير للوهم. كن واقعيًا، أو تشبث بالوهم لو شئت، هذا شأنك في كل الأحوال".

- "لا أريد أوهامًا، كل ما أتمنى معرفته هو متى سيتوقف هذا القطار اللعين وأين؟".

- "هذا القطار لن يتوقف".

- "ماذا؟".

- "كما سمعت. وأنصت جيدًا، فليس لديّ الوقت لأضيعه. هذا القطار سيظل يطرق القضبان للأبد، وسوف أقرأ للأبد، وسيظل أهل الحفل في حفلِهم أيضا للأبد".

"هل يعني ذلك..؟".

"كُفّ عن الأسئلة أرجوك، لا إرادة لأحد هنا، لا يمكنني التوقف عن القراءة. والقطار لن يتوقف. وأنت الآن، مثلك في ذلك مثل مخلوقات هذا القطار: محكومٌ عليك بأن تظل مسافرًا في رحلته التي لا نهاية لها".

t.me/qurssan

خرجتُ، ووقفتُ موليًا ظهري لباب مقصورتها. كان القطار يسير باتجاه يدي اليُمنى. فماذا لو سرت في عكس اتجاه حركته ثم هرولت أو ركضت؟ ألن يعني ذلك أنني سأتفوق على سرعة القطار؟ أليس كذلك؟ بلى، نعم ثمة أمل في كل وقت أن يبدو المرء مسيطراً على مصيره. ووجدت نفسي أستدير سائلًا قارئة القطار:

- "متى تأكلين؟ ألا تشربين شيئًا؟ من أين تستمدين طاقتك؟".

توقفَتْ عن القراءة، وخلعت نظارتها أخيرًا. تأملتني بعينين لوزيتي التكوين؛ عميقتين في محجريهما. لاحظتُ بروز عظمتي وجنتيها الرقيقتين المبرقَشتين بنمشٍ طفيف. ظلَّ تأثير نظرة عينيها مُستمرًّا في روحي، حتى بعد أن قطّبت ما بين حاجبيها الغزيرين الطويلين. حوّلَتْ نظرها بعيدًا عنّي قبل أن تقول، بنبرة صوت هامسة أسيانة:

- "أنا طاقتي تخلقها القراءة فقط. بالمناسبة أنا لا أستطيع أن أمشي. لكن في كل الأحوال أشكر قلقك عليّ، فاطمئن فأنا آكل أحيانًا ولديّ من يساعدني. شكرًا لاهتمامك".

أشارت إلى ركن من أركان المقصورة، بجوار فراشٍ جلدي يشبه الأريكة في الجهة المقابلة، ورأيت عكازين خشبيين متجاورين، وعصا مشي قصيرة.

قالت: "لا يمكنني السير إلا بأي منها. أعاني من ضمور في ساقي. وعلى أية حال فليست لي حاجة كبيرة لهما فأنا لا أغادر مكاني، إلا نادرًا، وللضرورة. تأكد أيضًا أنني لا أراك، فأنا كفيفة البصر،

t.me/qurssan

ولا تساعدني سوى هذه النظارة السوداء على كشف بصيرتي للقراءة".

وقبل أن أفتح فمي بكلمة أو أعبر عن دهشتي قالت لي بنبرة جمعت الرجاء بالحسم:

- "أرجوك. توقف عن مقاطعتي. لا بد أن أعود للقراءة. إن شئت فبإمكانك أن تنصت لما أقرأ، لكن لا تحدثني مرة أخرى. بإمكانك أيضًا أن تذهب للحفل. اطرق الباب عندما يصمتون. يفعلون ذلك مرة كل ساعة أو اثنتين. لا أذكر الآن، ولكن لا تحلم بالخروج من عربة الحفل إن قررت الدخول إليها".

ثم وضعتْ نظارتها على عينيها، واستطردت القراءة.

تذكرت أمرًا فقلت:

- ولكنك قلت لي لماذا لا أخجل مما أرتديه. أكنت تريننى؟

توقفت، وضحكت لوهلة، ثم قالت:

- هل تتوقع أن يتحرك الناس عراة في الحياة؟

وقبل أن أرد بشيء، رفعت صوتها بالقراءة مؤكدة أن وقتي معها انتهى!

t.me/qurssan

4

خرجت عازمًا على إلقاء نفسي خارج هذا القطار المشؤوم. تناولتُ حقيبتي، وألقيت بقميصي على كتفي. وعدتُ أستكمل سيري، متلبّسًا بالعناد، فأن أموت حُرًا في النهاية أفضل ألف مرّة من الموت في هذه الزنزانة المتحركة إلى المجهول، وإلى الأبد.

لمحتُ ابتسامة نفسي الساخرة، فتجاهلتها بكبرياء، فهذه نيتي الصادقة.

وضعتُ الحقيبة على الأرض، وارتديتُ القميص. اتجهت إلى بابِ القطار. ولكني لم أجده. أين الباب؟ تلفّتُ حولي. ولم أجد له أثرًا.

هل التبس عليَّ الأمر، فلم أذكر مكان دخولي إلى القطار؟ ويبدو أن نفسي أشفقت عليّ من غيظي؛ فقدمت لي اقتراحا يقتضي تجاهلي التام لكل ما هو غير معقول هنا.

طالبتني بألا أعير اعتبارًا لكل هذه السخافات. زيّنت لي العودة إلى مقعدي كأي مسافر مُحترم يستقل قطاراً ينطلق بين مدينتين. أُمسك

t.me/qurssan

بكتابـي، وأقطع الوقت بالقراءة، فلا بـد أن يصل القطار في النهاية إلى غايته. وكما تعيش قارئة القطار سوف أعيش.

مـع هذا الخاطر ابتلعتُ ريقي بصعوبة، وأدركتُ معاناتي من شـدّة العطـش، فدلفتُ عبر البـاب المعدني الصغير في الجـوار إلى الحمّام الضيّـق الذي هالتنـي نظافته. كأنه لم يُسـتخدم من قبل أبـدًا. وضعتُ فمـي تحت الصنبور وشـربت من الميـاه البـاردة، أكاد لا أصدّق أنني أخيـرًا وجـدتُ ما يُعين على الحيـاة في هذا القطار الضائع. مسـحتُ وجهي بالمياه البـاردة، ثم عدتُ إلى المقعد، وفتحتُ كتاب الأحلام. تمنيت أن يأتي مفتش القطار ويلقيني خارجاً باعتباري متسللًا لا يملك تذكرة، فلعل هذا هو كل ما أحتاج إليه.

بدأت في القراءة بعقل شارد ومشوّش. وبين الفينة والأخرى ألقي نظـرة خاطفة إلى النافذة المضبّبة، التي منحتني الإحسـاس بأن القطار يسـير في ليل طويل لا ينتهي. أخطف النظـرات إلى النافذة لأتأكد من اقتراب المحطة التي سـيتوقف عندهـا، محاولًا أن ألفظ من وعيي كل ما رأيته، مؤكدًا لنفسـي أنها ليست سوى أضغاث أوهام، لا حفلة هنا، ولا قارئـة عارية غامضة. مجرد قطار ينقـل راكبيه بين وجهات مغادرة ووصول، وسوف أصل في الموعد المحدد إلى الجهة المقصودة.

تردّدَت في سـمعي رنّة ضحكة رقيعة تهيّأ لي أنها من فعل شـيطانة أفـكاري التـي زيّنت لـي الجلوس هنـا والتفكير برزانـة، وتقبّل قدري كمسـافرٍ محتـرم. فلوهلـة لـم أتذكـر الوجهة التـي أقصدهـا، أو حتى

t.me/qurssan

المكان الذي منه انطلقت رحلتي في هذا القطار! تقلص بطني، وشعرت بالخوف، لكني حاولت التماسك.

عدتُ إلى "كتاب الأوهام". ولكني لم أرغب في التلهي بهذه الضلالة الجديدة كثيرًا. دققت النظر وكان العنوان أمامي هو "كتاب الأوهام"! قلت لنفسي اسمه "كتابُ الأحلام". ولم أعاود حتى إلقاء النظر على غلافه. لكن سرعان ما اكتشفت أنني لا أستطيع العثور على الصفحة التي توقفت عندها. فقد وجدت الفاصل الورقي موضوعًا بين الغلاف الخلفي وآخر صفحات الكتاب. قلّبت الصفحات، وقرأتُ عابرًا بين السطور شذرات من هنا وهناك. لم يمر شيءٌ من هذا عليّ من قبل.

تصفحتُ كامل الكتاب وقلّبت غلافه، وبالفعل لم يكن سوى كتابٍ آخر لا علاقة لي به اسمه "كتاب الأوهام". فأين ذهب "كتاب الأحلام" إذن؟ معقول؟ أتكون قارئة القطار قد استبدلته أثناء رحلتي بين مقصورتها وغرفة الحفل؟

بدأتُ القراءة، وسرعان ما قفز مشهد قارئة القطار إلى مخيلتي، وصوتُها الحتمي الرقيق إلى أذني. وحاولتُ أن أقلّدُها وأنا أرفع صوتي قليلًا:

"يقولُ الواهم، عَافَانا الله وإياكم من شرِّ الوهم، إنّ ما يراه، أي يقع عليه بصره هو الموجود، وهو بالتالي الحقيقي. ولا نعرف كيف أدرك ذلك اليقين؟ أرأيتم النجوم البعيدة في السماء؟ أنتم ترونها حقا،

t.me/qurssan

لكـن ألها وجود؟ الحقيقـة: لا، لا وجود لها؛ فقـد انطفأت وأصبحت نسـيًا فـي ظلام الكـون الحوشـي، بينما لا نـرى إلا ما كانـت عليه عبر الزمـن. تُهيـئ لنا عيوننا أننا نرى ما خبا واندثر قبل مئات السـنين، فأين الحقيقة هنا؟ لقد غدت صناعة الأوهام، واحدةً من أكثر الأعمال ربحًا في عالمنا المقيّد بحواسهِ المحدودة، وتحميها ما تُزيّنه العقول الفارغة لأصحابها بسبب إمكاناتهـا المحدودة. الوهم قوة يستمد بها البشـر قدراتهم على تدمير حياتهم باستمرار. من هلاكٍ إلى تهلكة".

كنـتُ أسـتمع إلـى صوتي وأنـا أقـرأ، مُتمتمًـا ومُنشـغلًا بموضوع الكتـاب الذي بـدا لي جذّابًا. لكـن تهيّأ لي أنني أسـمع صوتًا، وتلفتُّ حولي فلم أر شـيئًا. عـاودت القراءة. لكنّي بعد عدّة لحظات سـمعت صوتًـا يُلقي علـيّ تحية، فالتفت جهة الصوت لأجـد قارئة القطار وقد وقفـت قريباً منّي، لكنها ترتدي ثيابًا لأول مرة. شـورت جينز وقميصًا مخمليًا أصفر، رأيت عينيها اللوزيتين واسـعتين هذه المرة، وبدت لي وجنتاهـا المنمّشـتان بلون الخوخ. لكني للمرة الأولى أراها مبتسـمة، وقالت:

- "اعذرني. لم أقصد أن أتسبب في إزعاجك".

- "مـا الذي جاء بكِ هنـا؟ وكيف قررتِ التوقف عـن القراءة؟ بل كيف تمكنت من المشـي إلـى هنا من دون العكازيـن؟ ولماذا ادعيت أنك لا تبصرين؟".

- "لستُ من تظن".

t.me/qurssan

ابتسمتُ لها ابتسامةً ساخرة. وأتبعتُ ذلك بقولي:

- "هـل انتهيتِ؟ لأنني أريد أن أنام بصراحة. انظري يبدو الليل قد أطبق على القطار في الخارج".

ضحكَـتْ بنعومة. كان لعينيها نظرة حالمة. نظرة امرأة رومانسـية، قادرة على أن تجذب عينيّ بعيدًا عن جمال جسدها.

مدّت يدها لي وقالت:

- "تعال معي. سوف أشرح لك الكثير".

مددت لها يدي كالمنوّم مغناطيسـيًّا، ومشيتُ خلفها ممسكًا بيدها كطفلٍ.

اقتربنا من الغرفة، فوضعت إصبعها على شفتها تُطالبني بالصمت. ولم تكن لديّ النيّة أصلًا للنطق، فهززتُ رأسي متفهمًا ومتواطئًا، مبتسمًا ببهجة؛ ردًّا على ابتسامتها اللعوب.

لكننـي بمجـرد أن وضعت قدمي على مدخـل الغرفة، نزعتُ يدي من يدها، بتلقائية وفزع.

t.me/qurssan

5

كانت قارئة القطار، أقصد القارئة الحقيقية التي التقيتها منذ وصلت إلى هنا، ممددة في مكانها، عارية كعادتها. تُمسك بنفس الكتاب، لاتزال، وتقرأ بالصوتِ الهامس العذب نفسه، واضعة نظارتها السوداء على عينيها.

نقلت فزعي بينهما. لم تلتفت القارئة باتجاهي، بينما أخذت شبيهتها، ذات الشعر المُسدل على جبهتِها، تشير بيدها، داعية إياي باتجاه السرير المقابل للأريكة التي تتمدد عليها قارئة القطار.

استسلمت واستجبت لما طلبت، وتمددت بجواري. كانت تبتسم لي ابتسامة بها رقة وتعاطف؛ على النقيض من شبيهتها المتجهمة تلك، أو توءمها. مسدت شعري. تحسست صدري. كانت تفعل ذلك كأنها تعرفني من سنوات طويلة. وعندما تأكدت من استكانتي التامة لها، قالت هامسةً: "اسمي لا أحبه"، لكن يمكنك أن تسميني "ذكرى".

أوضحت أنها مجرد توءم القارئة، أشارت لشقيقتها ولم تذكر لها اسما. قالت إنها ستشرح لي كل شيء.

t.me/qurssan

قالت لي: "اهدأ وسوف يكون كل شيء على ما يرام. احكِ لي قليلًا عن نفسك. ما اسمك؟".

تنفست بعمق. غير أن ذهني كان مشوَّشًا لدرجة مربكة. أقصد أنني، ببساطة، لم أتمكن من استدعاء اسمي!

نقلت لها المعلومة في ارتباكٍ وحيرة. أمسكَتْ بكفي وهي تهمس لي بألا أنزعج، وأضافت أنني ربما بسبب الإرهاق والتعب قد أنهكت، وختمت جملتها بكلمة "يا حبيبي". كلمة عابرة قيلت بسرعة لكنها اخترقت وعيي بشكلٍ عجيب.

حاولت أن أتذكر أي شيء عن نفسي. لكني لم أذكر سوى بداية رحلتي هنا في هذا القطار.

أدخلتني مقصورة أخرى، في الجوار. جلسنا على أريكة متجاورين. قالت بابتسامة:

"لا تقلق، سوف أساعدك. ببساطة ستجد كل شيء مدوّنًا في بطاقة هويتك. أين هي؟ تذكرت المحفظة فوضعت يدي على جيوبي بتلقائية، وتذكرت أنني فقدتها، حينما قفزت للقطار. كان ذلك كل ما أذكره عن أي شيء يسبق وصولي للقطار. صرخت قائلًا : اللعنة، لقد سقطت المحفظة مني. قبل ركوبي القطار مباشرة".

ابتسمت في هدوء وقالت:" لا تقلق. سنجد حلًا للأمر. لديّ قدرة كبيرة على الفراسة. لا تصدقني؟ أعطني يدك".

t.me/qurssan

مددتُ لها يدي باستسلام. تأملتْ كفي كأنّها قارئة كفّ محترفة. أمسكَتْ بها وتحسست أظافري بطرف إبهامها، وكفي ببطن كفها.

قالت مبتسمة: "لا تبدو لي بُستانيًّا أو عامل بناء". ولم أفهم إذا ما كان ذلك أمرًا حسنًا أم سيّئًا. عادت لتتحسس كفي وتتأمله، بينما أدقق النظر في كلمة باللون الأسود على التي شيرت الأصفر الذي ترتديه.

قالت: "لا تبدو هناك علامات في أصابعك تكشف عن كونك تعمل في الطباعة أو الكتابة"، وابتسمَت مضيفة "ولا تشققات أو خشونة، لا يبدو لي أنك غسلت صحنًا بهاتين اليدين". توقّفَتْ ثم أردفت وهي تتحسس كفي برفق "باختصار أنت لا تعمل عملًا يدويًّا. لكن قوة يديك ربما تعود لأنك تمارس الرياضة فقط".

نظرت إلى صدري وأردفت: "حتى جسدك يؤكد أنك رياضي".

تأملتْ يدي مرة أخرى ثم قالت:

"ربما تكون طبيبًا أو عازفًا موسيقيًّا". ابتسمتُ لها، مدركًا أنّ كل ما تقوله لا يعني لي شيئًا محدّدًا، بينما أحاول استدعاء أي شيء عن ماضي الملغز؛ الذي أصبح منسيًّا فجأة. انتبهت إلى أن مؤشرات النسيان هذه بدأت قبل وهلة، لأنني عندما خلعتُ سُترتي الخضراء الغريبة في بداية لقائي بقارئة القطار لم أتذكر لماذا أرتدي تلك البدلة الرسمية التي أشعرتني بأنني مسجون داخلها.

قالت إنها تفضّل الانتقال إلى الغرفة الأخرى؛ لأنها تساعد توءمها في الذهاب إلى الحمّام، وتقرأ بدلًا منها وقتما ترغب في تناول الطعام.

t.me/qurssan

، أنها ستقلق عليَّ إذا بقيت وحدي. راودتني الرغبة في البقاء وحيدًا؛ طلبًا للنوم. فلعل ذاكرتي تستعيد عافيتها إذا ما حظيت بعدة ساعات من النوم العميق.

هدّأتني توءم قارئة القطار. ثم اختفت قليلًا وجاءتني برغيف خبزٍ وبطبقٍ صغير ملأته بالعسل، وقضيت على الخبز والعسل بنهم، بعدها بدأتُ أستعيد توازني بعض الشيء. بدا واضحًا أنني أدرك الأشياء من حولي، وأميزها، ولكني لا أعرف عن نفسي شيئًا.

قلت: "كيف ستكون حياتي بلا ذاكرة؟".

قالت: "على فكرة أنت تسبب لنفسك التوتر بلا داع. أليس من الأفضل لك ربما أن تتمتع بالنسيان؟".

ساد الصمتُ، لكنها استطردت: "أحيانًا يقضي شخصٌ أكثر من نصف عمره ليهرب من ماضيه، من ذاكرته، ولكنها تظل تطارده مثل اللعنة".

قلت: "ولكن من قال إنّني هارب من ماضيّ أو ذاكرتي؟ أنا مجرد مسافر عابر في قطار".

تأملتني بعينيها الحالمتين، لاحظت كثافة شعر حاجبيها، وعمق النثرة التي تعلو شفتها العلوية الرقيقة، الشفة ذات الطرمة البارزة قليلًا، ثم أوضحت لي، أن علينا الانتقال للغرفة الأخرى. لاحظت أن سنيها الأماميتين بارزتان قليلًا وبينهما فالق صغير.

t.me/qurssan

مضينا صامتين، وكانت قارئة القطار تهدر بالقراءة، بصوت متوتر، متوفز، ناعم، وقوي:

"ليس الحُلم حُلمًا إلا حينما نتمكن من استدعائه. في الذكرى يتجسد الحلم. فمن لي بمصباح الذكريات؟ الطفولة البعيدة. الآمال التي حلمت بها، ولم تتحقق. الأشخاص الذين كنتهم. الطفلة التي تلمّست حواف العالم بالخوف. التي أدركت حقيقة الخوف بالمعرفة. لكنها حلّقت حول المعرفة كفراشةٍ تدور حول شعلة الضوء. الطفلة التي عشقت المعرفة، كرهتْ الأحلام لأنها جسّدت لها صور الخوف. كل حلم هو قصّة خوف جديدة. لكنها ستُدرك مع الوقت أنّ النار، وحدها النار، تمتلك القدرة على حرق المخاوف، وإشعال المشاعر. نعم، شعلة اللهب التي تنأى بالمخاوف بعيدًا عن ذاتي، لأنها شامخة؟ لأنها تعاند الريح، لأنها تنتصب باتجاه السماء أينما وُجدت، ولأنها لغزٌ عصي، غامض لا حلول له".

أحسست براحة التخلص من الحذاء كأنه يضغط على رأسي وليس قدمي. تمدّدنا مثل طفلين خائفين من إيقاظ الأبوين، بعد أن اقتعدنا الأريكة الجلدية بحركات وئيدة بطيئة، حاولنا بها أن نخفف وزننا لنغدو مثل ريشتين خفيفتين، بلا ثقل يضغط على الأرض أو الأريكة. ويبدو أننا نجحنا في ذلك لأن صوت قارئة القطار لم يتوقف:

"تصفُ أحلامها. تصفها بلا ألوان، وتحاول أن تعيد تخيّلها وتراها قد اختلفت. الجبل الذي تبدو قمته الدائرية كفوّهة بركان،

t.me/qurssan

ترى نفسـها وهي تسـقط من ذروته إلى الهاوية. القط الأسود المخيف كان قطًّا بريًّا هائـلا، الموتُ الذي لاحق أحبابًا كُثـرًا اقترب من أقرب الأقربيـن. الطفلة التـي تحولت لذئب وهي تركـض. تنزلق الصور من مكمنهـا. كأنهـا تريـد أن تتبخر وتتلاشـى. هل تشـبه أحـلام الآخرين أحلامنا؟ تتأمل الشعلة وتحدّق فيها، لكنها لا تستدعي سوى أفكار".

لاحظْـت أن تـوءم قارئة القطـار الملتصقة بي، تردد همسًـا، خلف نوءمها، كل كلمة. كأنها تردد تعويذة من كتاب مقدس.

فغدوت أسمع الجملة كأن لها صدى صوت هامس:

- "أين لـي بمصباح الذكريات؟". "**بمصبـاح الذكريات**". "حيث أرى الشعلة فتضيء ذاكرتي؟". "**فتضيء ذاكرتي**".

همست ذكرى بالجملة، وفعلتُ مثلها. ثم أخذت الجملة وحلّقت بهـا بعيدًا. أيوجد حقًّا مصباحٌ للذكريات؟ أئذا أسـقطت السـماء على رأسي مصباح الذكريات سـأجد فيها مأوى لذاكرتي الضائعة؟ أم أنني سـأكون أفضل حظا بالفعـل لأنني فقدت ذاكرتي؟ هـل يمكن أن تبدأ ذاكرتي وتنتهي هنا من رحلة القطار؟

t.me/qurssan

6

استسلمت للزمن في صحبة ذكرى. نختلس من الوقت اللانهائي دقائق، لنتناول الطعام الذي تحضره وحدها. نتلامس في صمت، كفا لكف. نجلس صامتين كيفما اتفق أحيانًا. ثم نعود إلى أريكتنا المقابلة لقارئة القطار، التي فكرت أن أسميها "زرقاء". ثمة هاتف باطني أوحى لي بأن هذا هو اسمها. "زرقاء القطار".

سوف تلح عليّ الفكرة حتى أسأل ذكرى، فتقول لي إن ذاكرتي تحتفظ بمعلومات كثيرة حتى لو لم أكن قادرا على استعادتها. ثم أخبرتني بقصة زرقاء اليمامة. قالت: "يُروى أنه في إحدى الحروب استتر العدو بفروع الأشجار وحملوها أمامهم، فرأت زرقاء اليمامة ذلك فأنذرت قومها فلم يصدقوها، فلما وصل الأعداء إلى قومها أبادوهم وهدموا بنيانهم، وقلعوا عيني زرقاء اليمامة فوجدوها محشوة بالإثمد وهو حجر أسود كانت تدقه وتكتحل به. وسُمّيت زرقاء اليمامة بهذا الاسم لزُرقة عينيها".

ابتسمت لنفسي لدقة الوصف الذي أردت إطلاقه على قارئة القطار، التي ترى الكلمات رغم عمى عينيها.

t.me/qurssan

حلّت لي ذكرى مشاكل عديدة باستثناء توفير القهوة. أصابني الصداع. واستمر يدق في رأسي. فقدتُ تركيزي، وشعرت بأنني سأجنّ. قلت لها لو عربة الحفل هي المكان الوحيد المتاح لي فيه تناول القهوة فتأكدي أنني لن أتراجع عن الذهاب إليه حتى لو بقيت هناك للأبد.

ابتسمت ابتسامة عابرة. قالت إننا بدأنا في إمساك خيط ذاكرتي، فمن الواضح أنني أعشق القهوة. انبثقت في قلبي نقطة من السواد، لعله الغضب. لكني تمالكت نفسي وأطبقت شفتي. هل حب القهوة بمكن أن يكون عنصرًا من عناصر استعادة الذاكرة؟

غابت عني قليلًا وعادت بكوب ورقي فاح عبقه من بعيد، فرحتُ أشمّ العبق وأرتشف منها رشفات صغيرة متتابعة، بينما بدا لي مذاق طعم القهوة أليفًا، لم تشرد عنه ذاكرتي. نهضت واحتضنتها.

لا أدري لماذا استدعى مذاق القهوة وقع كلمة "يا حبيبي" العابرة كما نطقتها ونادتني بها من قبل. لفني شعور غامض. كانت ذاكرة مشاعري تستيقظ بينما عقلي في وادٍ آخر.

كان الوقت الوحيد المسموح لي فيه أن أشعر بخصوصيتي هو وقت الحمام، أحلق ذقني، أستحم واقفًا بمياه صنبور صغير، أسكبها في إبريق بلاستيكي، ثم أعود عاريًا، متأملًا ما يدور في ذهني من أفكار؛ بسبب هذا النص أو ذاك مما تقرأ قارئة القطار. أفكر في الأحلام التي توقفت منذ وصلت القطار. في شعاع الضوء ينعكس على جسدها النحيف الأملس.

t.me/qurssan

أما ذكرى فذهنها شارد أبدًا؛ بسبب تتبعها لقراءات توءمها. يمكنني الإمساك بكفها الناعمة فقط وقتما نُصت صامتين للقراءة. كفها ذات الأصابع الطويلة الرقيقة، التي أتشبث بها كملاذ مطمئن في عالم القطار الغامض القادم من مجهول وماضٍ إليه.

جسدٌ شاردٌ أيضًا. لا أعرف هل يشعر بلمساتي التي أختلسها أم لا؟ حين ألصق فخذيّ بفخذها يمر في كياني ما يشبه إيقاعًا خفيًا، منتظمًا، لا أسمعه، بل يسري في جسدي. كل حواسي باتت مشوّشة.

في لحظات إنصاتي لإيقاع طبول، لا أعرف مصدرها، أراها؛ كخيالٍ راقص يتثنى أمامي، كأن طيفًا من أطيافها خرج من إسار الجسد ليرقص أمامي. طيف لراقصة معبد وثني عتيق وإيقاع يسري في جسدي، لكنه لا يوقف قراءة قارئة القطار ولا صوتها المتلون بما تقرأه.

يتهيأ لي أن الإيقاع ليس سوى طرقات أيدٍ قويّة ورشيقة على زجاج النافذة. أعود لأتأمل راقصتي الشبحية في خيالي. أمسك بكف "ذكرى"، بينما أنصت للإيقاع الساري من جسدها لروحي، ممتزجاً بهدير اندفاع القطار.

أسمع، ما بين النوم واليقظة، صوتًا عميقًا وغريبًا؛ كأنه نفير صاخب، أو كنغمة عالية تصدر عن آلة كمان عملاقة تعزفه يد وحش غامض لا يراه أحد. أسمع صوت زخّات مطر غزير تداهم النوافذ، وفرقعات رعدية ساخطة تلحق بها ومضات بريق على النوافذ، كأنما تضيء للقطار طريقه من شدتها. أشعر أنني أعلم أشياء، وأدرك أشياء، لكني أجهل عن نفسي كل شيء، وأغفو.

t.me/qurssan

7

استيقظت على هدوءٍ مريع. انقطعت زخّات المطر، وخرس الرعد، وانقطع وميض البرق. تسلل صوت هدير القطار، ربما ليذكرني بما أعيشه. لم أجد ذكرى بجواري. اختفت قارئة القطار أيضًا. نهضت مذهولًا. أين ذهبا؟ ربما هذا هو موعد حمام القارئة. أو لعلها تركت جسدها لتوءمها لكي تحممها. ولكن كيف سيسير القطار إذا توقفَتْ عن القراءة؟

خرجت للعربة التي اعتدنا أن ندخن بها أنا وذكرى، وتمنيتُ أن أراها مقبلة بقدح القهوة الصباحي، التي أخفت عني مكان إعدادها كما لو أنه شأن حربي. لعل مخزون القهوة في قطارٍ مجنون، مثل هذا، أوشك على النفاد.

ما إن ولجتُ العربة اللاحقة، حتى لمحتهما. كانت قارئة القطار جالسةً على مقعدٍ يُطل على الممر الفاصل بين صفي المقاعد، وفي الجهة المقابلة جلست ذكرى تنصت لها كالعادة.

لوّحت لي "ذكرى" بدلال، ثم نهضت مقتربة مني. صحبتني بعيدًا، وقالت لي إن شقيقتها عانت من الدوار، بالإضافة إلى ألم في ظهرها

t.me/qurssan

منعها من التمدد في مكانها. وإنها ساعدتها لكي تصل إلى هذا المكان الذي فضلت أن تواصل فيه القراءة.

لـم أعـرف مـاذا أقـول. وددت أن أسـألها عن سـر إصابة سـاقيها بالشـلل؟ وعـن سـبب كلـل عينيهـا اللتيـن لا تبصران سـوى حروف الكتب. لكني لم أفعل.

لفتـت انتباهـي لضـرورة عودتنـا لنجلس قريبًـا من شـقيقتها لكي ننصـت للقـراءة، فأبديـت تفهمـي بهزّة من رأسـي بعد أن سـألتها عن القهـوة. طلبت مني أن أجلس إلى جوار "زرقاء" حتى تذهب وتعدها. أضافت أنها ليست مطمئنة لحالتها الصحية.

جلسـتُ بجوارهـا وكانت تقرأ من كتابها وإن لـم أكن متأكدا إذا ما كان نفس الكتاب أم غيره.

" قالـت لـه إنهـا لا تريـد أن تبقـى فـي صحبتـه. لـن تتمكـن من الاسـتمرار. نظر إليها بذهول. لكنها أشـاحت بوجهها. حاولت إخفاء دموعهـا. الدمـوع التي فاضـت فتقاطرت علـى وجنتيها. لم تشـرح له شـيئًا إلا في المسـاء. في "مطعم القناديل المعتمـة"، حيث التقيا لأول مرة. جلسـا محاطين بالشموع، على نفس المنضدة التي شهدت تخلق علاقتهمـا مـن عدم. تمامًا حيـث أعلن لها عن مشـاعره، وحيث تبادلا قبلتهما الأولى الخاطفة. أما في هذا المساء فكان الأمر مختلفاً. وجيب قلبـه يمنعه من التفكير بتركيز. تحوّل كيانـه إلى عاصفةٍ من العواطف. يشـعر بالعجـز، وعدم الفهـم، واللوعة، والشـكّ. ويردد لنفسـه أنه لن

t.me/qurssan

بسمح لها بأن تغادر حياته على هذا النحو. قالت له، وكرّرت، أنها تعاني من الخوف. من آلام الفراق. أكّدت له أنها لا تريد أن تعيش تجربة ألم انتهاء العلاقة بعدما تتوثق علاقتهما أكثر. فلماذا تتورط الآن في اختلاق النقيض، لماذا أمست اليوم قادرة على احتمال ألم الفراق، وراغبة في تشريد كل منا بعيدا عن الآخر؟

سألها، بعينين غاضبتين محمرّتين من شدة الأسى: لماذا؟!

قالت إنها لا تملك شجاعة المنتحرين. قالت إن الشجاعة الحقيقية في تمثّل الفقد مبكرا، في الاستعداد للموت. علينا أن ننهي علاقتنا الآن حتى لا يكون الفراق فاجعًا حين تضطرنا الظروف لذلك. سنعتاد على بعضنا البعض أكثر وأكثر، ستكون أنت سندي وسوف أكون سندك، سأتشرب روحك تدريجيًّا، سأصبح أنت، وستغدو أنت أنا. ثم سيأتي الموتُ ليفرقنا. سيقضي على واحد منّا يومًا. أو سيأتي القدر بأسباب أخرى للانفصال، وستصبح الحياة عدمًا وصمتًا وسكونًا تامًّا، ومرارة بلا نهاية. أضافت بعينين دامعتين:

- أنا لا يمكنني أن أحتمل هذا العذاب. صحيح أنه قد لا يتحقق إلا بعد سنوات طويلة، ولكنه أيضًا قد يحدث غدا. أشفق عليك أكثر مما أشفق على نفسي.

نظر لها مذهولًا، قال لها:

- أحييني اليوم وأميتيني غدًا. لا يعنيني المستقبل ووجع الفراق المستقبلي. ما يعنيني هو..

t.me/qurssan

مسّت بإبهامها شفتيه".

صمتت قارئة القطار فجأة. التفت إليها. أمالت رأسها على كتفها. نهضتُ مسرعًا واقتربت منها، ربتُّ على كتفها فلم تتحرك أو تنطق. نزعتُ النظارة عن عينيها. كانت عيناها مغلقتين.

اقتربت من وجهها، وسمعتُ صوت أنفاسها فتنفست الصعداء.

جاءت ذكرى ممسكة بقدح القهوة. قالت وهي تضعه على منضدة صغيرة في الجهة المقابلة:

- كنت أعرف أنها ليست في حالة جيدة.

- ماذا سنفعل؟

- لا تهتم، سوف أعالج الأمر. المهم أن يستمر أحدنا في القراءة.

- وماذا عنها؟

- احملها إلى غرفتها، وسوف أتولى أمر علاجها، ثم عُد واستمر في القراءة.

اقتربتُ من زرقاء ووضعت ذراعي اليسرى أسفل ركبتيها، وأسندت بالأخرى ظهرها، وحملتها. بدت خفيفة بشكل غريب. كما لو أن جسدها أجوف مثل الطيور، بلا عظام. أحسست أن بإمكانها أن تطير متى تشاء.

سرتُ حاملًا إياها بحرصٍ وحذر، وتسلل عبقٌ عطري غامض من شعرها.

t.me/qurssan

أنزلتها بحرصٍ على الأريكة الخاصة بها. أشارت "ذكرى" بهزّة من رأسها أن أذهب لأواصل القراءة حتى تلحق بي، بعد أن تنتهي من تمريض شقيقتها.

عدت إلى حيث كانت جالسة، رأيت قدح القهوة فتناولت منها جرعتين سريعتين، ثم التقطت الكتاب، ودون أن أتصفحه وجدتني اقرأ:

"تبادلا النظرات. تأمل حدقتيها السوداوين وهما تسبحان في بياض مقلتيها، وشعر بأنها تخترق وجدانه كله بعينيها. مدّ يده يمسك بيديها بتحسس كفّيها بشغفٍ. وهمست له: دعنا نذهب إلى بيتك لتكون - لبلة الوداع. غرق قلبه عندما سمع "الوداع". امتلأ قلبه بمرارة كلمة "بيتك". ألم يكن "بيتنا"؟! شعر بنيران الحسّية ووجع الفقد معًا، مما جعله يود أن يضمها إليه بقوة وحشية. وخزه قلبه. كمحكوم بالإعدام يُسأل عن آخر أمنياته، إحساسه بالزمن أثقل من إحساسه بالمشاعر. يخطو الخطوة وهي بجواره فيشعر بأنها خطوة جديدة في زمن آت، ستغدو بعدها مجرد ذكرى في ماض لن يعود أبدًا. أمسك بكفها. تلقت كفه بيد محتضنة، ورمق عينيها تبتسم له ابتسامة باكية. ولكنه لم يفهم أتبتسم لتُخفي بكاءها، أم تبكي لكي تزيح أثر ابتسامتها".

اختطفتني حكاية العاشقين، وغبتُ شاردًا في ليلتهما الأخيرة. ضحكتُ للمسرات، وأحسستُ بلذّتهما، وغاصَ قلبي في حُزن الوداع. في النوم المتقطع الذي كان كل منهما يستيقظ خلاله ليلقي

t.me/qurssan

نظرة وداع على رفيقه ويعود للنوم هربًا. الاستلقاء الطويل في الفراش بعد الاستيقاظ. رغبته في إيقاف الزمن. مسُّ يدها لخصره العاري حينما نهض، والتفاته إليها ليراها وقد دفنت وجهها الباكي في الوسادة.

عشتُ ذلك كله، وتمثلت صراع الحب والشك الذي يكاد يقتل العاشق المتيّم. قرأتُ طويلًا، على أي حال. لا أعرف كم مرّ عليَّ من الوقت، وأنا أقرأ في الكتاب عن هذين العاشقين، حتى شعرتُ فجأة بحركة غريبة. اهتز القطار كما لو أن حصيات صغيرة اعترضت عجلاته. لاحظت أن سرعته خفتت قليلًا، فالتفت أنظر من النافذة، وكالعادة لم أبصر سوى ضباب يُخفي كتلة مشوّشة من عالمٍ غامضٍ يفتح الطريق للقطار المجنون أينما حلّ أو سار.

عدتُ إلى الكتاب فسمعت صوتًا غريبًا.

t.me/qurssan

8

سمعت الصوتُ جليّا:

"أنت هنا"؟

تناهى السؤال لسمعي بصوتٍ أنثويٍ ناعم، يماثل صوت الفتاة التي كنت أقرأ عنها وعشيقها في الكتاب.

لكنني سرعان ما أدركت أنني أعاني من الهلاوس، وأن أحدًا لم يكن بجواري. انتزعني من هذه الضلالات صوت حفيف خطوات أقدام، وتبعه صوت ذكرى مُعلنًا أن زرقاء استردت وعيها، وإن كانت لاتزال في حالةِ إعياءٍ تمنعها عن الاستمرار في القراءة.

طلبَتْ الكتاب لتُواصل القراءة بدلًا منّي. راودني شعورٌ بالغيرة، وبالإحباط أكثر، إذ كنتُ راغبًا في تتبع سيرة العاشقين، لكني منحتها الكتاب في استسلام.

نهضتُ فجلسَتْ في مكاني. وشرعتْ في القراءة من حيث انتهيت. جاءني صوتُها عذباً وجميلًا، تقرأ قصة العاشقين المحبطين.

جلستُ على الأرض، ثم تمددت أرقب سقف عربة القطار ربما للمرة الأولى. السقف الأبيض المصقول الذي تتوزع على امتداده

t.me/qurssan

مصابيح فلورسنت مغطاة بأغطية بلاستيكية شفافة. تضيء حاملة الحقائب الخفيفة، المعدنية، التي تعلو المقاعد.

أنصت لصوت ذكرى بلا تركيز. أشعر باهتزازات القطار وضرب عجلاته الحديدية على القضبان. نهضتُ واعتدلت جالسًا على الأرض، فوجدت نفسي قريبًا من قدميها. كانت تضع ساقًا على الأخرى. أمسكتُ بقدمها النحيلة الرشيقة. لاحظت خطوطًا زرقاء رهيفة في الساق العاجية، بينما وجدتها تشرع بمداعبة شعري بإحدى يديها، دون أن تتوقف عن القراءة أو تضطرب.

شعرتُ بحيرةٍ. لو عشتُ عمري بجوار هذه الجميلة فلن أجد منها إلا الشرود. ولو ابتعدت عنها سأشعر بأن جانبًا من روحي يضيع. ناوشني شعورٌ بسخافة أفكاري فانتفضتُ واقفًا، وبلا أي تردد توجهتُ صوب قارئة القطار قلقًا. ولم تلتفت "ذكرى" إليّ، وكأنها تعرف وجهتي.

وجدتُها غافية، لكنها فتحت عينيها، كأنها تراني وقالت لي بصوت متعب:

- عليك أن تتركنا الآن. لا ينبغي أن تشغل ذكرى عن القراءة أكثر من ذلك.

- لا أريد أن أشغل أحدًا، أريد استعادة ذاكرتي.

- لماذا لم تذهب للحفل إذن؟

t.me/qurssan

- الحفـل؟ ألـم تقـولا لـي إن الداخل إلـى عربة الحفـل لا يمكنه الخروج منها أبدًا؟

- هذا هو المكان الوحيد الذي سـوف تسـتعيد فيـه ذاكرتك. نعم. عربة الحفل هي المكان الوحيد في القطار الذي يمتلك من فيه ذاكرة. من يتحملون مسؤولية امتلاك ذاكرة يبقون هناك.

خفق قلبي سريعًا، وقلت لها:

- لم تخبرني أي منكما بذلك من قبل.

- لـن تخبرك بشـيء. هي تريدك هنـا لأنها تتوهم أنهـا تحبك. أو ربما لكي تستكمل مشاعر قصة حب عاشتها في زمن ما.

- زمن ما؟!

- نعم، ولكنها كما ترى سـتظل مشـغولة عنك بي، أو بالقراءة بدلًا منّـي، إذا توعكت صحتي. لو أردت رأيي، فوجودك معنا هنا لن يكون إلا إضاعة لوقتك ولحياتك.

- حياتي؟ وأين هي حياتي في هذا القطار؟ ولكن لحظة. هل يُعقل أنها وقعت في غرامي؟ كيف وهي لا تعرف عني شيئًا؟

جاءني صوت قارئة القطار حاسمًا:

- اذهـب ولا تُضـع وقتـك أكثر مـن هذا. إن كنـت حقًـا راغبًا في اسـتعادة ذاكرتـك. أخبرتـك كيـف لك أن تدخـل إلى هنـاك من قبل، وأتمنى أنك لاتزال تذكر ذلك.

t.me/qurssan

- طيب.

- اذهب إذن ولا تنظر خلفك، فلن تجد هُنا إلا الأسئلة، وكلما زاد وقت وجودك سوف يتوّلد في داخلك المزيد منها، فلا توجد إجابات. ربما تجد ضالتك في الحفل. على الأقل ستعرف من أنت.

ودعتها وانطلقتُ باتجاه عربة الحفل، مذهولًا وضائعًا.

t.me/qurssan

9

طرقتُ البـاب، فيمـا تناهـى لسـمعي مزيـج الأصـوات الغريبـة: موسـيقى تختلط بضحكات صاخبة. ولم يستجب أحد فعدتُ للطرق بالحـاح. ثـم انتظرت لفتـرة بَدَتْ بالنسـبة لي طويلة وثقيلـة، وتغيرت أصـوات الضحـكات فبـدت لـي أحيانًـا كمـا لو أنهـا بـكاء، أو عويل يختلط بالموسـيقى الغريبـة التي تبينت أنها تعزف بواسـطة آلات نفخ نحاسـية، ويصحبهـا إيقاع خافت رتيـب. كررت الطرق علـى الباب. وأخيرًا سـمعتُ صريرًا ثقيلا، أعقبه صوت معالجة المقبض من الجهة الأخرى، فابتعدتُ مترقبًا.

انفتـح البـاب على ضبـابٍ كثيف غريـب، وعلا صـوت الصخب والموسيقى، ثم انبثق وجه فتاة قصيرة ذات شعر أسود يشبه شلالًا من الجمال، ولست أدري كيف رأيت فيها شبهًا بالفتاة التي قرأتُ وصفها فـي كتاب "مطعم القناديل المعتمة"، أو كما رأيتها في هلاوسـي. لاح لـي وجههـا من بيـن الضبـاب، ممتزجًـا بأصـوات ضحـكات أنثوية، وقرع كؤوس. ابتسـمت الفتاة بعينين سـوداوين كحيلتيـن، وعميقتين وشـبقتين، وانحنت أمامي انحناءة ترحيب تمثيليـة، ومازحة، تزامنت مع مد ذراعها بانسيابية باتجاه الداخل مرحبة.

t.me/qurssan

انسدل شعرها الأسود المتماوج على جانبي وجهها. حاولت تجاهل صورة "ذكرى"، كأنها انبثقت في عقلي لتحذرني من الدخول لأنني لو دخلت فلن أراها مرة أخرى، تمامًا كما حدث للعشيقين في النص.

وضعت إحدى قدمي داخل العربة، وكان الضبابُ كثيفًا، والبرودة شديدة. جاءتني أصواتُ همهمات مبهمة. وكان صوت الموسيقى ضاجًا وإن خفي مصدره عن عيوني. ولمحتُ في أقصى العربة فتاةً قمحية شعرها قصير وكثيف. خففته من أحد الجانبين، تقف قريبًا من نافذة من نوافذ القطار، وخلفها تراصت كومة من الكتب المجلّدة، وقد أمسكت في يدها كتابًا تقرأ فيه. كانت ترتدي سترة بلا كمين، بلون الكمون، ولا ترتدي تحتها شيئًا، على شورت زيتوني ضيق، اختلست نظرة واحدة إليّ؛ فجعلتني أشعر بأن سهمًا نفذ إلى قلبي. بدا وجهها أليفًا لكني لم أتذكرها.

وبينما تداعب صورتها مخيلتي انزاح الضباب عن أربع فتيات يفترشن الأرض ويسندن ظهورهن على جدار العربة، تجلس ثلاث منهن متجاورات، بينما الرابعة ممددة على بطنها في عكس اتجاههن، مولية أردافها لي، متكئة على مرفقيها.

- هذه هي الحفلة إذن؟ وأنا ...أود.

لكني لم أتمكن من استكمال عبارتي، إذ بوغت بمن ينتزع يدي للخلف، وقبل أن أفهم ما يجري وجدتني خارج عربة الحفل مرة

t.me/qurssan

أخرى، وبينما أهوي على الأرض بسبب فقداني لتوازني، سمعتُ صوت ارتطام الباب معلناً إغلاقه مرة أخرى.

تردد في ذهني أنني مؤلف "كتاب الأحلام"، فيما راودني يقين بمعرفتي بتلك الفتاة القمحية غلامية المظهر، وبالألفة الشديدة مع ملامح الفتاة التي فتحت لي باب عربة الحفل والتي أشعر أنني أعرفها جيدًا. ولكن لم يُتح لي استدعاء المزيد، فقد أدركت أن "ذكرى" هي من اختطفتني من غرفة الحفلة، وإذ هويتُ على الأرض فوجئت بها تنقضّ عليّ لتعانقني بشبق. قالت لي إنها لا يمكن أن تفرّط في بعد أن وجدتني أخيرًا! قالت إنها تعيش حياتها رهينة لدور شقيقتها في القطار، ولا يمكن لها أن تتخلى عنها.

استسلمتُ لها، متأثرًا بالحماس العاطفي الذي كانت تتحدث به، وبصوتها المرتعش. قلت لها إنني سأمنح نفسي الفرصة. لكني أشعر بغرابة الأمر لأني لا أعرفها، أو لا أذكرها. وأن مشاعري مشوّشة لأنني لا أعرف نفسي ولا أعرف أحدًا من حولي. أمسكت بكفي وقالت بحماس إنها ستتولى أمري، وستساعدني في اجتياز المحنة، وأكدت لي أنه ليس مطلوبًا مني أكثر من الوعد بألا أبتعد عنها.

أحطتُ جسدها بذراعي. وسرعان ما تماهيت مع رغبتها، منصتًا لشهقاتها المروّعة، ومتعجبًا من دموع عينيها، واستعذبت أن يكون جسدي هدفًا لسهام شفتيها.

صحبتني إلى إحدى المقصورات، خلعت الشورت والقميص، ففعلت مثلها. ثمة شعور بأنني أعرف الأمر جيدًا، ولكني أمارسه لأول

t.me/qurssan

مـرة. أخبرت ذكرى بالأمـر فقالت ضاحكة: "اعتبرنـي معلمتك. هذه هي خبرتك الجنسية الأولى التي لن تنساها".

أقبلت عليها، وتبادلنا المواقع. وبعدما انتهينا. استرخينا متجاورين لوهلة، كنا نلهث، وظلّت مسترخية بجواري وخصلات شعرها الهائش تتعلق بصدري. قالت لي:

- والآن هل تذكرتني؟

التفـت إليهـا مندهشًـا، وعدت أدقـق النظر في ملامحهـا المنمقة. الفكرة الوحيدة التي ألحت على ذهني ولم أرغب في أن أتحدث عنها هـي أنني مؤلـف "كتاب الأحلام"، وأننـي أعرف تلك الفتـاة الحنطية ذات الشـعر القصيـر، التـي تقـف فـي الحفلة خلـف كومـة مجلدات الكتب. وأن اسمي ربما يكون حنا هارون.

هززتُ رأسي بأسى.

قالت: ربما لا تتذكرني الآن. لكني أتذكرك جيدًا.

أسعدني قولها فسألتها:

- هل نعرف بعضنا البعض بالفعل؟ أين ومتى؟

- في حياة أخرى.

استعدت اسم مؤلف "كتاب الأحلام" وقلت لها:

- أنا حنّا هارون.

t.me/qurssan

- وكيف تذكرت اسمك؟

- عندما دخلت إلى عربة الحفل. رأيت امرأة أعرفها، وقبل أن أتذكرها أدركت أنني مؤلف كتاب الأحلام، وأنا أعرف أن اسم هذا الكاتب هو حنا هارون.

- وهل تعتقد أن هذا هو اسمك الصحيح؟

- ماذا؟

- وهل تعتقد أن هناك كتابا بعنوان "كتاب الأحلام" من الأساس؟

شعرت بالإحباط وبالغضب. لماذا تريد أن تشككني في كل شيء. حتى الخيط الرفيع الذي توهمت أنه سيوصلني لحقيقة من أكون، تحاول هي الآن أن تمزقه بنعومتها المفرطة.

ظلّت تنظر إليّ بشرود كأنها تتوقع أنني لن أنطق بحرف، وتذكرتُ شقيقتها فسألتها:

- هل استعادت عافيتها؟

- هي أفضل الآن.

صمتنا للحظات، فقالت:

- لا يعنيني من تكون، المهم ما كنته، في حياتنا الأخرى.

تجاهلت جنون فكرة الحياة الأخرى التي تصر عليها وسألت:

- وكيف لا تعنيني أنا حياتي هنا والآن؟

t.me/qurssan

- لماذا تهتم؟

نظرتُ لها بدهشةٍ واستنكار، ثم ضحكت.

أحكمتْ لصق كتفها بكتفي وهي تقول:

- أليس من الوارد أن تكون مجرد مجرم هارب من العدالة إلى هذا القطار؟

باغتني افتراضها، فرحت أرمقها بريبة وغضب. لم تلتفت إليّ، وظلت محافظة على ملامح وجهها المحايدة. فسألتها:

- مجرم هارب من العدالة؟ هل تعرفين عنّي شيئًا؟

صمتت قليلًا، ثم أمسكت بكفي. ووضعتها على فخذها، وأخذت تربت عليها بكفها النحيلة الناعمة قائلة:

- أنا أتساءل فقط، ولا أعرف شيئًا. هل يمكنك أن تتخيل عدد البشر الذين يتمنون أن تُمسح ذاكرتهم تمامًا لكي ينسوا ما ارتكبوه من حماقات، أو ما مورس ضدهم من دناءات البشر وخستهم؟

لاحظت تباين لون جسدينا، بين قهوة جسدي وحليب جسدها. وسألتها إذا ما كنا في حياتنا الأخرى نمتلك هذين اللونين؟

ضحكت، ثم قالت:

- نعم، لكني كنت السمراء وأنت الخمري يا حبيبي.

همَست بكلمة "حبيبي" كعادتها بالطريقة التي ينخلع لها قلبي. بدا أن القطار يمر في تلك اللحظة بطريق دائري، وهو ما أتاح لي أن

t.me/qurssan

ادرك، ربما للمرة الأولى، مدى السـرعة التي تضرب بها عجلاته دربه الأبدي.

سألتها: هل كان اسمي في حياتنا السابقة غريبًا كما هو الآن؟

ضحكتْ وقالت إنها نسيت اسمي السابق. ثم أضافت:

- ألا يعجبك اسمك؟

- أيعجبكِ أنتِ؟

ضحكتْ، فاستطردت قائلًا:

- لو قلتِ نعم لتنازلتُ لكِ عنه فورًا. ثم هل تعتقدين أن اسـمي له أهمية في قطار مجنون لا يعرفني فيه أحد؟

ابتسـمتْ ابتسـامة رقيقـة. ولم تهمس بشـيء. ثم تشـبثت بي، وقد لاحـت علـى وجهها ملامـح انزعاج طفيفـة، عندما مر القطـار بواحد من تلك المزالق، ثم سرعان ما عاد لمساره المستقيم، غير أننا أدركنا، ربما لأول مرة، أنه ينطلق إلى غايته الأزلية أسرع كثيرًا مما نتوقع. لكننا بقينا ممددين مسترخين كمن يترقب شيئًا يجهله.

t.me/qurssan

10

قفَزَتْ على ظهري بمرحٍ فأمسكتُ بفخذيها من خلفي، ثم وضعتُ يديّ أسفل رُكبتيها، وسرنا كجسدٍ واحد معوّق بثقلين. شعرتُ بألفةٍ مدهشة في احتضانها لي وهي تمسك خاصرتي بفخذيها، وتُلصق صدرها بظهري، وتلف ذراعيها حول رقبتي.

هل يعود سبب الإحساس بالألفة لأننا مارسنا الحب قبل قليل؟ أم لأنني كما تقول هي، عرفتها في زمن سابق؟

أعاقت قدمها سيرنا، إذ ارتطمت بظهر أحد الكراسي، فتوقفت، بينما أفكر كيف بات ما تقوله لي أمراً مسلَّماً به. ضحكتْ واعتذرتْ وأبعدَتْ قدمها عن الكرسي. كيف أصدق أنني أعرفها في زمن آخر! أي زمن؟ خارج القطار؟

بلغنا العربة السابعة، ومررنا على مقصورة قارئة القطار، للحظات. كانت تقرأ، بصرامة ودأب، فصلًا جديدًا من نص "مطعم القناديل المعتمة"، ولكننا تجاوزنا مقصورتها، وذهبنا إلى العربة اللاحقة، ودخلنا للمقصورة الأولى فيها. تمددت ذكرى على الأريكة اليسرى، بينما ألقيت نفسي على الأخرى المقابلة لها. قالت انتظرني قليلًا.

t.me/qurssan

تنازعتني مشاعر عديدة ومتناقضة. من هو حنّا هارون إذن؟ ومن أكون حقًا؟ هل ارتكبت جريمة بالفعل؟ وما هي جريمتي؟ ثم من هي تلك الفتاة الحنطية ذات الشعر القصير؟ ولماذا رمقتني بتلك النظرة.

انتظرت عودة "ذكرى" حتى غلبني النعاس.

حينما استيقظت استدعيت الحلم الذي حلمته؛ إذ كنت سائرًا في طريق ضيقة تتوسط زنازين مغلقة بقضبان معدنية طولية، أتحاشى النظر إلى ساكنيها. أختلس النظر إليهم فلا أرى من كل منهم إلا كفين متشابكتين خارجتين من بين قضبان الزنازين. أمشي بخطوات قصيرة ثقيلة. لا أرى من يسير خلفي، رغم شعوري بوجوده. ثم رأيت "ذكرى" في زنزانة تشبه قفصًا معدنيًا، تتدلى من منتصف القفص الحديدي عارية من حبلٍ غير مرئي، كأن زنارًا خفيًا يطوّق خصرها، يتعلق منه جسدها المتراخي، وقد انسدل شعرها وذراعاها حول وجهها. حاولت أن أرفع رأسي لأنادي عليها، فشعرتُ بقبضةٍ ثقيلة تُمسك برقبتي من الخلف، فتكبَح صوتي.

بعد استيقاظي جلستُ منهكًا على الأريكة الجلدية. توجهتُ إلى مقصورة قارئة القطار. وجدتها منهمكة في القراءة. متمددة على ظهرها، تلف ساقًا على الأخرى، وآن أن شعرت بوجودي توقفَتْ، فسألتها عن ذكرى. قالت:

- ذهبَتْ.

- إلى أين؟

t.me/qurssan

- لا أعرف. كما جاءَتْ ذهبتْ.

ظللت واقفًا في مكاني مثل صنم. صنم أسمر عار، من لحم ودم، رياضي الجسد كما وصفتني ذكرى. بلا هوية معروفة، وبلا ذاكرة. لا حول لي ولا قوة، ولا قدرة على فهم شيء.

تمالكتُ نفسي وحجّمت غضبي وسألتها بغيظ مكتوم:

- "ما الذي ينبغي عليَّ أن أفعله الآن؟ ماذا تفعلين لو كنت مكاني؟".

لم تنظر إليّ، وقالت بنبرة محايدة: "اذهب إلى الحفل. أخبرتك بذلك مسبقًا".

انصرفتُ متوترًا. خرجت من العربة إلى حيث كنا نجلس أنا وذكرى قبل قليل.

فتشتُ القطار وصولًا لمقصورة الحفل، وفي النهاية عدتُ يائسًا محبطًا. تمدّدتُ على الأريكة المقابلة. أنصت لقارئة القطار.

من أين تتلقى مصادرها في الكتب؟

لم أنتظر أن أسألها بل نهضت، ورحت أفتش عن آثار الكتب، لكني لم أجد شيئًا. وخرجت كالمجنون، وأنا أردد لنفسي: أين المكتبة؟ لا بد أن تكون هناك مكتبة تُختزن فيها النصوص التي تتوالى هذه القارئة المجنونة على قراءتها.

وهكذا بدأت رحلة جديدة بحثًا عن المكتبة. فتشت كل المقصورات المغلقة في عربات النوم. ثم أسفل مقاعد العربات الأخرى جميعًا.

t.me/qurssan

عـدتُ إليهـا، ووقفـت أمامها غاضبًـا. سـمعتْ أنفاسـي فانتبهتْ او جودي. وضعت الكتاب بجوارها، وخلعت نظارتها السوداء.

تأملتُ عينيها وانتفض قلبي لجمالها. قالت لي:

- اجلس.

فجلستُ على الأريكة المقابلة.

بـدت لـي بصيرة رغم مـا تزعمه عـن عمـى عينيها، كما لـو كانت تُحدّق بي وتراني. استعدت الاسم الذي اختلقته لها من قبل: "زرقاء". وأخيرًا قالت بنبرة هادئة:

- اسمعني جيّدًا. أنتَ بالفعل أصبحت مُعيقًا لي فأخبرني بما تريد.

- أخبريني أنت بما تعرفين.

تبدلت نظراتها واستعادت شرودها، ثم ابتسمت ابتسامة لمحت فيها لمحة من السخرية. قالت:

- هل تود أن تعرف. هل يمكنك أن تتحمل المعرفة؟

وبنوع من العناد قلت:

- نعم، يمكنني أن أتحمل ذلك.

وللمرة الأولى سمعت ضحكتها. لم تكن ضحكتها قاسية رغم تلونها بالسخرية. بل كانت مشوبة بلون من الشفقة.

"جيد جدًا. لنرى".

t.me/qurssan

11

قالـت كفيفة البصر؛ صاحبـة البصيرة، قارئة القطار، التي أسـميتها بيني وبين نفسي "زرقاء":

"إن ضعـاف العقـول لا يحتملون ثقل المعرفة. رغـم أنه لا يقارن بعبء وزن الذاكرة". صمتت ثم أكدت أنني أرفل في نعمة النسيان.

قالت إن أشباح حياتها التي سبقت وجودها هنا قبل أن تغدو "قارئة القطـار"، تطاردهـا. حدثتنـي عـن المعرفة التـي أنقذتهـا. وأوضحت مسـتدركة أن القراءة لم تُنقذها لأنها أعادت لها الحياة، فقط، بل لأنها أنقذتها من الجنون.

قالت:

- أخبرتك بأنـك محظوظ بذاكرتك الضائعـة. وأنت لا تصدقني. على أي حال سوف أخبرك بالسبب الذي لأجله أقرأ. ليس لديّ وقت لأحكـي لك عن سـوء حظي، ولا ما أصاب عينـي وأفقدني البصر، أو عمّا أصاب ساقي من ضمور، ولا عن الفشل والخيبات.

صمتتْ لوهلة، وارتعشـت شـفتاها. لمحتُ فـي عينيها العمياوين نظرة حزن عميقة.

t.me/qurssan

جاءني صوتها بقدر أكبر من الثبات بعد فترة الصمت:

- سأذكر لك، ما أحاول أن أنساه. سأحدثك عن آنَسْ: طفلي الصغير الجميل ذي السنوات الخمس. كان ينظر لي بعينين عسليتين ذليلتين. لكنه كلل لم يمنع توهجهما بوميض سعادة عابرة، لمجرد جلوسي بجواره كما أراد؛ باقية في صحبته كما تمنى طوال أيام محنته، لكي أنفذ رغبته الأخيرة. كان لديّ استعداد أن أفعل أي شيء آخر، أن أفضي عمري لأنفّذ رغباته، لمجرد أن ألمح في وجهه طيف السعادة التي لا تُقدّر بثمن. لمحتها في عينيه الصغيرتين رغم الألم، ورأيت ابتسامة الامتنان أسفل الحاجبين الحليقين، والرأس الصغير العاري بعد أن سقط كل شعره. كان يعرف أنه لم يعد أمامه أي أمل. وقد استنفد كل أسئلته عن الموت ورحلة ما بعد الحياة، وما ينتظره هناك".

صمتت قارئة القطار، ورأيت شفتيها ترتعشان، وبعد أن تمالكت نفسها قليلًا، جاءني صوتُها مرتعشًا:

- أجبتُ عن أسئلته البريئة. أخفيتُ عنه وجه الذبيحة، بابتسامة مصنوعة ومزيّفة، وبصوتٍ يدّعي القدرة على منح الأمل. وكان يصدقني. سأل وأجبته. سألني عن مصيره بعد الموت. أخفيت رعبي، وتمسكت بكل ما أمتلك من قوة لأسيطر على نفسي. لأخبره عن عالمٍ جميلٍ يليق به، عالم حليم من دون مرض، ليس به إلا البهجة التي يستحقها قلبه الصغير.

t.me/qurssan

اختلج صوتها. توقفت. صمتت قليلًا. ثم استطردت:

- حينما أدرك أنه سيذهب إلى عالم آخر لن أصحبه فيه أراد أن يتلهى عن موته المترقب. قال لي: "احكي لي حكاية يا ماما. حكاية بلا نهاية". أردت أن أجد ممرا إلى الموت لكي أكون بجواره. تمنيت أن أكون في صحبته إذا لم يكن هناك مفر من القدر. دعوت الله أن يبقيه حيًا ويأخذ عمري فداء له.

تورّم قلبي من شدّة الخوف والحزن. ومن طول الليالي التي أتساءل فيها عن السبب الذي اختير لأجله هذا الطفل المسكين، لكي ينازع مرضًا متوحشًا كهذا؟ لماذا أنس؟ لماذا ابني أنا؟

صمتت قارئة القطار، وشعرتُ بأن صمتها أمر كل ما حولنا بأن يلتزم الصمت. حاولتُ أن أقول شيئًا، لكنها وكأنما تراني أوقفتني بإشارة من يدها، ثم شنفت أنفها بيد، ومسحت عينيها بالأخرى، وتابعت قائلة:

- "رغم تصاعد رغبتي في البكاء تماسكت. بدأت أحكي له، ممسكة بكفه الصغيرة. حكيت له كل ما أحفظ في ذاكرتي من الحكايات، من "ألف ليلة وليلة"، "حكايات السندباد"، وقصص الرحلات. لم أتوقف عن الحكي. حاولت التكهن بوقع كل كلمة أحكيها له على سمعه، بدا مُنصتًا بسعادة، ويبدو أن الألم قد أطلق سراح جسده المنهك لسويعات رأيته فيها فاتحًا عينيه بقدر طاقته، حتى أنني لم أدرك أنه غادرني ورحل إلا بعد دقائق عديدة.

t.me/qurssan

لم أنتبه لسكون روحه. لم أنتبه لعينيه اللتين أصبحتا تريان عالمًا آخر بعيدًا عنّي. لم أنتبه لطعنة القدر الغادرة التي انغرست مثل إبرةٍ في جسم قلبي ولم أشعر بها إلا عند خروجها محملة بالدم. لم أنتبه لكف يده التي أصبحت مثل دمية باردة بين يدي".

صمتت قارئة القطار. وحلّ صمتٌ رهيب.

انفطر قلبي. ولكن قارئة القطار لم تلتفت لي. تمددت في مكانها، وضعت نظارتها وأمسكت بالكتاب، وسرعان ما راحت تكمل قراءتها كأن شيئًا لم يحدث. كأنها لم تعرفني أو تشعر حتى بوجودي. استمرت القراءة كما لو أنني لم أوجد.

نهضت للبحث عن "ذكرى" مرة أخرى، كأنني فقدت لتوي حبيبًا أو قريبًا، وأرغب في وجود من يعزيني. لم تكن موجودة في أي مكان. حتى شككت في وجودها من الأساس. استعدتُ حكاية "زرقاء"، الأم؛ عن طفلها الموءود غدرًا بالمرض.

تيقنت الآن أنها لن تتوقف عن القراءة بتاتا، ولن تلتفت لي مهما حدث. وبهذا الحدس توجهت لعربة الحفل. لكني قررت التأهب لهذه الزيارة، فليس بإمكاني الذهاب إلى هناك بهذه الشخصية التي لا معنى لها. لا اسم ولا وظيفة ولا شيء. حتّا هارون، أهذا اسمي بالفعل؟ أليس من الوارد أن أكون شخصًا آخر؟

لماذا أصعّب الأمور على نفسي؟ ليكن هذا اسمي. هذه هي الحلقة الأولى من سلسلة فجوات ذاتي التي شرعتُ في سدّها. ووصلتُ أخيرًا إلى "المكتبة".

t.me/qurssan

اكتشفتها بالمصادفة. مقصورة نوم من تلك المقصورات المغلقة في العربة الثامنة، أي قبل عربة الحفل بعربتين. امتلأت بكتب متراصة فوق بعضها بعضًا. لم أرغب في تلقي المعرفة، ولا في تزجية الوقت في قطار دؤوب يسير نحو الأزل، بل كنت أرغب في بناء شخصية جديدة. كان عليّ أن أعرف شيئًا عما نسيته عن العالم لكي أقترح شخصية تناسب هذا الاسم العجيب. بحثت عن سيرٍ لأشخاصٍ ممن لم أسمع عنهم من قبل، أو ربما عرفتهم وأسقطتهم ذاكرتي، وتصفحت روايات وعرفت بحكايات بشر كثر في أرجاء واسعة من العالم. وتجلّى لي كيف أن الحياة بالفعل مستودع كبير للدراما.

تعرفتُ على عالم القطار بذاكرة الحواس. أحببت الكتب لأني أحببت عبقها في المكتبة، ولأني قضيتُ وقتًا رائعًا في عوالم فسيحة بعيدًا عن حدود القطار الخانقة. ولكي أبعد تفكيري عن غياب ذكرى التي يبدو أنني بالفعل وقعت في غرامها بشكل أو آخر. وكلما انتهيت من قراءة كتاب مما قرأت مضطجعًا على الأريكة البرتقالية المواجهة للكتب كنت أشعر بالغبطة، والمتعة. كان ما صحبته معي من العالم خارج القطار كتاب، وسجائر، وأدركت هنا ولعي بالقهوة، فهل يمكن أن يكون قارئ مدخن ومحب للقهوة مجرمًا كما قالت لي ذكرى مرة؟ لا يمكن أن أكون رجلًا بلا قلب.

ولكني استعدت ما قرأته في المكتبة، خصوصًا سير شخصيات من التاريخ، ومن العالم بل وأنبياء وسألت نفسي: من قال لك إن المجرمين رجال بلا قلوب؟

t.me/qurssan

12

انفتح الباب فقفزتُ داخلًا بلا تردد، انقشع الضباب، وخفّ البرد مقارنة بالزيارة السابقة، وتغير المشهد كاملًا!

تراصت المقاعد، اثنان في كل جانب، وكل المقاعد مشغولة بالمسافرين. ورغم أنني بُهتّ من المفاجأة، لكني بسبب سعادتي بما رأيت ابتسمت وكتمت ضحكة أرادت أن تغافلني.

وأدركت خطئي، فهذه العربة هي العاشرة، أي تلك التي تسبق عربة الحفل مباشرة. لكن ما هذا؟ من أين جاء كل هؤلاء المسافرين؟

كدت أهتف صارخًا من هول المفاجأة. أردت أن أصافحهم وأحتضنهم فردًا فردًا. لكني كبحتُ حماسي خوفًا من أن يكون الأمر إما وهمًا أو ضلالة جديدة مما يلاحقني في القطار بين آن وآخر. سرتُ ببطء أتأمل الجميع: رجلًا وامرأة في منتصفي عمريهما يغطان في نوم عميق، رجلين بسترتين سوداوين رسميتين، يدس كل منهما أنفه في جريدة. شابٌ وفتاة يُميل كل منهما رأسه تجاه الآخر. وبينما تضع الفتاة يدها على ظهر الكرسي المقابل لها يلاحق الفتى يدها بكفيه فتبتعد بها كأنهما يلعبان لعبة لا يعرف أحد قواعدها سواهما. لم أجد مقعدًا خاليًا، حتى بلغت بداية العربة أو نهايتها، فوجدت إلى اليمين

t.me/qurssan

امرأة، ترتدي عباءة سوداء أنيقة وغطّت شعرها ببونيه أنيق أزرق اللون وبجوارها جهة النافذة فتى نحيل أطال شعر رأسه الإفريقي بشكل لافت، ووضع سماعة في أذنيه.

إلى اليسار وجدت فتاة تجلس وحيدة وبجوارها مقعد شاغر أشرت إليها فالتفتت إليّ، فعرفت إنها الفتاة ذات قصّة الشعر الغلامية، وقد ارتدت تي شيرت وجينز ضيّقًا. سألتها إن كان الكرسي شاغرًا فهزت رأسها نافية. جلست أخيرًا، وشعرت بحرج شديد في التحديق بها بغية التأكد من كونها بالفعل الفتاة الغلامية التي كانت تقف بجوار الكتب في عربة الحفل.

التفت إليها وسألتها عن المحطة المقبلة التي يتجه لها القطار، فتأملتني بابتسامة غامضة ثم هزت كتفيها قائلة:

- لا أعرف بصراحة.

ضحكت مرتبكًا. ثمة حسم في نبرتها وتصدير لعدائية مضمرة، أو على الأقل نبرة تشي باعتبار حديثي معها غير مرغوب فيه. أدركت أن أي سؤال آخر سيبدو اقتحامًا مني لخصوصية مسافرة غريبة في قطار، وخوفًا من أن يؤدي ذلك لإثارة ضيقها، قررت الصمت.

تناهى من خلفي صوت رجل غاضب، لم أفهم في البداية ما يقول. أصخت السمع. كانت الكلمات الغاضبة موجهة لامرأة صوتها به حشرجة غريبة. راح الرجل يكيل الاتهامات حول سوء تربيتها لابنهما. كانا يتحدثان عنه بضمير الغائب. الرجل يكيل الاتهامات بينما السيدة تؤكد باستمرار أنه متحامل على الابن، رغم أن ما يحدث

t.me/qurssan

ي عمره طبيعي. عدّدت له أسماء شباب من عمره أدمنوا المخدرات ا العلاقات النسائية أو رسبوا في دراستهم. أما الابن، وفقًا لما أكدته، ام بعرّض نفسه لشيء من هذا. والرجل الذي بدأ صوته يعلو قليلاً ا د لها في غلظة أنه مصاب بداء الضغط، ولا يريد أن يصاب بجلطة بها هي وابنها، وأنه لهذا السبب يفضل إنهاء الحديث.

ويبدو أن السيدة أرادت أن تغير مجال الحديث حتى لا ينتهي الحوار على هذا النحو فسألته كمن يستفسر عن شيء كانت تود أن سأل عنه ونسيت. سألته عن سبب امتناعه عن القدوم إليها لدفع مبلغ الإضافي الذي كانت تحتاج إليه في السوبر ماركت؟ وحلّ الصمتُ حتّى ثار فضولي لما قد يكون حدث بينهما.

استمر حوارهما الدرامي حتى بدأت المرأة في البكاء مؤكدة أنه كان من اليسير أن يدفع هذا المبلغ البسيط الزائد ببساطة بدلًا من إحراجها أمام الكاشير، وعندما أعلن الرجل أن كل الناس لديهم ظروفهم وأن الأمر ليس محرجًا، بدأت في البكاء.

لم أفهم سر تبادلهما اللوم والعتاب بهذا الصوت العالي، والتفتُ للفتاة بجواري فبدت غير معنية بالأمر، فقد تناولت من جوارها كتابًا وشرعت تقرأ، واختلست إليه نظرة فراعني عنوانه "كتاب الأوهام".

اغتنمت الفرصة فورًا وقلتُ لها: تصوري أنني كان لديّ نفس الكتاب، كنت أقرأ فيه مباشرة قبل أن أدخل إلى العربة.

t.me/qurssan

التفتت لي ثم ابتسمت نفس الابتسامة الغامضة، فقلت لها كمن يرغب في التحقق من شيء: "أليست هذه هي عربة الحفل؟". بدا أنها لاحظت إصراري، فقالت بلا اكتراث: "لا أعرف، بصراحة". قلت لها مؤكدًا: لقد رأيتك في عربة الحفل، ألا تذكرين؟ كنت تقفين بجوار كومة الكتب.

التفتت لي وهي ترسم نظرة استنكار، وابتسمت ابتسامة صفراء، ثم قالت باستخفاف: "لا أذكر أنني كنت في عربة أخرى من عربات القطار. ولا أذكر أيضا أنني رأيتك من قبل".

لعنتها سرًّا، ألا يكفيني قارئة القطار هناك، والآن هذه المتحذلقة لا تريد أن تنطق بشيء. وليس لديها سوى ابتسامة صفراء غبية.

ابتسمت لها بدوري ولم أعلق. ورغم إحساسي بالغضب، فقد غمرني شعورٍ غامض بالطمأنينة لأول مرة، نعم كان وجودي بين كل هؤلاء البشر قد لفّني بشعورٍ غريب بالأمان الذي لم أعرفه منذ وصلت هذا القطار. بل إنني ابتسمتُ ابتسامة باطنية وأنا أهدهد نفسي أطمئنها: غموض الفتاة أو تحذلقها مقدور عليه، وبإمكاني أن أسأل بدلًا منها عشرة أشخاص.

أسندت رأسي إلى النافذة وتصنّعت النوم. ويبدو أنني أتقنت التصنع حتى انطلى عليّ أنا نفسي، فغفوت. وفيما بين النوم واليقظة، تهيأ لي أن صوت الفتاة بجواري بدأ يعلو قليلا. تكهنت أنها تقرأ شيئًا شبيهًا لما كانت قارئة القطار قرأته من كتاب "مطعم القناديل المعتمة"، لكنني لم أفتح عيني، ولم أقاوم لا صوت الفتاة ولا بئر النوم التي سقطت فيها بسهولة ويسر.

t.me/qurssan

13

استيقظتُ منزعجًا، وأحسست بثقل في رأسي. فتحتُ عينيّ فلم ار شيئا. أدركتُ أنني نائم في عتمة. أعادتني طرقات عجلات القطار إلى الواقع. أخيرًا يمكنني تمييز الوقت. كان رأسي ثقيلًا وحلقي جافًا. اكتشفت أنني عارٍ، وعلى جسدي غطاء خفيف. انتظرت أن تتكيف عيناي مع العتمة لكي أخمن مكاني، ولكن الظلام ظل مطبقًا من حولي.

وضعتُ قدمي خارج المكان الذي أنام فيه فوجدت ساقي سابحتين في الفضاء! هل أنام على فراشٍ عالٍ عن أرض القطار على هذا النحو؟ قررت الهبوط بحذر، ولكن حذري لم يمنع سقوطي. شعرت بألم في كاحلي، ولم أكن أرى شيئا. ما هذه العتمة المقيتة؟

بعد لحظات سمعت صوت الفتاة نفسها، صاحبة الابتسامة الصفراء. سألتني:

- ماذا حدث؟ هل سقطت على الأرض؟

- لا أدري أين كنت نائمًا من الأساس؟ وأين أنا الآن، وأين ذهبت؟ وما هذه العتمة؟ كأن القطار قد سقط في بحر من الظلام.

t.me/qurssan

- ولكن عن أي عتمة تتحدث؟ المكان هنا ضوؤه ساطع.

تقلص بطني. فتحت عينيّ كأنما لأتحقق مما تقول، فوجدتني غارقًا في الظلام ما زلت، هل أصابني العمى أيضًا؟! فصرخت، فقد كان شعورًا مروعًا.

شعرت بيد تلكزني بقوة، وفتحت عيني فرأيت وجه فتاة سمراء مليحة القسمات، ممتلئة الوجه، جالسة بجواري وتسألني إذا كان هناك ما يزعجني.

وبينما تنظر لي بعينين واسعتين، حالمتين محاطتين برموش طويلة لافتة سألت:

- ماذا بك هل كنت تحلم؟

ابتلعتُ ريقي. وانتابتني مشاعر متناقضة من الخوف والقلق والارتباك والخجل. ولوهلة لم أميز بين أحداث الكابوس، وبين استيقاظي الآن على يد هذه المخلوقة. تنفست بعمق رغم كل شيء لأنني أدركت أنني لم أفقد بصري كما توهمت في الحلم. لم تكن هذه السيدة هي نفس الفتاة الصموت ذات الابتسامة السخيفة، والتي لاحقتني في الكابوس. فمن هي التي تجلس في الجوار الآن؟

مسحت وجهي والعرق على جبهتي، بكُمّ قميصي. لاحظت أن الكُمّين أصبحا مكرمشين تمامًا، وخشية سوء رائحتي عدت لأشمهما، ولكنني لم ألاحظ رائحة كريهة، بل تناهى لأنفي عبق عطري جميل.

t.me/qurssan

سرعان ما أدركت أنه شذى يفوح من جارتي التي أيقظتني من الكابوس. كان عقلي كسولًا لدرجة منعتني من الكلام فقالت جارتي:

- كان صراخك عاليًا، يبدو أنه كابوس، ومن الواضح أنك تتألم.

وبصوت محشرج ومرتعش قلت:

- شكرًا لك، أنقذتني بالفعل من هذا الكابوس.

انتابتني حالة من الحرج اختلطت بعدم الفهم. فلم أكن رأيت السيدة السمراء من قبل. وهززت رأسي قائلًا إن كل شيء على ما يرام. عادت لتحدق أمامها وتعبث بحقيبة يد سوداء صغيرة موضوعة على فخذيها. تأملتها بنظرة جانبية خاطفة. كانت ترتدي فستانًا أسود واسعًا، وفاح منها عطر ثقيل.

وبعد تردد سألتها إذا ما كانت بدّلت مكانها مع الفتاة التي كانت تجلس بجواري قبل أن أغفو نائمًا. فهزت رأسها نافية، وقالت لي إنها ركبت القطار من المحطة السابقة وكان المقعد خاليًا.

نهضت لألقي نظرة على العربة من مكاني فوجدتها خالية تمامًا، ولا يوجد بها سواي أنا والفتاة.

قلت لها بما يشبه الفزع:

- هل توقف القطار؟

فهزت رأسها بابتسامة مستخفة وهي تقول:

t.me/qurssan

- مـا الغريب في الأمر؟ ثم كمن انتبهت للأمر استطردت بسـؤال آخر: هل فاتتك المحطة التي كان عليك أن تنزل بها؟

استأذنت منها للعبور فأفسحت لي. خرجت إلـى الممر ومنه إلى بـاب العربـة القريـب، لـم أصدق ما تقـول. أيكـون القطار قـد توقف بالفعـل؟ وأيـن ذهب كل من كانـوا هنا؟ أكانوا جميعًـا يقصدون نفس المحطة؟ حاولت استعادة هدوئي قبل أن أعود للعربة مجددًا، محاولًا استيعاب ما يحدث.

عدت إلى مكاني، واعتذرت للسـيدة التي تفحصت وجهها لأتأكد من أنها ليست نفس المرأة التي كانت تجاورني قبل نومي. تكشف لي أن وجهها المبتسم باستمرار به فتنة خاصة، تؤكدها الشفتان الممتلئتان. ونهضـت هي من مكانها لكي تتيـح لي الدخول إلى مقعدي. لاحظت أنها حافية بقدمين ممتلئتين. قالت معتذرة إنها لا تتحمل الحذاء طويلًا خصوصًا في السـفر. سـألتها إذا ما كانت رأت أحـدًا في العربة فقالت إنها حين بلغت العربة لم تجد بها سواي.

سـألتني عن وجهتي، وشـعرت بالارتباك، كما شـعرت بثقل القيام بإعادة حكي التجربة السخيفة التي أمر بها في هذا القطار. القلق والضجر يكفياننـي وزيـادة، ولن أتحمل المزيد من الإحسـاس بهمـا إذا أعدت حكـي ما يحدث لي هنا. قلت لها وأنا أنهض مرة أخرى إنني سـأذهب للحمـام وأعود إليها فـي الحال، فضحكت لاضطرارهـا للنهوض مرة أخرى، لتُفسح لي، فشكرتها وخرجت من العربة مسرعًا.

t.me/qurssan

فكـرت أن الخطـوة الأولى التي ينبغي أن أقوم بهـا الآن زيارة كافة عربـات القطار. أعـرف أن عربة الحفل ملحقة بهـا عربات أخرى غير تلك التي أتيح لي زيارتها.

أحسسـت بمرارة حلقي من شـدة العطش. قلت لأقم بالجولة بعد أن أشرب قليلًا من الماء في الحمام الواقع خارج العربة. لكنني مدفوعًا بالخـوف مـن أن تختفي المرأة الوحيدة التي يمكننـي أن أعتبرها دليلًا على توقف القطار، قررت العودة للعربة التي كنت بها مرة أخرى.

t.me/qurssan

14

عدت من الحمّام، فرأيت جارتي السمراء غافية، تنفست الصعداء. فلم أرغب في إيقاظها، وابتعدت أمشي بهدوء في الممر بين صفي المقاعد حتى بلغت نهاية العربة. اخترت آخر مقعد وجلست. راودني شعور بأنني أختنق.

لو أن القطار قد توقف بالفعل، فهذا يعني أن كل ما أشعر به الآن ليس له معنى. لعنت سوء تقديري الذي جعلني أغفو نائمًا في توقيت غير مناسب صادف توقف القطار الذي انتظرته طوال هذه الرحلة البائسة.

ومع ذلك داخلني شعور بالارتياب من كون القطار قد توقف فعلًا. فكل ما رأيته في هذا القطار يبدو خاضعًا للأوهام.

قررت الاستمرار في المشي في طريق واحدة نحو عربة القاطرة الرئيسية التي يتم فيها توجيه هذا القطار أو تحريكه، فهناك فقط يمكنني أن أنفذ خطتي بإيقاف القطار، إما بتهديد السائق، أو استعطافه أو بأي وسيلة، فلم أعد أصدق أن قارئة القطار هي التي تتسبب في تحريك القطار في مساره الأزلي هذا. غير معقول. ينبغي أن أصل للقاطرة.

t.me/qurssan

تذكرت أن عربة الحفل من المفترض أن تكون بعد عربة واحدة، ويبدو أنني مع أملي بتوقف القطار تناسيت موضوع الحفل. ولكن الآن لم يعد هناك بد من الوصول للحفل أولًا.

خرجت منتقلًا للعربة اللاحقة، وسمعت الأصوات تتناهى لسمعي. الموسيقى، والصخب، والضحكات الرنانة. تأكدت أنها عربة الحفل. عالجت الباب فلم ينفتح، كما حدث لي أول مرة. وأعدت الطرق مرات عديدة، وانتظرت جالسًا حتى انفتح الباب أخيرًا في وقت معلوم.

لفحت وجهي البرودة كما حدث في المرة السابقة، ورأيت ما يشبه سبابًا خفيفًا لاحت من خلفه أخيرًا المرأة ذات الشعر الأسود الطويل، وابتسمت لي بترحاب كأنها صاحبة بيت وصل إليه ضيف، وأشارت لي بالدخول.

تأملت المكان في هدوء. كانت العربة تأخذ شكلًا مختلفًا فهي تبدو كما لو أنها ساحة بحجم عربة مفروشة بسجاد أخضر، تصطف على اليسار مناضد دائرية وحول كل منها كرسيان بذراعين مكسوين بمخمل أخضر، أما إلى اليمين فعند كل نافذة أريكة صغيرة يستند ظهرها إلى النافذة وتوجد منضدة يحيط بها كرسيان، وممر واسع بين الصفين، وفي نهاية العربة ثمة أرش مفتوح على مساحة أخرى كما لو أنها بار وبجواره مائدة صغيرة.

رأيت القارئات الممددات على بطونهن، من بعيد وقد افترشن مساحة يحتلها ركن من الأركان يقع بين العربة والكافيتريا تقريبًا.

t.me/qurssan

ورأيت فتاتين جالستين على الأرض بجوار منضدة وهما تضحكان بلا توقف.

رحبّت بي السيدة القصيرة ذات الشعر الأسود الطويل التي فتحت لي الباب، وقالت لي: خذ راحتك في الحفل. شكرتها، وأنا أحاول إخفاء ارتجاف جسدي من شدّة التوتر والتعب، ومسحت العرق عن جبهتي بكم قميصي الذي هالني ما بلغه من قذارة. كما شعرت بملمس ذقني الطويلة وأنا أمسح عرقي.

كانت الموسيقى الآن عالية، ومسحت المكان بحثًا عن مصدر الموسيقى فلم أجد أثرًا لعازفيها. لمحت مجموعة من الفتيات اللائي كن جالسات على إحدى الأرائك ينهضن ويتجهن للمساحة الواسعة قليلًا عند البار، ويبدأن في الرقص على إيقاع موسيقى شجية.

لم أستعد ذاكرتي كما تهيأ لي في المرة الأولى. هل خدعتني زرقاء مرة أخرى عندما أكدت لي أن عربة الحفل هي المكان الذي يمكنني استعادة ذاكرتي فيه!

تجولّتُ بنظري بحثًا عن الفتاة الغلامية ذات الشعر القصير؛ التي كانت تستند على الجدار بجوار أكوام المجلدات. تلك التي توهمت أنها هذه الفتاة، في العربة السابقة ولم أنل منها سوى ابتسامتها السخيفة الصفراء. رأيت الكتب والمجلدات مرصوصة في صفين على الأرض ومستندة على الجدار كما رأيتها أول مرة في مكانها هذا، قريبًا من الفتيات الممددات على الأرض في نهاية العربة. أما الفتاة فلم يكن

t.me/qurssan

لها أثر. رأيت خلف البار فتاة نحيفة، شعرها الأسود معقوص في ذيل حصان طويل، تتمايل على أنغام الموسيقى، وهي منهمكة في إعداد مشروبات متنوعة، تصبها في كؤوس متجاورة.

هرولت إليها، ووضعت الحقيبة على كرسي قريب، وأنا أنظر نظرات جانبية تجاه الراقصات، وطلبت منها قهوة. تأملتني للحظات، ثم أخبرتني بابتسامة مستهينة بأنها توقفت عن تقديم هذا المشروب منذ فترة طويلة. وضحكت قائلة:

- من الذي يريد أن يظل يقظًا ومتنبهًا في الحفل؟ هذا حفل للبهجة والاسترخاء، والنسيان. وعموما فالقهوة خمر ولدينا لها بدائل عديدة.

لم أراجعها، وسألتها عن أي مشروب آخر من اقتراحها. فقدمت لي، بلا تردد، مشروبًا نبيذي اللون، شربته بلا تردد، دون حذر، وشعرت بجوفي يحترق. سعلتُ عدّة مرات، ولكن إزاء إحساسي بالعطش قلت لنفسي:

"لنطفئ النيران باللهب".

وأعجبتني الجملة فضحكتُ، وانتبهت الفتاة فابتسمتْ. لكنها وضعت أمامي كوب ماء بارد، وطلبت منى أن أعالج عطشي حتى لا أتعرض لخطر. ولم أدرك مدى عطشي إلا وأنا أتجرع كأس المياه، فلاح لي حلقي جافًا كأنه تعرض لحريق.

t.me/qurssan

وبعد أن تأكدت من استعادة هدوئي قدمت لي كأسًا من مشروب غريب، ومع ارتشاف الجرعة الثانية من هذا المشروب الناري المدهش قررت أن أدخن وأتأمل المكان بشكلٍ دقيق. تذكرتُ أن سجائري نفدت منذ فترة. سألتُ السيدة هل تتوافر لديهم سجائر، فقالت لي إن التدخين ممنوع في القطار!

كنتُ أجلس إذن في البار الواقع في مقدمة العربة، من حيث دلفتُ للمكان، أما في نهايتها فقد رأيت ممرًّا ضيقًا مفتوحًا على العربة التالية. وقد أحاطت بالممر من الجهتين أريكتان تأخذ كل منهما نصف دائرة، وتجلس إليهما ثلاث فتيات في كل جهة. يرتدين أثوابًا شفّافة بألوان مختلفة، وقد استغرقن في الثرثرة.

استغرقني شعورٌ بأنني خفيف تمامًا، وأنني أبدأ حياة جديدة هنا. حياة سترتسم ملامحها مع كل لحظة جديدة تمر علينا في الحفل. سألت النادلة الضاحكة ذات الشعر الطويل الأسود بينما أتأمل أناقة ونظافة التي شيرت الأزرق الضيق، والشورت الأسود الذي ترتديه، عن أسباب عدم وجود رجال في الحفل. فابتسمت وهي تجفف كأسا زجاجية كانت تمسك بها في يدها.

- علينا أن نوجّه لك هذا السؤال.

تلفت حولي وضحكت. هل دخلت إلى الحفل الخاطئ؟ أهو حفل للإناث فقط؟ ولماذا لم تخبرني قارئة القطار بذلك؟ أم أن هذا هو السبب الذي منعتني "ذكرى" بسببه من الدخول إلى هنا؟

t.me/qurssan

نهضتُ في حركة لا إرادية، فابتسمت النادلة الرشيقة كثيرة الحركة. وقالت لي انتظر. فجلست في مكاني متحيرًا. انصرفَتْ، وأكدتْ عليّ مرة أخرى ألا أتحرك، فهززتُ رأسي متفهمًا ومؤكدًا امتثالي لما طلبتْ.

علت موسيقى في المكان. وشعرتُ ببعض البرودة التي بدأت تدغدغ حواسي.

بعد دقائق ظهرت الفتاة الحنطية عسلية العينين، قصيرة الشعر، بقَصّته المميّزة، بينما ترتدي شورت جينز ضيقًا، وقميصًا أبيض واسعًا، لم تُغلق من أزراره سوى زرّا سُفليًا وحيدًا، كاشفًا عن تكوين نهديها المغطيين بـ"تي شيرت" قطني أبيض. شعرت بالارتباك. فلم أكن متأكدا إذا ما كانت هي نفس الفتاة صاحبة الابتسامة الصفراء التي جلست بجواري في العربة الأخرى واختفت، أم أنها شخصية أخرى. هزّت رأسها بابتسامة واسعة كأنها تُلقي عليَّ التحية، فابتسمتُ لها. قالت:

- كنت أعرف أنك ستعود إلينا.

- هل تعرفينني حقًا؟

- لا تذكرني؟

- رأيتك حين كنت تجلسين بجواري في إحدى عربات القطار. ثم اختفيت وقيل لي إنك نزلت من القطار بعد أن توقف.

تأملتني قليلًا ثم قهقهت ضاحكة وقالت لي:

t.me/qurssan

- توقف القطار؟ أي قطار؟

- هذا القطار.

- هذا القطار لا يمكن له أن يتوقف.

تحيّرت وراودني الشعور بالضيق الذي بدأت أتكيف معه بمرور الوقت. شعرت بأنها تفعل مثلما تفعل زرقاء كما لو أنها تتعمد استفزازي.

قلت لها مغيرًا الموضوع:

- أجد وجهك مألوفًا، لكن ذاكرتي أصبحت تعاني مؤخرًا. يبدو أن بعض الأسماء أو الوجوه تسقط منها.

ضحكت وقالت:

- طبيعي.

- ذاكرتي تخونني تمامًا هذه الأيام.

تأملتني قليلًا ثم طلبت مني أن أنتظرها.

اتكأتُ بذراعي على نضد البار، ووضعت رأسي بين كفي. داهمني ثقل رهيب في رأسي، مصحوب بهذا الشعور المنهك بعدم فهم أي شيء.

عادت الفتاة وهي تمسك بين يديها ما يشبه دفترًا كبيرًا وقالت لي:

- تعال لنذهب من هنا الآن.

t.me/qurssan

لم أكن راغبًا في العودة للقطار مرة أخرى. فقلتُ لها بتلقائيةٍ وذعر:

- لا، لن أتحرك من هنا.

نظرت لي بابتسامة مندهشة ومشفقة معًا، وقالت:

- لا تخف، لن نغادر هذه العربة، فقط تعال لننتحي جانبًا بعيدًا عن العيون.

- أحتاج إلى حمام. أريد أن أستحم، وأغسل هذا القميص.

لاحظتُ أن مساحة هذه العربة شاسعة، تبدو أطول من العربات الأخرى كأنما تم إلصاق عربتين معًا. لعلها شاحنة نقل بضائع في الأصل.

العربة اللاحقة كشفت لي أن الحفل يتكون من أكثر من عربتين، وهذه التي وصلنا إليها كانت المقصورات فيها واسعة. إحداها بدت كقاعة طعام ضخمة، ألحق بها مطبخ. وبعدها دلفنا لعربة ضمّت عدة غرف نوم واسعة، ملحق بكل منها حمام واسع. قلت لها ما هذا؟ هل هو قطار فخم إلى هذه الدرجة؟ ابتسمت ولم تعلق، وهي تشير لي أن أخلع ثيابي، ووجهتني للحمام.

وفرت لي بالإضافة لفرصة دخول الحمام، والاغتسال، قميصًا واسعًا، قالت إنها تحتفظ بملابس نظيفة كثيرة، بعضها تستخدمه للنوم، وبينها هذا القميص القطني. كما أمدتني ببنطال قطني رياضي رمادي، وشعرت براحة هائلة بعد أن استحممت وغيرت ملابسي.

t.me/qurssan

سـرنا ببطء، وقد بدأ هدوء خدر يسـري في جسـدي. كان السرير الواسع مُغريًا للاسترخاء، ونوافذ القطار المتلاحقة مغلقة بستائر.

عُدنـا لعربـة الحفـل الأولـى. تأملتُ كومـة الكتـب المتراصة إلى اليسـار، بينمـا إلـى اليميـن وجدت فتـاة من الثـلاث راقصـات غافية وممدّدة على الأرض. أما الفتاتان الأخريان فقد اسـتمرتا في الرقص، وبدا لي رقصًا ناعمًا وحسيًا.

جلسـنا على الأرض، في نهايـة العربة، لم نفترش الأرض بالمعنى الحرفـي، لأن الأركان الخاليـة أو تلـك التـي تفصـل بيـن منضدتيـن متجاورتين تتوافر فيها بضع وسائد جلدية وثيرة، جلسنا عليها وأسندنا ظهرنا لجدار العربة.

سألتُها عمّا تحمله في يدها فقالت:

- كتاب الأحلام.

تذكرتُ على الفور أنه اسم الكتاب الذي كانت قارئة القطار تقرأ فيه في الخارج. وأبديت دهشتي فمدت الفتاة يدها بالدفتر أو المخطوط، التفت إليها مندهشا.

وصعقـت حين رأيـت صفحته الأولـى مكتوبًا عليها هـذا العنوان "كتاب الأحلام"!

t.me/qurssan

15

للمرة الأولى في هذا القطار أشعر بالمتعة، وأنسى القلق، ولو لفترة قصيرة. الألفة التي شعرت بها تجاه الفتاة التي أخبرتني بأن اسمها إلهام كان أحد الأسباب. تحدثت كثيرًا، وقرأت لي فقرات من كتاب الأحلام. ولم أفهم الرابط بين وجود نفس الكتاب الذي تقرأ منه زرقاء معها هنا. هل يتضمن الكتاب سرًا لا يعرفه إلا من يعيشون في القطار؟ ورغم الحكايات التي حكتها لي قائلة إنها تخص علاقتي بها، فإنني لم أستعد ذاكرتي لكي أتحقق من صدق ما تقوله.

شعرت بأنني عدت للحياة مرة أخرى. قضيت معهن يومًا كاملًا في حفل غداء عجيب. رأيت سيدات كثيرات، وأدخلنني المكان الفسيح الذي خصصن له عربة كاملة حولوها لمطبخ وألحقت به قاعة للأطباق والأواني وموضع لغسلها. تعرفت على وجبات لم أعرف مذاقها من قبل. ولم أفهم أبدًا من أين يأتين بكل هذا الطعام؟ وبالرغم من أن عدد الفتيات والسيدات اللائي رأيتهن في ذلك اليوم لا يقل عن خمس عشرة امرأة، فإن واحدة منهن لم تذكر شيئًا عن حياتها خارج القطار.

t.me/qurssan

رحن يستعدن ذكرياتهن في القطار، ويميزن الذكرى بنوع الوجبات التي تناولنها. يوم الدجاج المشوي بالبهار. أو يوم طاجن الخضروات ولحم الطير البلدي، أو ليلة السلطات، ثم يبدأن في تذكير من أردن بجملة أو واقعة أو حوار دار بينهن في تلك الليلة أو ذلك اليوم.

حاولت أن أجتذب كل من تحدثت معهن إلى شيء يخص حياتهن خارج القطار، لكني فشلت فشلًا ذريعًا. بدون وكأنهن ولدن في القطار ولا يعرفن شيئًا عما يدور في الخارج.

وأخيرًا لاح لي الأمل حينما أكدت لي إلهام، أن لنا ذكريات مشتركة خارج القطار. ابتهجت وشعرت بأنني أخيرًا سأنتهي من هذا الكابوس.

لكنني مع بدء الحوارات معها، شعرت تدريجيًا بأن الحفل بدوره ليس إلا حلقة أخرى من حلقات الوهم المتصلة في هذه الرحلة. وأن هذه الفتاة لم تكن إلا مجرد محطة أخرى من محطات الوهم. ابتغت أن توحي لي بأنها كانت ملهمتي التي تساعدني على الكتابة، مؤكدة لي أنني أمارس الكتابة، كما عرفتني من قبل. وأن كتاب الأحلام هو كتابي.

وبالرغم من الثرثرة الطويلة التي تبدأها كلما سألتها شيئًا عن حياتي خارج القطار، فإنها سرعان ما تراوغ بحكاية طويلة عنها. عملها كنادلة في مقهى، ظروف حياتها المعقدة. علاقتها المرتبكة بأمها بعد

t.me/qurssan

انفصالها عن أبيها. مشكلة معقدة تخص زواج أحد أشقائها، فلما رأت الدهشة على وجهي ضحكت واعتذرت بالقول: "آسفة نسيت أنك لا تذكر شيئًا من هذا الآن". ثم تحاول أن تذكرني بأن العلاقة العابرة التي جمعت بيننا كانت قد أوهمتها بأنها وجدت حلًا لمشكلاتها. ثم تقول بنبرة لوم:" ولكن منه لله بقى اللي كان السبب في أنها تنتهي"!

وبعد أن تتعب من الكلام تختفي يومًا كاملًا، ولا يظهر لها أثر، ووقتما تعود ونتهيأ لنجلس وتحكي لي ما تعرفه عني كما تقول، فإنها سرعان ما تعتذر بسبب طارئ ما، حتى شعرت بأنها مجرد شبح آخر من أشباح القطار، يتواطأ على إصابتي بالجنون.

حاولت أن ترسخ صورتها كملهمة. قالت إن إلهامها لي اتخذ صورًا عديدة بينها أن تجلس أمامي فقط عندما أجلس لأكتب، وفي مرات أخرى بالتمدد عارية بينما أقبّل جسدها فأحصل على أفكار جديدة. أو بالذهاب إلى أماكن غريبة وتمثيل أدوار محددة كنت أطالبها بأدائها لأختبر تعبيرات وجهها وسلوكها في تلك المواقف كي أستلهمها لاحقًا. لكنها لم تقدم شيئًا آخر، حتى اسمي لم تخبرني به بدعوى أنها لا تصدق نسياني حتى لاسمي!

بدا لي كل ما تقوله أشبه بالعبث. لو كنت كاتبًا أستجدي الكتابة بهذه الطريقة فلا بد أنني كاتب تافه. شعرت بأنني أدور في حلقة مفرغة، فطلبت منها أن تتوقف عن الحديث عني وأن تحدثني عن نفسها.

t.me/qurssan

قالت إنني اعتدت أن أطلب منها أن تحكي قصصًا عن صديقاتها باعتبارها قصصًا من حياتها. قالت إنها ملّت من هذا كله. وأبدت دهشتها من قدرتي على ملاحقتها إلى هنا في المكان الذي انتهت فيه علاقتها بكل ماضيها. أكدت أنها منذ وضعت قدميها في القطار قطعت علاقتها بكل حياتها السابقة. نظرت بعينها إلى حيث تضع إبهامها وتتحسس فخذها بشرود، وأردفت أن كل رُكّاب القطار لديهم نفس الرغبة. لا يذكر أحد شيئًا عن الأمس ولا يهتم بما سيحدث غدًا. هنا في القطار ليس لنا سوى هذا الحضور، وغدًا لن ترى بيننا من سيذكر شيئًا عما حدث اليوم. هل تفهمني؟

همست لي قائلة: أغلب من فضلن العيش هنا في الحفل لديهن ذاكرة، لكن في الحقيقة يتناسين كل شيء آخر، خارج القطار. ثم ضحكت وقالت إن الأمر يشبه حياة الراهبة التي تقرر أن تترهبن فتنسى كل ماضيها بإرادتها، وتعد نفسها وُلدت من جديد.

هل هذا ما قصدته زرقاء بالقول إن الحفل هو المكان الوحيد الذي توجد به ذاكرة؟ ولكن أي ذاكرة؟ فكل من فيها قد ألقوا بذاكرتهم في الخارج وبإصرار؟ هل يعنيني أن أستعيد ذاكرة حياة عشتها خارج القطار لن يكون لها أي معنى هنا؟

تمنيت أن يكون كل ما أراه مجرد حلم طويل مشوش. اختلطت المشاهد وحكايات الناس هنا عني وعنهم مع بعضها البعض. ولم

t.me/qurssan

أعد أرى في الأمر كله سوى العبث. ولم يعد أمامي إلا الوصول إلى ..انق القطار. لا بد من إيقاف القطار بأي ثمن.

انتظرت في ليلة حتى تأكد لي غفلة الجميع عني. مررت على العربة التي تحتوي غرف النوم الكبيرة، وقطعتها حتى نهايتها. وعربة ،اعة الطعام، كانت إلهام قد أخبرتني بأن الدخول والخروج منها ليس ،صيًا كما هو أمر باب دخول العربة رقم 11.

خرجت وتنفست الصعداء، فلم يكن مغلقًا مثل باب الدخول. ،الفيت نفسي مرة أخرى في عربة بدا أنها مختصة بالبضائع، فلا مقاعد ،ها من أي نوع، مجرد مساحة كبيرة فارغة، تفيض بروائح زيتية غريبة، وأرضها الخشبية مبقعة ببقع متراوحة الأشكال.

عبرتها مهرولًا، في بداية رحلتي إلى مقطورة القيادة. وقبل أن أصل إلى الجهة الأخرى منها عابرًا للمقطورة اللاحقة لها رأيت رجلًا غريب الهيئة، يرتدي جلبابًا مخططًا، ويحيط شعره الهائش الأبيض بوجهه الملتحي. أمسك بسيجارة وضعها بين شفتيه. جالسًا في زاوية نهاية العربة، وما إن رآني حتى سألني إذا ما كان بإمكانه أن يشعل السيجارة، وتلقائيًا بحثت في جيوبي، عن القدّاحة وأشعلتها له، ورغم ارتباكي فقد وجدتها فرصة لكي أستعير منه سيجارة. وأسعده طلبي فضحك كاشفًا عن صفين من الأسنان التي طلاها التدخين بلون أقرب للسواد. وبمجرد أن أضاء لهب الشعلة، واشتعل طرف السيجارة، حتى اختفى الرجل مصطحبًا هالة شعره الثائرة الفوضوية،

t.me/qurssan

كمـا لـو أن أرض القطـار قد انشـقت وبلعته، دون أثـر إلا خيط دخان واهن من سيجارته اللعينة.

تحاملـت على نفسـي مسـتعيدًا كافة الأوهـام التي مـررت بها في القطـار، داعيًـا لها على المضي، وإن بدأ شـعور غامض يسـاورني بأن هنـاك من يتتبعني أو يحاول أن يعرقـل وصولي إلى عربة قيادة القطار. مـع ذلك اسـتمتعت بتدخين السـيجارة التي جاءتني كهدية من سـماء القطار.

شـعرت بالإنهاك. حاولت أن أعـد العربات التي مـررت بها، ولم أتمكـن من عدّهـا، لعلها تفـوق عدد العربـات التي قطعتهـا من أولى عرباتـه وحتى عربـة الحفل. تذكرت أنني لم أضع شـيئًا فـي فمي منذ خرجـت من الحفل، ولكني لم أشـعر بالجوع رغم ذلـك. لعل التوتر والخوف كان لهما دور في ذلك.

t.me/qurssan

16

وأخيرًا وصلت إلى عربة تسلل لأنفي عند بابها عبق قهوة كثيف، فانتشيت.

على عكس توقعي، كانت العربات اللاحقة على عربة الحفل طيّعة الأبواب، تنفتح بسهولة، وهو ما أدهشني، ولولا المحاولة لظلّت قناعتي بأن الحفل محاط بأبواب لا تنفتح.

رأيت لافتة صغيرة أعلى الباب، ومكتوبة عليها كلمات بخط صغير، فلما توقفت أمامها اتضحت لي قليلًا: "مقهى المصابيح المعتمة". تذكرت النص الذي كانت قارئة القطار تقرأ منه، لكني أعتقد أن اسمه كان "مطعم القناديل المعتمة". انبثق فضول غريب لأول مرة لاكتشاف عالم القطار.

فتحت باب المقهى ودخلت. استقبلني الضوء الشاحب. فلم يكن للمقهى قوة إضاءة بقية العربات. ومع الإضاءة الخافتة استقبلني عبقٌ غريب، لعله مزيج من روائح دخان تبغ وقهوة وعصائر. هذا المكان هو أول مكان يشبه الحياة خارج القطار. الروائح أنعشت ذاكرتي بشكل ما، ولكن ما استعدته في هذه اللحظة مجرد مشاعر، تشبه الدخول

t.me/qurssan

إلى مقهى ضاج بالحياة. لا تفاصيل أخرى ولا مشاهد محددة. مجرد ارتباط الروائح بمشاعر غامضة.

كانت العربة مصممة على هيئة مقهى. تتناثر مناضد صغيرة كل منها محاطة بكرسيين، في الجزء الأيمن. على مرمى البصر جهة اليسار استطال نضد خشبي وقد وقفت خلفه سيدة ذات شعر رمادي قصير يحيط بوجهها كهالة، ترتدي مريلة زرقاء أخفت جانبًا من قميصها الأبيض. بدت في الأربعينيات من عمرها.

على المناضد جلس عدد محدود من رواد المقهى. ورأيت رجلين جلس أحدهما وحده، بعيدًا في نهاية العربة. كان كهلًا ذا وجه دائري ممتلئ، نال الصلع من مساحة رأسه. لكنه عوّض ذلك بلحية خفيفة، ومن خلف نظارته الطبية الواسعة كان يتأمل النافذة بشرود. ويرتدي قميصًا كُحليًّا واسعًا وبنطلونًا بنفس اللون. أما الثاني فكان يعطيني ظهره، وجلس على منضدة قريبة من باب الدخول، ويرتدي معطفًا بُنيًّا رغم دفء الجو في العربة، ويضع أمامه جريدة يتصفح ما فيها باهتمام وبجوارها غليون مطفأ، فلم أتبين ملامح وجهه.

رأيت ثلاث مناضد أخرى، جلست إليهن ثلاث سيدات دخلن مرحلة الكهولة كما أوضح تناثر الشعر الرمادي أعلى رؤوسهن، ووضعت كل منهن أمامها كتابًا، وطبق حلوى صغيرًا. كان المشهد هنا لأول مرة يبدو حقيقيًّا، مسافرون يتناولون القهوة في مقهى قطار عابر. فرادى لا يعرف أحد منهم الآخر. ذهبت للنادلة المبتسمة، وألقيت

t.me/qurssan

نظره جانبية على الرجل ذي المعطف. كان حاد الملامح. له حاجبان كثيفان مثل شعر رأسه المصفف بعناية، ويضع نظارة ذات إطار طبي أسود. لكن لحيته البيضاء أشعرتني بألفة مع وجهه.

توقفت أمام النادلة التي تبينت أن انتفاخ جفنيها والكرمشات الدقيقة حول عينيها ربما تجعلها أكبر عمرًا حتى مما قدرته لها. طلبت قهوة ووضعت يدي في جيبي فقالت لي مبتسمة: أنت لست مضطرًا لدفع أي نقود، فالقطار يوفر المشاريب مجانًا لركابه.

عدت لمكاني، حاملا القهوة. لم يعد يدهشني شيء على أي حال. تصاعد دخان طفيف من القدح ورأيت طبقة القهوة الفاتحة تطل منه فانتشيت. لاحظت أن إحدى السيدات الثلاث ترمقني من بعيد، ولكنها أدارت وجهها بعيدًا بعدما لاحظت أنني التفت إليها.

ظللت محدّقا باتجاهها، وعندما التفتت لي مرة أخرى رأيت في وجهها ملامح الفتاة الموصوفة في مطعم القناديل المعتمة. أو الفتاة التي فتحت لي باب الحفل. لاحظت أنها ابتسمت لي، ومسّ روحي شعور غامض. كأنه لمسة من عالم غريب. من عالم آخر. من زمن آخر؟

لأول مرة أتبين أن الرف العلوي أعلى المكان الذي تقف فيه النادلة مصمم على هيئة قطار. وكان هناك ركن منه يضم أطباقًا وفناجين بيضاء متراصة.

انتبهت لحركة قطة صغيرة في ركن صغير يقع بين جدار القطار وبداية النضد الطويل الذي تقف خلفه النادلة. وشعرت بالاطمئنان

t.me/qurssan

لوجـود قطـة في هـذا القطار الـذي كنت بدأت أشـعر أنه مجـرد قطار أشباح.

رفعـت قدح القهوة بينما أفكر في اسـتعارة الجريدة من الرجل ذي المعطـف. ولكني توقفـت إثر ملاحظتـي لأثرٍ ما على سـطح القهوة. كأنها جمجمة مرسومة. وضعت القدح على المنضدة، وتأملته فرأيت الجمجمة وقد غدت وجها لامرأة عجوز جميلة الملامح، تضع وشاحًا على رأسها. شعرت برابط عميق يربطني بهذه الملامح.

رفعت نظري فأحسست بأن القط الصغير في الركن المعتم القريب تحول في لمح البصر لكائن غريب، كما لو أن سـاحرًا خفيًا مر وبخفة يـد اختطـف القط ووضـع بدلًا منه هـذا الـ... لا أعـرف. كان قطًا ثم أصبـح لـه وجه بومة الآن، لكنه بقي رابضًا فـي مكانه، ولم يلفت انتباه أي أحد.

رفعت عيني إلى السيدة التي رمقتني قبل قليل فوجدت طاولتها قد امتلأت بأوراق ودفاتر، بينما أمسـكت بقلم كانت منهمكة في التدوين فـي أحد تلك الدفاتر. شـعرت تجاهها بمشـاعر غريبة، كأنها مشـاعر الفتى في "مطعم القناديل المعتمة" كما تمثلتها في أثناء القراءة. نظرت إليّ من بعيد كمن سـددت سهمًا لقلبي. أردت الذهاب إليها لأرجوها ألا تنتهي علاقتنا. من دون أي فهم لسـبب هـذه الرغبة العجيبة. لكنها مـن مكانها سـددت لي نظـرة كمن يقول إننـا لا يمكـن أن نعيش معًا. وشـعرت في قلبي بنغزة ألمتني، حتى ضاق صدري. وحين اسـتعدت قدرتي على التنفس شعرت أن قلبي امتلأ بالحسرة والألم.

t.me/qurssan

نظرت للرجل القريب مني فوجدته قد استبدل الكرسي المقابل لمنضدته، فأصبح في مواجهتي، وقد اعتمر قبعة غريبة ووضع نظارة سوداء على عينيه.

اكتشفت في لحظة أن الرجل البعيد غدًا شابًا ملتحيًا بلحية طويلة مدببة. ولم أفهم ما هو سر تغير كل شيء في هذه العربة بين اللحظة والأخرى. كلما نظرت إلى شيء يصبح شيئًا آخر عند النظرة الثانية.

أحسست بالضيق والارتياب والوجل. لم أستطع أن أرفع القهوة لفمي. رأيت وجهًا طافيًا على وجه القهوة. تأملته مليًا فلاح لي وجه المرأة العجوز. أحسست أنني أعرفها. وجهها أليف جدًا، ولم أغمض عيني حتى لا تغيب صورتها المنعكسة على القهوة، لكني شعرت بأنها تتأملني بشفقة. رأيت من مكاني لافتة موضوعة أعلى الباب الثاني في نهاية العربة مكتوبا عليها "مقهى الأوهام".

اختفت السيدتان الأخريان وبقيت صاحبة المنضدة ذات الأوراق، وانكفأت منهمكة على كتابتها وقد وضعت معطفًا غريبا فجأة على كتفيها. أحسست بأن طبقة ثلجية طفيفة قد بدأت تغطي النضد الذي تقف خلفه النادلة كاملًا، وسرعان ما تحول إحساسي بالحرارة إلى العكس. وبدأت أرتجف من شدة البرد. راودتني الرغبة في النهوض للذهاب إلى السيدة التي تحولت إلى فتاة تصارع الأوراق فشعرت بثقل في صدري، وبالاختناق.

t.me/qurssan

قررت الخروج من المقهى العجيب خصوصًا بعد أن لاحظ اختفاء الكائن البومة، أو أيًا ما كان، ورأيت في مكانه ضفدعًا تهيأ لي أنه يغمز لي بإحدى عينيه فخرجت مهرولًا.

قبل أن أصل للباب، وبجوار الطاولة التي يجلس إليها الرجل ذو النظارة السوداء، صدمت قدمي عصاه، فسقطت العصا وانكفأت بدوري. حاولت أن أتلافى الوقوع على الأرض في آخر لحظة. لم يتحرك، لكنه أمسك بذراعي دون أن يحرك رأسه في اتجاهي، وأشار إليّ بأن أجلس.

اعتذرت له عن الإزعاج، فكشف عن فمٍ واسع، غليظ الشفتين، وما إن فتح فمه حتى تبينت لي طبقة سوداء تغطي أسنانه، وقال لي بصوت أجش غريب:

- أنا وضعت عصاي لأسقطك عامدًا.

ورغم المفاجأة، فقد ابتسمت، ربما بسبب ملامحه التي استرعاني فجأة أنها تشبه ملامح العجوز الذي استوقفني لإشعال السيجارة. لاحظ ذلك فبدأ يضحك ويقهقه كأنه قال نكتة. لم أبادله الضحك، لكنه توقف عن الضحك بغتة وقال:

- أوقف القطار إذا أردت أن تخرج من هنا، إذا كان الحل الوحيد الذي تعتقد فيه هو أن تعيش حياتك هنا لتسأل الأغراب عن نفسك. هذا كل شيء.

t.me/qurssan

كانت عيناه قد اكتسبتا فجأة نظرة زائغة، أصابتني بالقلق، وشعرت معها بأنني أنصت لنصيحة رجل يبدو أنه قد خرج هاربًا من مشفى الأمراض العقلية إلى هذا القطار مباشرة. ولمحت الجلباب أسفل معطفه، فهززت له رأسي بارتباك، وشكرته بما يشبه الهمس كما لو أنني لا أريد أن أجعله يشعر بوجودي، ونهضت واقفًا، أدرت له ظهري ثم تسللت خارجًا في هدوء محاولًا أن أبدو هادئا مسيطرًا على نفسي. كنت على يقين الآن أنه الرجل الذي أشعل سيجارة في عربة من تلك العربات قبل أن يختفي مخلفًا دخان سيجارته اللعينة.

t.me/qurssan

17

هرولت خارجًا. أقسمتُ ألا أتوقف هذه المرة، حتى أصل إلى مقصدي. تشابهت العربات. ساحاتٌ متماثلة خاوية، إلا من خشب الأرضيات. لا يدري المرء لماذا كل هذه العربات لقطار لا يوجد به إلا عدد محدود من البشر؟!

وبعد عدّة عربات دلفت إلى عربة مختلفة، حتى عن مقصورات نوم ساكنات عربة الحفل. وجدتها تشبه الغرفة التي قادتني إليها إلهام في العربة الملحقة بالحفل، لكنها أكثر أناقة. مفروشة بسجاد أخضر كثيف الوبر، وتنتهي بفراش واسع كبير، وبها منضدة عالية أنيقة مطلية بلون لامع، ومكتب صغير، وركن به كرسيان فخمان وثيران بنفس لون أخشاب الغرفة. وتنتهي بحمام واسع به بانيو. ثمة عبق عطري مريح للأعصاب. هل تكون الغرفة هي المكان الذي تأتي إليه قارئة القطار للراحة والاستحمام، أو العلاج؟ أم أنها غرفة مخصصة لشخصية بارزة في القطار لم تتح لي فرصة التعرف عليها؟

تذكرت وعدي لنفسي بألا أتوقف حتى أبلغ القاطرة، فخرجت من باب الغرفة إلى الممر الضيق الموازي لجدار الغرفة، حتى بلغت نهاية العربة وولجت للاحقة عليها.

t.me/qurssan

سرت عابرًا عدة عربات أخرى، ولم أسأل نفسي كم مر عليّ من
من وأنا أتنقل بين العربات المتوالية. لكنه زمن طويل، بلا شك. حتى
أبت أمامي لأول مرة بابا مختلفا تمامًا عن كل الأبواب التي مررت
ها. كان بابًا معدنيًّا مصمتًا زيتي اللون، في الجزء السفلي منه فتحات
ضيقة صغيرة طولية لا ينعكس منها أي ضوء.

كان التعب قد تمكن مني. توقفت منهكًا، ووضعت يديّ على
كبتيّ محني الظهر وأنا ألهث، وكان القميص الأبيض الذي استعرته
من إلهام قد ابتل من العرق، ولاحظت تساقط قطرات العرق من
جبهتي. كان قلبي يخفق. لم أدر أمن شدة الإثارة أم من الإرهاق
والتعب؟!

اعتدلت أخيرًا وطرقت الباب. لم يرد عليّ أحد فأعدت الطرق،
وتكرر الأمر مرارًا، فلما لم يبلغني أي رد فتحت الباب.

انطلق صوت هادر مع انفتاح الباب. هدير كفيل بأن يفقدني
السمع من شدته. لا يدري المرء أهو صراخ لمحركات أو لتوربينات
عملاقة لا يراها أحد؟ وجدت كابينة قيادة لإضاءة خافتة، خالية من
البشر. عشرات من العدّادات الدائرية والأسطوانية من كافة الأحجام،
تجاورها إضاءات دقيقة تصدر عن لمبات صغيرة تتراوح ألوانها بين
الأحمر والأخضر، وذراع آلية ضخمة. هل هذا القطار المجنون يسير
بشكل آلي ولا يوجهه بشر؟ كيف؟

t.me/qurssan

مـن الزجاج الأمامي لم يكن ممكنا أن أرى شـيئًا، ظلام لا نهائي، لا يمكـن وصفه. فكل ما يمكن للمرء أن يشـعر به أن القطار يندفع في هذه العتمة في جموح مجنون. كأنما يسير في نفق عملاق بلا بداية أو نهايـة. لكنه نفق معتم تمامًا ينطلق فيـه القطار الأعمى، ويقطع الطريق بسرعة مجنونة.

t.me/qurssan

القسم الثاني

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

أمسكوني، وانتهى الأمر بي مقيّدًا ومساقًا بأيدي من لا أعرفهم، من دون قدرة على المقاومة. لست أدري من أين جاءوا جميعًا، كيف انشقّت أرض القطار ونثرتهم من حولي؟ الطبيب الذي فحصني أكد إصابتي بحالة انهيار عصبي، والمحقق الذي ظهر من المجهول وجّه لي اتهامًا بالشروع في جريمة قتل. وإلهام محمومة ومصابة بطعنة حادة في فخذها، أما العجوز صاحب المعطف، الذي انبثق أمامي في طريق عودتي مرة أخرى، فقد منحني تلك السكين لكي أنفذ تهديدي، ثم اختفى ولم يعد له أثر، إلا ضحكته الرنانة العجيبة. تمامًا كما اختفى بعد أن أشعل سيجارته في أولى مرات رؤيتي له.

فشلت محاولتي بتهديد مخلوقات القطار بعد عودتي لعربة الحفل، وبالرغم من الفزع والتوتر وأصوات الصراخ والبكاء، خصوصًا حين بدأت ألوّح بالسكين في الهواء مثل المجانين لأؤكد لهن اعتزامي ذبحهن واحدة بعد الأخرى إذا لم يساعدنني في إيقاف القطار، فإنهن لم يستجبن لشيء مما قصدت.

بدين حائرات، مذعورات، مغلوبات على أمرهن. أما أنا فبدوت كغبي ينتقم من أشخاص لا يعرفهم بدلًا من مجرمين لم يجد لهم أثرًا. لكن ردّة فعلهن بدت لي مستفزة بشكل يثير الجنون.

t.me/qurssan

أمسكتُ بالساقية. هاجمتها، وقيّدت حركتها. أدركت حينها لأول مرة مدى قدرتي البدنية. قربت السكين من جبينها بإحدى يدي، وبالأخرى أحطت رقبتها مقيّدًا حركتها. كنت على يقين من أن تهديدي بقتلها سيخيفهن، لأنها الوحيدة التي ترتبط بالجميع ويعرفونها فردًا فردًا.

طلبت منهن التفاوض لإرسال مندوبة إلى سائق القطار لأنني فشلت في الوصول إليه. أكدت إنني لا أطلب منه إلا تهدئة السرعه لدقائق تكفيني للقفز من القطار، وبعدها يكون بإمكان الجميع استكمال المسيرة الأبدية في هذا القطار الملعون. تبادلن النظرات التي تحولت من الذعر إلى المرح، ورحن يضحكن ويقهقهن كما لو أنني أقول نكاتًا، ولم يكن أمامي سوى استخدام السكين. ولما زاد الضحك، وشعرت في رنة الضحك استهانة بي وبتهديداتي، رفعت يدي عاليًا وهويت بها لتشق ثوب الساقية، فشهقتْ مذعورة وهي تمسك الـ"تي شيرت" الذي أصبح مشقوقًا لنصفين كاشفًا صدرها. فأدركت أنا نفسي مدى حدّة السكين التي لا أعرف من أين أحضرها العجوز اللعين. لقد غدا الرجل وهمًا لا أثر له إلا سكينًا حادة أمسكت بها في يدي ملوّحًا بالدم والجنون.

ولكن الأمر لم يزدني إلا هياجًا. اقتربت إلهام وطالبتني بأن أدع الساقية لشأنها. أكّدتْ أنها ستساعدني في كل ما أريده. شعرتُ بأنها تضللني مرة أخرى كما فعلت منذ تحدثت معي. استجبت لها وحررت

t.me/qurssan

الساقية، لكني هجمت عليها مطالبًا إياها بأن تبتعد عن طريقي، وأن تتوقف عن خداعي، فحاولت احتضاني لتهدئ من هياجي. لكن ذلك أثار جنوني حرفيًا. أفلتُّ نفسي منها وسمعت صرخة، ثم انبثقت الدماء فجأة، وعلا الصراخ من الجميع.

أظلمت الدنيا في وجهي، وانتشرت البرودة في بدني وشق صدري ألم حاد. هذا كل ما أذكره. حين استعدت وعيي رأيت وجوهًا لا أعرفها. ثمة رجل بشارب فضي ونظارة طبية يطالبني بالهدوء ويطمئنني بأن استعادتي لوعيي مؤشر جيد، ويضع في يدي شريطاً من أدوية مهدئة. ومن بعده وجه المحقق بشاربه النحيف الذي أكد أن حالتي النفسية، وفقًا لتقرير رفعه إليه السيد الطبيب، هي التي جعلته يغير في تقرير التحقيق لكيلا تثبت عليَّ تهمة القتل الخطأ.

قلت بصوتٍ واهن إنني لم أقتل أحدًا. أفسحوا المجال لامرأتين ورجل لم أر أحدًا منهم من قبل. طالبوا سكان عربة الحفل الذين تكاثروا كما لو أنهم خرجوا من جحور خفية، بالهدوء والتعقل. أوضحوا أن الحالة التي يواجهونها سابقة من نوعها، وأن الحل الوحيد للخروج من هذه الورطة يقتضي إعادة هذا الشخص (وأشاروا باتجاهي) من حيث جاء. ولأول مرة أشعر بالسعادة، فها هم أخيرًا سيخرجونني من القطار. قال المحقق: لم يكن من المفترض أن يُسمح بدخوله للحفل من الأساس. واستغرق الأمر منهم نقاشًا طويلًا، وأدركت أنني لم أدرك حقيقة نواياهم، إذ أجمعوا في النهاية على أن الوحيدة القادرة

t.me/qurssan

على معالجة هذه الحالة هي قارئة القطار، خصوصًا بعدما علموا أنني كنت وصلت إليها بالفعل، وأنها صاحبة الاقتراح بمجيئي للحفل.

تتابعت الأمور كلها في عربة القطار، بينما أتنقل مدفوعًا أو مجذوبًا بواسطة حارس ضخم يرتدي زيًّا عسكريا كاكيًا، وقد أصاب ساقي اليسرى ألمٌ شديد رحت أعرج بسببه بشكل خارج سيطرتي.

حين شعرت زرقاء بالضوضاء، وقبل أن تفهم منهم الأمر طلبت من أقرب الواقفين إحضار غطاء من السرير المقابل لكي تستر جسدها العاري، ففعلت إحدى الفتيات اللائي جئن مع هذا الجمع. أنصتت لهم في هدوء وطالبتهم بالإيجاز لأنها لا تملك وقتًا طويلًا لكل هذا الإزعاج. ومن جهتهم ألزموها بتحمل مسؤولية عدم عودتي للحفل. وكانوا يصوبون نظرات حادة ومهددة وهم يؤكدون أنهم لن يُدخلوني مرة أخرى إلى الحفل مهما حدث.

واجهت زرقاء الأمر بثبات. لم تغير من انفعالاتها، وانتظرت حتى رحلوا جميعًا، وطلبت مني في هدوء أن أتمدد بجوارها على الأريكة المقابلة. وكالعادة امتثلتُ لها. لم أشرح لها شيئًا ولم تطلب منّي ذلك. قالت لي إنني سأحصل على ما أريد. "تريد ذاكرتك؟". حسنًا. اهدأ الآن وأنصت جيّدًا:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

عندما استيقظت في قبرك لم تكن ميّتًا. إذ دخلته حيًّا، وحينما فتحت عينيك، بعد عدة أيام قضيتها في القبر، لم تُبصر شيئًا في تلك العتمة

t.me/qurssan

المقبضة. تناهت لأنفك روائح التُراب والعطن، والموت. ورغم ذلك لم يساورك أي شعور بالخوف. أدركت بعد نحو ساعة قضيتها في مكانك بلا حركة أن جدّتك قد حققت مقصدها وغايتها، إذ شُفيت من مرضك العضال. عُدت حيًّا، ولم يمت فيك سوى الخوف.

وحين استوعبت ما جرى، سكنك حزنٌ عميق، لأن الجدّة ألقت بك في المقبرة وتركتك وحيدًا. قلت ليكن: عددتموني بين الأموات، فلكم ما تريدون، سأخرج من القرية التي ظلمني أهلها، على الأقل، فخروجي منها لن أضطر إلى أن أعيش مهددًا بالقتل ثمنًا لثأر أخي أو أحد أعمامي.

وجدت جلبابك الرمادي في الجوار، موضوعًا على مسطبة حجرية خارج القبر مباشرة، وقد طوي بعناية، فارتديته. رأيت شبحًا فحدقت فيه. لم يكن يعنيك من يكون بعدما أمات القبر خوفك للأبد. اقترب منك، فبدا كلبًا أو ذئبًا صغيرًا، أو مخلوقا هجينًا بين الكلب والذئب. تأملته فأحسست على نحو غامض بأنه مثلك طريد من أهله. راح يقفز حولك فاطمأن قلبك. قلت له: كن صديقي، سنبدأ رحلةً طويلة. فهز ذيله حبورًا، وراح يقفز في مكانِه بمرح.

ولسبب غامض عندما بدأت أولى خطواتك رحت تعرج في مشيتك، كما لو أن ساقيك قد أصيبتا بداء شلل الأطفال. لم يكن هناك سبب لذلك، ولم تكن ساقاك معطوبتين، لكنك عرجت، وبدا الذئب راغبًا في التشبه بك، إذ أخذ يعرج بجوارك، وهكذا أدرتما ظهريكما

t.me/qurssan

للقرية الظالم أهلها، وفي ظلام الليل، الذي بدّد من عتمته ضوء القمر، بدوتما شبحين عجيبين يسيران في قلب الليل، بخطوات رتيبة عرجاء، فغدوتما كقصيدة مقفاة بالعرج.

فكرت أن تقصد أقرب قرية تجاور النهر، قلت إنك ستترك الجنوب كله وترتحل إلى المدينة الكبيرة في الشمال. وعلى سبيل تزجية الوقت حدثت الذئب قلت: أعلم أن جدّتي هي التي أدخلتني القبر. وأعرف أنها ما قصدت إلا علاجي وشفائي من دائي العضال. لكن غفوها عنّي هو ما آذاني، فكأنها استسلمت لموتي. ولهذا فلن أعاود رؤية "ستّي" ولا أحد من العائلة، فهذا فراق. وإذ صرحت بقولك ذاك للذئب الصديق، أوليت ظهرك لكل ذكرى وشخص عرفته في القرية، ومن جهته أخرج الذئب من صدره همهمات غامضة أدركت منها أنه يتفهم كل كلمة قلتها له، وأنه سيكون لك نعم الصحبة والرفيق.

وإذ بلغتما النهر عند الفجر، وجدتما مركبًا كبيرًا راسيًّا على الشاطئ، ستعرف لاحقاً أنه يسمى "دهبية"، تضم مقصورة خلفية مكونة من غرفتين صغيرتين. وجدت صبيًّا ملتحفًا ببساط، غطّى وجهه بعمامة، ويغط في النوم فأيقظته. سألك عما تبتغي فقلت إنّك تود الإبحار معهم إلى الشمال. أخبرك بأن الدهبية مؤجرّة لأجنبي سيصحبه البحّارة إلى الجنوب. وإزاء تعجلك ورغبتك في مغادرة القرية قلت له إنك تود الإبحار معهم إلى الجنوب. ولم يجد الصبي ما يرد به عليك سوى الانتظار حتى يأتي رئيس المركب.

t.me/qurssan

انتبهت لرفيقك وقلت له: يا ذيب يبدو أن طريقنا سينتهي هنا، فلا يمكن لي أن أصحبك على ظهر القارب. أشكر صحبتك ورعايتك لاهتن بنفسك.

أحنى الذيب رأسه، فلم تدرك أذاك امتثال أم عقوق؟ وتأملت وجهه، فبدا لك أنه أقرب في الشكل لقط عجوز مبتسم، لا يعدم ملامح الذئاب، خصوصًا أذنيه الطويلتين. سمعت أصواتًا تقترب مكما فطلبت منه أن يبتعد بإشارة امتثل لها بلا مراجعة.

رأيت رجلًا أحمر البشرة، ضخم البنية وطويل القامة، يرتدي قميصًا نوبيًّا أبيض، ويعتمر طربوشًا أحمر، في صحبة عدد من الرجال المعممين، ومن بينهم اثنان يرتديان ملابس مدنية فلم تعرف أمن أهل المدينة أم أنهم خواجات؟! كانوا يتحدثون بلغة هجين لا تعرف منها النوبي من العربي ولا التركي من الفرنسي، وبإشارات كان الأجنبي يرد عليها بابتسامات أو يردها بمثلها.

حين اقتربوا قال لك الصبي إن "الريّس" هو الرجل صاحب الشارب الغليظ الأطول بين المعممين، فذهبت إليه وقلت له إنك من سكان قرية بعيدة، وإن أهلك على سفر بعيد، وطلبت منه أن تصبح واحدًا من بحارته. فإن لم يكن في حاجة إليك فإنك ستتطوع بالعمل على قاربه كأجرة للسفر.

وبالرغم من مزاج الريّس المتقلب فإن إقبالك عليه بلا تهيب جعله يتأملك لوهلة ثم قال: "سنذهب من هنا للأقصر وبعدها لأسوان، فأين

t.me/qurssan

وجهتـك؟"، فقلت له أسـوان. فقال: "جهّز نفسـك فسـوف نبحر بعد قليل".

ابتعدت عن الجماعة وذهبت إلى الذيب وأعدت عليه ما قلته، فهزّ رأسـه تفهمًـا من دون أن يخفـي حزنًا أطل من عينيه. قلـت له "إن اللُقا نصيـب". ظلّ يحدق في عينيـك هذه المرّة، ابتعـدت عنه، ثم انتحيت بعيدًا حتى بلغت بقعة من الشـاطئ مالت عليها شـجرة وارفة الأوراق، ظللت المياه أسفلها فجعلتها آمنة من عيون المتلصصين.

خلعـت جلبابك فعـدت عاريًا كمـا ولدتك أمـك. انتبهتَ للجرح أسـفل خصـرك، ووضعـت يدك تتحسـس الندبـة الطويلة التي شـقت خصـرك الأيمن مـن منتصفـه والتفّت من تحت السُـرّة مـرورًا بجنبك الأيمـن وحتى منتصف الظهـر. فبدت مثل خنـدقٍ محفور في جانبك الأيمن، كما لو أنها موضع قطع سيفٍ باتر.

اسـتدعت ذاكرتـك شـهور المـرض الطويلة، مبـادرات علاجك علـى يد حلاقي الصحة، ثم شـيوخ القرى ممن عُرفوا بامتلاك وسـائل الطب الشـعبي. إذ إن كل سبل العلاج البدائية التي اقترحتها جدتك لم تمنـع تفاقم الحالة المرضيـة الغريبة. راحت أجزاء من جسـدك تتخثر وتتلـف، وهاجمت البقعـة التي تقع حول خصرك، كان جسـدك يأكل نفسه بنفسه.

وقـد تمكـن أحد حلاقـي الصحة الـذي تخلـى عن الشـعوذة، من تشخيص حالتك، ولكن أحدًا لم يصدقه إلا بعد أن أمّن على تشخيصه

t.me/qurssan

ممرض من أهل قرية قريبة من أسيوط، عمل مساعدًا لطبيب بريطاني لسنوات في العلاج والجراحة. واستمد شهرته بعدما أوفده الطبيب الأجنبي من الأقصر ليعالج بعض المرضى في القرى المجاورة. كان طبيبًا بريطانيًا جاء لزيارة الأقصر القريبة، فرأى فيها سحرًا بشبه الأساطير؛ فقرر أن يعيش بقية حياته هناك ويعالج أهل القرى المجاورة.

وقد أكد الممرض الهمام، بعد أن انتهى من فحصك، وارتدى الجاكيت العتيق على جلبابه الأسود الأنيق، أن ما تعاني منه مرضٌ نادر يحتاج لإزالة الأجزاء المتخثرة. وأن بترها سيوقف جنون الجسد الذي يريد أن يأكل نفسه. وتمكن من إقناع الطبيب البريطاني بأن يستقبلك في منزله بالأقصر، وبمبضعه أجرى فتحًا ما بين الخصر وأعلى المثانة، وأزال وبتر الأجزاء المتخثرة من جسدك، رغم أن ذلك تسبب في بقائك طريح الفراش لأكثر من شهرين. لكنك تعافيت في النهاية. وغابت أعراض المرض وبقيت الندبة كآثار جرح عميق. وعاودتك الحمى، بعد شهور، فغبت عن العالم تهذي. قالت الجدّة قلبي يحدثني بأن الولد سيموت. رفضت أن يذهبوا بك إلى الطبيب الإنجليزي مرة أخرى. وبصوتها الذي حين يعلو لا يقدر أعتى رجال العائلة أن يفعل شيئًا إلا الامتثال طلبت أن يُعد لك كفن، وأن تضعك بيدها في مقبرة العائلة، وأن تنتظر بجوارك فإما أن تخرج لها حيًّا، أو أن يقضي الله أمرًا، بعدما جهزت الرقيات والتمائم والتعاويذ، وآيات الذكر.

t.me/qurssan

تذكرت كل ذلك في ومضة، ثم ألقيت بنفسك في مياه النهر الباردة لم تكن تغسل عن جسدك ما علق به من آثار الحمى والمرض وغبار القبر فقط، بل وكل ذكرياتك مع المرض ومع الجدة التي أحببتها ربما أكثر من أمك وأبيك، ومن دائرة الثأر والانتقام المعلقة في رقبتك، التي تجعل منك قاتلًا أو قتيلًا محتملًا في دائرة لا خلاص منها.

وعندما شرع القارب في التحرك كان الذيب يقف رافعًا رأسه يرقبك من بعيد، وقد انتصبت أذناه لأقصى حد، من دون أن يتحرك، وكأنما يودعك رغم قصر العلاقة التي جمعت بينكما. ولكنه لم يبتعد عنك؛ فقد لمحته على الضفة الأخرى، يسير أو يهرول، من دون أن يتناسى عرج قدمه المصطنع وهو يراقبك في المركب الطافي على صفحة النهر. وقد شغلك أمر الذيب واهتمامه بك على هذا النحو، فيما يراودك شعور مثل مسمار في القلب. وخز الخذلان من أهلك الذين نسوك في المقبرة حيًّا. وتمنيت أن تجد مكانًا للذيب في القارب حتى تصحبه معك في رحلتك.

ولكنه لم يغب عن عينيك: فكلما استيقظت من غفوة أو طالعت الشاطئ إلا ولمحته، حتى كدت أن تقفز من القارب منهيًا رحلتك لكي تبقى بجانبه.

ثم انشغلت عنه بتعليمات الريّس، وبالمهام التي ألقيت على عاتقك، وبالخواجة الذي كان يتأمل كل ما حوله كما لو أنه يشاهد أسطورة، مما جعلك تعيد تأمل كل شيء بعينيه، وإن كنت مثله ترى كل شيء لأول مرة".

t.me/qurssan

2

متى توقفت قارئة القطار عن الحكي؟ أو بالأحرى متى غفوت أنا غاطًا في نوم عميق؟ اختلطت برأسي أحلام عجيبة من حكاية قارئة القطار التي تزعم أنها حكايتي، ومواقف عجائبية وكابوسية من بطولة شخصيات القطار.

استيقظت، فوجدتها في الجوار، ممددة كعهدي بها، تلهج بقراءة كتاب ما، بصوتٍ هامس، كأنها تحرص على عدم إزعاجي. لم أدرك شيئًا مما تقرأه هذه المرة. ورغم شكوكي فيما حكته بوصفه قصة حياتي التي ضاعت من ذاكرتي، إلا أنني لم أتعامل معها باعتبارها قصتي. كنت أشاهد الفتى الخارج من المقبرة مثلي في ذلك مثل أي شخص آخر يمكن له أن يسمع هذه الحكاية. نظرة غريب على حكاية لا تخصه. ومع ذلك فثمة غواية تجعلني راغبًا في الإنصات. لكنني تحسست خصري مرتين وهي تحكي عن مرضي العجيب ذاك، ولم يكن ثمة شيء هناك.

أعاني من الإرهاق والتعب، ربما من آثار الإنهاك العصبي الذي كاد أن يدمرني في عربة الحفل اللعينة. حفل؟ بل قل عربة الكوارث أو حفل الدراما!

t.me/qurssan

توقفت عن التفكير، لكي أنصت لزرقاء، بالأحرى لهمساتها غير المسموعة، وحاولت أن أتكهن بما تقرأ حتى غلبني النعاس مرة أخرى، وغبت في نوم عميق هذه المرة.

استيقظت واستعدت وعيي فتناهى صوت زرقاء يقرأ في رتابة، ثم توقفت عن القراءة للحظات. لم أتحرك أو ألتفت صوبها. همست لي بأن عليّ تناول الطعام. قالت إن نساء من الحفل أعددن لي طعامًا وتركنه في الجوار. لم أسألها عمن أحضره لعلمي أني لن أتلقى سوى إجابة غامضة ومستفزة، فنهضتُ وأنا أشعر بثقل في رأسي وبآلام في أرجاء متفرقة من جسدي. وخرجت من المقصورة لأجد على الأرض بجوار الباب صينية كبيرة عليها أطباق بها أطعمة عديدة.

وجدت علبة سجائر وقهوة، وشعرت بالامتنان، أخذت الصينية بما عليها واتجهت للعربة المجاورة وجلست في أول مقعد من مقاعدها. تناولت خبزًا وقطعة من الحلوى، وفكرت في أن إلهام هي التي جهّزت ذلك كله. تذكرت أنني في مقابل ذلك كله أصبتها بجرح في فخذها. خطر هذا الخاطر في ذهني بينما أصب القهوة.

فعندما تدخلت من أجل تهدئتي واحتضنتني بغية إبعادي من أمام الساقية التي كنت أمسك بها مهددًا بذبحها، كنت قد بدأت أشم رائحة غامضة، كما لو أنها رائحة دم. أظنني فقدت صوابي عندما تبينت أن مخططي لا يذهب إلى شيء، ولا أحد يهتم بإيقاف القطار غيري، ويجدون أن إيقافه ليس فكرة عبثية لا معنى لها أو جدوى فقط، بل

t.me/qurssan

وشبه مستحيلة. وهذا ما أصابني بالجنون. أما الوحيدة التي حاولت أن تقترب مني وتهدئني فكانت إلهام. ورغم شعوري بالامتنان، لكني كنت آمل أن تساعدني في تحقيق أمنيتي لا أن تهدئني.

ولم يوقظني من هياجي العصبي وجنوني إلا صوت صرختها المروّعة إثر شق السكين لفخذها في أثناء محاولتي التخلص منها لكيلا تمنعني عن تنفيذ وعيدي. وارتمت على الأرض، وقد انبثقت الدماء من فخذها في لحظات.

نهضتُ وأنا أشعر بالرعب من استعادة المشهد. ماذا حدث لها؟ هل تمكنوا من إنقاذها؟ رفعت كوب المياه وشربت ما به، تذكرت قول المحقق إنني نجوت من تهمة القتل العمد، وخُففت إلى القتل الخطأ بسبب حالتي النفسية. القطار الذي بدا لي دومًا خاليًا من القواعد والقوانين، فجأة أصبح مدجّجًا بالتحقيقات والمرافعات والتهم الجنائية، وبرجال أقوياء أمسكوني وزجّوا بي بين يدي زرقاء!

توقفت أمام الباب الفاصل بين العربتين ورأيت صورتي منعكسة على زجاجه، فسددتُ لكمة للزجاج بكل قوتي. وسمعت طرقة مدوية، دوى معها وجيب قلبي الذي شعرت بأنه سينفجر من فرط الألم، فصرخت. لم أتخيل مدى قوة هذا الزجاج الفولاذي، وسمعت صوت قارئة القطار عاليًا، ومروّعًا أيضًا، تنادي:

- تعاااااال. قلت لك أن تتناول طعامك وتعود.

t.me/qurssan

من أين تمتلك هذه السيدة سطوتها وقدرتها الطاغية على جعلي أمتثل لها؟! انتظرتُ لوهلة حتى خفّ نبض الألم في يدي قليلًا، والذي شعرت بأنه يصل إلى قلبي. ثم توجهت إلى غرفتها في بطء.

دخلتُ الغرفة فأشارت إلى الأريكة المقابلة لها، كأنها تراني، جلست ثم تمدّدتُ عليها متأهبًا للإنصات. قالت كمن يحدث نفسه: "أين انتهينا؟ أين؟" وصمتت للحظات وأردفت: "آآآه، تذكرت".

تنفَسَت بعمق ثم قالت:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

جاءت العاصفة. وهجمت الخماسين بكل غبار الصحراء، فطلب الريّس من الخواجة وصحبه الدخول إلى الغرفة، ثم طلب منك ومن البحارة إيقاف الدهبية وإنزال الشراع. وبعدما انتهيتم، بين عويل الريح، وهجوم الرمال على الأجساد والوجوه، طلب منك الدخول فورا إلى إحدى الغرفتين. وجدت نفسك في مواجهة الأجنبي الذي بدت على ملامحه ابتسامة مشوبة بالخوف، جالسًا على أريكة وقد خلع الطربوش فبدا رأسه حليقًا، بينما تدلت من قمة الرأس خصلة شعر طويلة.

التفت إليك وعلى وجهه ملامح الذعر. سألك عدّة أسئلة عن اسمك وعملك وقريتك، لم تقل له من صحيح الأخبار سوى أنك تساعد أباك في زراعة حقول النخيل والقصب، ثم قلت له ممثلًا كلماتك حتى يمكنه أن يفهمها؛ إن الرياح ستعوي قليلًا ثم تصمت عندما ينال منها التعب. كنت تكرر ما اعتدت أن تسمعه من جدّتك.

t.me/qurssan

الرجل الأجنبي الذي كان يعرف بضع كلمات عربية ضحك صاخبًا، وقال إنك داهية رغم أنك تبدو صبيًّا صغيرًا. ولكنك لم ترد عليه؛ مشغولًا بمصير صديقك الذئب الذي تركته وحيدًا في مهب رياح الخماسين.

وجاءك صوت ريّس الدهبية، الذي راح يصرخ على رجاله ليستخدموا المجاديف للعودة إلى الشاطئ خوفًا من انقلاب المركب. وحينما أدركت أن السبب في عدم الاستعانة بك أنك لاتزال صغيرًا حتى أنك لا تتلفع بعمامة تخبئ بها وجهك في وقت كهذا، فقد شعرت بالخزي.

توقفت الرياح عن العويل، وتنهد الجميع في ارتياح، وخرجت من فورك لتضع نفسك تحت إمرة الريّس الذي طلب منك مساعدة البحارة في تنظيف المركب مما تراكم فيه من تراب. وقرر أن يرسو القارب على الشاطئ حتى يستقر أمر العاصفة.

بلغتم قنا وقررت أن تزور مقام سيدي عبد الرحيم القناوي، الذي سمعت عن كراماته من جدّتك. والتي كانت تقول إنه زارها في منامها أكثر من مرّة. منحك الريس 10 بارات، ورغم أنك كنت تأمل أن تدّخر ثلاثة أمثالها حتى يتوفر لك أول قرش من عملك، فقد أسرعت للسوق لشراء طاقيّة وعمامة وسروال. واكتشفت أن ما معك لا يكفي إلا لسروال وطاقيّة، فاكتفيت بالسروال. بلغت الضريح الموضوع داخل بناء صغير له قبة، ألقيت السلام وسألت روح العارف بالله ألا يُغضب عليك قلب جدتك، وأن يجعلها راضية عنك.

t.me/qurssan

أراد الأجنبي أن يزور معبد دَنْدَره، واقترح عليك أن تصحبه مع المترجم وصديق له ظهر في قِنا كان قد سبق رفيقه وانتظره هناك، قبل أن يستكملا الرحلة معًا إلى الأقصر. نظرت إلى ريّس الدهبية فهزّ رأسه مبديًا موافقته. سألته عن اسمه فقال لك جوستاف. فأعدت نطقه عدّة مرات.

في معبد دَندَره رأيت رسومًا لم ترها عيناك من قبل، وألوانًا بديعة، وبناءً فريدًا أثار في داخلك مشاعر شتّى، ضاعفها الخواجة الذي كان يصرخ من فرط الدهشة، قال إنه قرأ كل شيء عن الفراعنة، ولكن رؤية آثارهم رأى العين أمر لا يمكن وصفه.

جلس على الأرض يطالع جدارية ضخمة على جدارٍ أزرق. ترقرقت عيناه بالدموع لأنه لا يفهم كيف احتفظ اللون ببهاء كل ما فيه على مدى خمسة آلاف عام، ولا كيف بلغ الفنانون الذين نحتوا الجدارية هذا المبلغ من المهارة. شعرت بالغبطة، رغم ما دار في ذهنك عما كان شيخ الكُتّاب يقوله لك ولأصحابك عن فرعون وظلمه وكفره، وعن الأصنام، والمساخيط. تأملت الجمال من حولك، وقد أثّر في نفسك بكاء الخواجة، وقلت إن الله جميلٌ يحبُّ الجَمَال؛ كما كانت تعلمك جدتك.

عندما خرجت من المعبد رحت تتأمل الصحراء من حولك وتتساءل كيف أمكن لهم أن يصنعوا هذا الجمال في الصحراء؟

امتطيت الحمار خلف ركبٍ مكون من ثلاثة خيول يمتطيها الأجنبي وصاحبه والمترجم، وبغل حملت عليه أغراضهم، وبينها

t.me/qurssan

ذلك الصندوق الخشبي العجيب الذي يقوم مستخدمه بإدخال رأسه داخله، ويقولون إنه يصوّر الأشياء لكي يراها الناس للأبد على ورق مصقول. ابتسمت لأول مرة منذ أيام، وربما منذ سنوات. شكرت جدّتك على أنها أودعتك القبر، فلولاها، لكنت الآن مدفونًا في غرفة من غرف الدار الكبيرة، دار أبيك وأهلك، التي يحتشد فيها الرجال للزراعة والاستعدادات للموت بالثأر!

ووقتما بلغتم شاطئ الأقصر، وترجلتم من المركب أخبركم الريّس بأنكم سوف تبقون ليومين وفقًا لرغبة الخواجة. ومنحكم الحرية في أن تذهبوا أينما شئتم على أن تعودوا للقارب في الوقت المحدد للإبحار. أعطاك عشرة بارات أخرى، وطلب منك أن تجد لنفسك نلفيحة وعمامة.

في طريق الكباش مشيت متلفّحًا بعمامتك أخيرًا، تتأمل الحيوانات المسخوطة بانبهار، بينما تستدعي حكايات ستّك عن المساخيط الذين عصوا أمر الله فأصبحوا قردَة أو تحجّروا مثل هذه الكباش. وبين الأعمدة الحجرية العملاقة رحت تتساءل بانبهار عن سر قوة البنائين الذين نقلوا الحجارة من مكامنها ليصلوا بها إلى هنا ويشيّدوا هذا البناء؟ ورأيتَ مجموعة من النساء يرتدين أثوابًا سوداء، وقد حملت كل منهن طفلًا رضيعًا. توجهن إلى البحيرة المقدسة. وضعت كل منهن طفلها بجوارها، ثم خلعت عنه مزقة القماش التي تشبه جلبابًا صغيرًا وأنزلته في مياه البحيرة، عدّة مرات.

t.me/qurssan

رأيت الخواجة محاصرًا بمجموعة من الصبية الذين راحوا يلاحقونه بالنداء وطلب البقشيش. تركض خلفهم وأنت تسب أمهاتهم، فيبتعدوا قليلًا ثم يعاودون الكرّة بلا يأس. مهمة جديدة أضيفت لقائمة المهام الأساسية: مساعدة البحارة في رفع الشراع، وتنظيف القارب الكبير، والنزول إلى المياه لرفع القارب، مع الصبية والبحارة، إذا انزلق إلى منطقة صخرية.

لكن شيئًا أصاب قلبك منذ دخلت إلى المعبد العتيق. لم تكن قد رأيت من قبل كل هذا الفن، ولا هذه الحجارة، ولا الأسقف العالية، انبثق في جوفك شيء لم تعرف ما هو"!

t.me/qurssan

3

رغـم إنصاتي باهتمـام لكل كلمة تنطـق بها زرقاء، وقـد تجلّى لي سـحر صوتها وطريقة سـردها، فقد سرى في رأسـي فجأة خدرٌ قادني الى النوم من دون أدنى مقاومة مني.

لكن اسـتيقاظي هذه المرة تسـبب فيه انفجار الألم في قبضة يدي، ورأيت أصابع يدي وقد تورّمت، وأصيبت نتوءات العظام فيها بالتهابٍ تشفه تغير لونها للأزرق. لكني كتمت ألمي؛ إذ لم أتخيل قدرتي على الشكوى لقارئة القطار. ونهضت لكي أبتعد عنها.

تفاقـم الإحسـاس بالألـم، إذ كانت كل حركة لأصابـع يدي تزيده اضعافًـا. لم أجد في نفسـي رغبة في تناول شـيء، ويبـدو أن زرقاء قد فطنت لما أعانيه، فطلبت مني أن أتناول مُسكّنًا للألم، وعرفتّني مكانه. تناولتُ حبّتين من عبوة الدواء، وشـعرت ببرودة تسـري في جسـدي، رغم العرق الذي أحسست به ينضح على جبهتي.

وبعدمـا اسـتعدتُ نفسـي، عـدتُ إليهـا فطالبتنـي بالاسـترخاء، والإنصات لها حتى يعمل المسكّن، واستطردت بصوتها الرخيم:

t.me/qurssan

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

توقفت مع الخواجة في قلب المدينة التاريخية التي كانت يومًا عاصمة لأعظم حضارة في العالم، مدينة طِيْبَة، التي لم تعرف من جدّتك لماذا أسمِيتْ "طيبة" ولماذا تسمونها الأقصر الآن؟ ورأيتم جمعًا يتحلق حول شيء لم تروه، فأشار الخواجة للمكان واندفعتم إليه. اختلطت الجلابيب البيضاء والرمادية والسوداء والزرقاء، التي أحاط من يرتدونها برجلٍ يُمسكُ دُفًّا ويقفُ أمام عنزةٍ يعتليها قرد يقرع المهرّج الدُّفّ فيرقص القرد، من دون أن تتحرك العنزة من مكانها. وأصحاب الجلابيب الذين رحت تتأمل وجوههم التي يغلبُ عليها السمار، يبتسمون أو يضحكون، وقد اعتمر بعضهم الطواقي، أو العمامات، وبينهم من اعتمروا طاقيّة ولفّوا حولها عمامة، بينما وضع صاحب القرد على جلبابه جاكيت رثّا قديمًا، ممزقًا، كأنما جعل منه زيًّا رسميًا ليؤدي به الفقرة الضاحكة لجمهوره.

أمسك الطبل في يد، فيما راح يطرق عليه بالأخرى التي كان معصمها محاطًا بسوار يمتد في سلسلتين امتدا لتطوق إحداهما رقبة القرد، بينما التفّت الأخرى حول رقبة العنزة.

كنت ترى العالم لأول مرة، فلم يكن في مَضْيَفَة جدك، أو بيت أهلك شيء من هذا، ولا رأيت شيئًا خارج جدران بيتكم إلا بعيني جدتك، إذ أقعدك ضعف جسدك واعتلالك عن صحبة أبيك وإخوتك إلى الأرض للزراعة، وبقيت حبيس الغرفة التي كانت جدتك تتردد عليها بعدما تنتهي من الإشراف على خبيز اليوم وإعداد الطعام.

t.me/qurssan

الجدة التي لم تر شيئًا خارج جدران البيت إلا الترعة التي اعتادت الذهاب إليها في صباها مع أخواتها وبنات العائلة لغسل الثياب أو ملء الأواني الفخارية بالماء. وتعلم أيضًا قصّة زواجها عندما بلغت الثالثة عشرة من جدّك، وهو ابن عمها الأكبر، وأنها منذ دخوله عليها مكثت في داخل الدار طوال حياتها. ومع ذلك لم تتوقف عن حكاياتها لك.

كان يغبطك أنها فضّلتك من بين كل أولاد العائلة وبناتها لكي تحكي عن مغامراتها، لأنك، دون أبناء عمومتك جميعًا، الذي تصدق كل ما تقوله بيقين تام، وتحتفظ به لنفسك كسرّ مقدس؛ لأنها تحلفّك دومًا بألا تخبر أحدًا بما تقوله لك.

حكت لك أنها ذهبت للحج في ليلة من الليالي، قالت إنها ظلت تدعو الله لأسبوع كامل أن ينولها أداء الفريضة، لكن في عائلة لا تخرج نساؤها، إذا بلغن العاشرة، من دور آبائهن إلا إلى دور أزواجهن لآخر أعمارهن، فإن مثلها لكي تؤدي الفريضة كانت في حاجة إلى معجزة.

وقد أرادها الله لها، فجاءها هاتفٌ يطلب منها الصعود إلى سطح الدار في ليلة مقمرة، عند انتصاف الليل. كانت قد عكفت على تلاوةِ ما تحفظ من آيات الله، وعادت تلهج بأدعيتها وهي في طريقها إلى السطح، في خلسةٍ من أهل البيت النائمين. وعلى السطح شاهدَت هالة ضوء غريبة، أغشت بصرها، ثم أحسّت بنفسها خفيفة، حتى شعرت بأن غيمة حانية قد رفعتها عن الأرض.

t.me/qurssan

ولما لمَحتْ على وجهك ملامح الدهشة والانبهار، عادت تقول إن الله يسّر لها الحج على ظهر غيمة، فأدّت المناسك كلها وعادت إلى فراشها قبل أن يستيقظ أهلها في الدار.

تلك هي الحكاية الوحيدة التي لم تكتف بأن تؤكد لك بعدها ألا تخبر عنها أحدًا. بل قالت إن الأرواح التي انتقلت بها من أعلى الدار وحتى مكة، أوصتك بألا تحكي ما حدث لأحد، وجاءت بالمصحف الذي تحتفظ به أسفل مخدتها رغم أنها لا تجيد القراءة، ووضعت يدك عليه، وطلبت منك أن تحلف ثلاث مرات، وقد فعلت.

وما أثار دهشتك في هذا الأمر أن ستّك لم تكن متدينة ولا حريصة على إظهار مظاهر التقوى، ولا تحفظ من القرآن إلا آيات معدودات ولم تفهم أبدًا سر رغبتها في أداء فريضة الحج في ذلك العمر المبكر، لكنك في الوقت نفسه كنت تشعر بأنها مثل قديسة، وتقول إن صلتها بأهل الكرامات هي التي تمنحها هالة القداسة التي تستكمل قوتها في الدار: فقد أصبحت المرأة التي لا يلين أعتى الرجال في العائلة إلا لها، وعلى رأسهم أبوك، الذي لو طَلَبَتْ منه أن يُلقي بنفسه في مياه النيل ما تردد لحظة. لقد غدت المرأة التي لا يمكن لأحد من كل رجال العائلة أن يقضي أمرًا دون موافقتها ومباركتها.

كانت تحكي لك حكايات العالم. العالم الذي لم تكن أنت تعرف عنه شيئًا، فأقنعتك بأنها رأت منه مساحات شاسعة، وزارت فيه أراض بعيدة نائية في ليال تشبه ليلة الحج، فأرتك أفيال الهند، وأطلعتك على

t.me/qurssan

صراعات قبائل الهوّارة، وتغريبة بني هلال، وحكت لك عن المساخيط والمتحجرين من عُصاة الرحمن، وعن كرامات الأولياء. وابتعدت عن سير العفاريت لأنها كانت تعرف خوفك من سيرتهم.

لكنك الآن أصبحت قادرًا أن ترى بنفسك كل شيء، وأدركت أن ما بنيته في خيالك لا يمكن أن يكون له أثر ما رأيته بعينيك. رغم أنك لم تكن رأيت شيئًا بعد.

في اليوم التالي لوصولكم الأقصر رأيت لصًا لأول مرة، ولم يكن من أولئك الذين يسرقون المواشي أو يقطعون الطرقات ليلًا على الموسرين، ممن كنت تسمع عنهم من إخوتك أو من جدتك، بل رجل يبدو الفقر على ملامح وجهه المتغضن بالألم، وقد دُقّت أذناه في باب حانوته، ووُضع تحت قدميه حجران، وأمامه جلس جندي من جنود الدرَك يراقبه ويتهمه بأنه غشّاش وحرامي، وأنه لن يرفع عنه عذابه إلا بعد أن تطول أذناه لتغدوا في طول أذني حمار إثيوبي. سأل الخواجة عن الرجل فقيل له إنه غشاش يبيع بضاعته للناس أغلى من سعرها الحقيقي. قال الخواجة إن الناس لا ينبغي أن يشتروا بسعر أعلى من الشائع فقيل له إنه يغش في الميزان. وقد ظل مشهد الأذنين المدقوقتين في الباب يلح على مخيلتك طول اليوم، مذهولًا من قسوة البشر وعجائب ما يفكرون فيه لأذى بعضهم بعضًا.

عندما بلغتم معبد الأقصر رقص قلبك بين ضلوعك ليس انبهارًا بما رأيت فقط، بل لأن الخواجة كان يرى في الأعمدة الشاهقة بناء

t.me/qurssan

لا يمكـن أن يشـيّده إلا عمالقـة، وقال لـك إن عليك أن تعيـش فخورًا بأنـك حفيـد العمالقـة. رحـت تتجول بيـن الأعمـدة والأروقـة منبهرًا محاولًا تخيل حياة هؤلاء العمالقة، وتسـأل نفسـك لماذا لم تحك لي ستي عنهم حكاية؟"

***

كان الألـم يمنعني مـن التركيز في حكاية قارئة القطـار هذه المرة، ولـم يسـحبني النوم إلـى عالمه السـحري، ومع ذلك فيبـدو أن الدواء المُسـكّن للألم قـد بدأ في العمل أخيـرًا، وإذ خفت نبـض الألم قليلًا وجدتني أغفو.

اسـتيقظتُ، فوجدت يدي ملفوفة في ضمادة. حاولت أن أحركها فشعرت بالضيق وهالني أنها موضوعة في جبيرة. نظرت بجواري ولم أجـد قارئة القطار، فانتفضت. ناديتهـا ولم يأتني رد. حاولت النهوض فوجدت جسدي ثقيلًا بشكل غريب.

لـم أشـعر بأنني فـي حالـة طبيعية، كما لـو كنت مخدّرًا، ومشـاهد عديدة تومض في رأسي بعضها مما رأيته في الحفل، وبعضها من تأثير حكايات قارئة القطار، وبعضها لأشخاص لا أعرفهم.

ومع غياب زرقاء انبثق في وعيي يقين بأنه لا بد أن هناك حارسًا خفيًا لهذه السـيدة يسـاعدها وقتما تحتاج لمسـاعدة، ولعله يتولى مسؤولية إطعامهـا، ولعله هـو من قام بتجبير يـدي أيضًا. هل تكـون ذكرى هي التي فعلت ذلك كله؟ ولاح لي وجهها في خيالي بابتسامتها الساحرة، وخيل لي أنها تُمسّد رأسي، حتى غبت عن وعيي مرة أخرى.

t.me/qurssan

4

نمت لفترة لا أعرف كم استغرقت، لكني فتحت عيني كمن يستيقظ هاربًا من كابوس، لم ألح في استدعائه خوفًا، لكن الصورة التي لاحقت نومي هي صورة المرأة التي رأيت صورتها طافية على وجه القهوة في مقهى الأوهام اللعين. جاءتني في هيئة امرأة عجوز تقف في حقل واسع، وتبتسم لي في محبة. أدركت أنها ستّي، وفرحت بمرآها، لكن حين بدأت في الاقتراب منها اختفت فجأة، ورأيت وجوهًا لرجال لا أعرفهم يتأملونني في تجهُّم، وبدأوا يقتربون مني فأحسست بضرورة الفرار. ثم دوى صوت طلقات نارية، فوقعت على الأرض في رعب.

استيقظت فوجدت القارئة بجواري، تضع نظارتها على عينيها، وتمسك بكتاب. أدركَتْ ببصيرتها، أنني فتحت عيني فبدأت من فورها في حكاية جديدة، كما لو أنها تقطع عليّ الطريق لأن أوجه لها أي أسئلة. وحسنًا فعلت لأنني أرغب أن أنسى الكابوس الذي كانت بعض مشاهده الغائمة تطاردني، ولا أفهم منها شيئًا. قالت:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

t.me/qurssan

أراد الخواجة أن يذهب إلى النوبة، ولم يكن أمامك إلا الانطلا
فقد رفض النوتيّ أو الريّس كما كنت تناديه، ذهابك مع الأجنبي؛ طلا
منك البقاء مع البحارة، فامتثلت، وقد كنت تتشوق لعودة المرك
إلى الوجه البحري لكي تصل إلى مصر المحروسة، كما تمنيت م
خروجك من القبر. وأخبرت الريّس بذلك حتى تضمن العودة عل
نفس الدهبية، بعدما ألفت صحبة البحارة والأجنبي.

وشاءت المصادفات أن يسترعي انتباهك رجلٌ ملثم غري
الأطوار. يتلفت حوله في ريبة. اقترب منك، فاعتدلت جالسًا. التق
عيناكما ورأيتهما تلتمعان بشكل غريب. سألك بصوت له فحيح
هامس عن مركب يتجه إلى بحري، فقلت له إنك بحار على مركب
وأنه مؤجر لأجنبي ذهب إلى الصحراء، ولن يُبحر إلا بعد عودته.

فغادر بلا كلام. وقضيت اليومين بين أزقّة ودروب، وبين سوق
الجمال والحمير، ثم عدت كمن ناداه مناد غامض لزيارة المعبد.
رأيت أهل المدينة وزوارها يقصدون مقاهٍ على نواصي الدروب
فقصدت واحدًا منها، وفكرت أن تدخن الجوزة مثل أغلب الجالسين،
ثم ذهبت لتتقصى الأزقة الخلفية. ورأيت فتيات سمراوات يقفن
حاسرات الرؤوس كاشفات عن شعور سوداء ثقيلة، وعيون كحيلة،
وأدركت من ابتساماتهن ما أردن أن يمنحنك، لكنك رحت تردد كما
علمتك جدتك: "معاذ الله". وسرعان ما عدت إلى المركب لتستعد
لقضاء الليل مع من تبقى من البحارة.

t.me/qurssan

وقبيل وصولك الشاطئ رأيت شبحًا لرجل لم تتمكن من رؤية ملامحه بوضوح، جالسًا على حجر قريب من المركب. نادى عليك بصوتٍ بدا لك أليفًا، وسرعان ما اتضح أنه غريب الأطوار الذي رأيته في الصباح. اقتربت منه، فنهض وأعاد السؤال الذي سألك إياه في الصباح، فلما عاودت إجابته بنفس إجابتك، ذكّرته بأنك قد التقيته في النهار، فتردد لوهلة ثم كشف عن هويته موضحًا أنه امرأة.

في الحقيقة لم تكن امرأة، بل صبية في مثل عمرك، لم يكن لأبيها سبيان، فاعتمد عليها في مساعدته في الزرع، وفي الذهاب للسوق لبيع جانب من المحصول، ولأجل ذلك كانت ترتدي جلبابًا وتلفّ رأسها بعمامة. أوضحت لك أنها تحب أهلها، لكنها تخشى أن يفوتها قطار الزواج، وأخبرتك بأنها سمعت من صديقة لها اسمها شفيقة، اشترتها امرأة أجنبية لتخدمها، أن الحياة في مصر بها فرص كثيرة للمعيشة.

قالت لك إنها زارت بيت الخواجاية مع شفيقة مرّة فرأت ما لم تعرفه من قبل أبدًا في أي بيت من بيوت أهلها وأقاربها. رأت كيف أن لها فراشًا وحدها، رغم أنه كان مجرد "مَرْتَبَة" من القشّ على الأرض في غرفة صغيرة، لكنها نظيفة، ويسرّت المياه التي تتوافر في بيت الأجنبية لها أن تستحم كل يوم، وتتعلم بضع كلمات فرنسية، ترطن بها مع السيدة أحيانًا، وأن تتناول الطعام بالملعقة، وصارت ترتدي جلابيب ملونة بدلًا من الثوب الأسود الوحيد الذي كانت ترتديه في دارهم ليلًا ونهارًا. قالت لك إن الأجنبية العجوز ماتت إثر

t.me/qurssan

وعكة صحية مفاجئة، وعندما علمت شفيقة أن إخوتها عرفوا وجاءوا ليصحبوها للدار قررت الهروب من الصعيد كله، فلم يكن لها أن تعود للشقاء والفقر مرة أخرى. وأوضحت لك أخيرًا أن هروب صاحبتها شفيقة جعلها ترغب في أن تفعل مثلها.

أشفقت عليها، وأعجبك فيها شجاعتها. قلت لها إن وجودها كامرأة في قارب لا يوجد به إلا الرجال سيكون أمرًا صعبًا، لكنها أصرّت على إبقاء هويتها مخفية. سألتها أين ستبيت فأخبرتك بأنها لا تعرف مكاناً وليس لها أحد في المدينة، وسقط قلبك بين ضلوعك.

سألتها إن كان بإمكانها أن تبيت في إحدى دور الهوى، التي رأيتها في أزقة القرية، فكادت أن تلطمك على وجهك لولا أنك أبعدت نفسك عنها. أوضحت لها أن هذا الاقتراح قد يكون الأكثر أمانًا، لكنها رفضت، وفضلّت المبيت في الصحراء عن الدخول إلى وكرٍ من تلك الأوكار. ففكرت في المعبد، وقلت لها إنك تعرف ملاذًا قريبًا، وإنك ستحرسها حتى الصباح. وعند الفجر ستقنع ريّس المركب بضرورة اصطحابها معكم إلى بولاق، كما كان الأجنبي يقول.

اتجهتما صوب المعبد القريب، وجلستما قريبًا من الطريق الطويلة المؤدية إلى مدخل المعبد المهيب، والذي زادت هيبته في الليل، فقد بدت الأعمدة كعماليق الجان التي تحرس المعبد. اختبأتما خلف أحد التماثيل. كانت حرارة الجو قد انخفضت، وهبت نسمة هواء دافئة، وعندما بلغك صوت المؤذن الواقف على باب المسجد القريب مؤّذنًا

t.me/qurssan

صلاة العشاء، هتف هاتفٌ داخلك بأن تقصدا المسجد إذا حلّ الليل، تجنبًا لمخاطر لصوص الآثار، أو قُطّاع الطرق، أو سواهم من كائنات الليل.

وبعد سويعات قليلة كشفت الحجارة الصلدة عن قسوتها، مما جعل من الجلوس لفترةٍ طويلة أمرًا شاقًّا، أما التمدد على الحجارة فمستحيل. وقالت لك الصبية إنكما لو قصدتما حقلًا من الحقول لكان أيسر. لكنك رفضت الفكرة وأخبرتها بخطتك للذهاب إلى المسجد بعد العشاء.

عند الفجر وقبل الصلاة توجهتما صوب القارب، وفور عودة الريّس من الصلاة أخبرته بأمر الفتى. ولم يستغرق الأمر وقتًا من الريّس لقبول وافد جديد، أخبرته بأنه ابن عمك فرحب بوجوده معكم على الدهبية".

***

توقفت زرقاء عن الحكي. نظرت إليها فقالت: عليك أن تذهب لتتناول شيئًا، وطلبت مني أن أحضر لها بعض المياه لأنها تشعر بالعطش. كنت أشعر بفضول شديد لمعرفة بقية حكايتي، ولكني أسرعت خارجًا من المقصورة، ووجدت الصينية على الباب، فأحضرت منها كأسًا ملأتها بالمياه، وعدت بها، وتلقتها شاكرة، واعتدلت لتشرب، ثم طلبت مني أن أذهب لتناول طعامي.

t.me/qurssan

انتبهت لإصابة يدي، وشعرت بغُصّة. جلست بجوار الصينية، حاولت إعداد القهوة أولًا، وأخذت فنجان قهوة وانتحيتُ بنفسي بعيدًا. استعدتُ حكاية زرقاء العجيبة، أو حكايتي أنا بالأحرى، مُدركًا أنها لو كانت صادقة فقد حدث ما تحكيه في زمن آخر بعيد. كنتُ مندهشًا لغياب ذاكرتي الذي لا يؤثر في وعيي، وقدرتي على تقديم الأشياء. ولعنتُ الحظ الذي تسبب في ذلك من دون أي مبرر واضح أو مفهوم.

وجاء طيف وجه ذكرى، كغمامة تلاحقني، أو كطيف أراه أمامي بين الفينة والأخرى، وأدركتُ كم كان وجودها حيويًا، برقتها وصبرها، وحنوها على توءمها وعليّ، وصبرها على أسئلتي. شعرت بشوقٍ جارف إليها، وبالندم لأنني غادرتها وذهبت إلى الحفل. لكني تذكرت أنها هي التي اختفت، وأنني لأجل ذلك قررت الذهاب إلى الحفل.

اتجهت للحمام وقضيت حاجتي وغسلت وجهي بيد واحدة، وداهمني الإحساس بالجوع فعدت والتهمت كل ما حملته الصينية من طعام. وشعرت بهزّة مفاجئة وكأن القطار قد اختل توازنه، أو كما لو كانت مجموعات من الحصى انتشرت على القضبان، لكنه سرعان ما استعاد توازنه وإيقاعه وسرعته ورتابة طرقات عجلاته على القضبان، وبدأت أبث في نفسي الخاطر بألا أزعج نفسي بالأمر، لأن هذا الصوت، فيما يبدو، هو الصوت الذي سأظل أستمع إليه مدى الحياة، وأن عليّ الامتثال لهذا القدر، وإيجاد وسيلة لأزجي بها وقتي، فلا يبدو أن هناك حلًا آخر في الأفق.

t.me/qurssan

ورغم أن هذا الإحساس عادة ما يبدو كالاستسلام التام، لكن فارئة القطار التي يبدو أنها تملك القدرة على التخاطر والإحساس بأي انفعال يصيب روحي؛ سرعان ما تنادني لاستكمال الحكاية التي بدأت تتعامل معها كأنها نص من النصوص التي تقرأها من أجل استمرار القراءة.

وعندها خطر في رأسي خاطر، أفزعني التفكير فيه، وقطعه صوت فارئة القطار الحاسم الذي بدا لي غاضبًا بشكل ما، كأنها قرأت الخاطرة التي مرّت في بالي، فهرعت إليها مستكينًا وألقيت بنفسي على الأريكة بجوارها من دون أن أنطق بشيء. شعرت بأن عريها غدا أليفًا، ومع ذلك شعرت بالخوف منها، فلم أنظر إليها وبقيتُ راقدًا على ظهري منصتًا لما سوف تقول.

t.me/qurssan

5

قالت زرقاء القطار:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

حين عاد الخواجة آذنًا ببدء رحلة العودة من الجنوب إلى الشمال، تنفست الصعداء لأن ذلك يعني بالنسبة لك بدء الاقتراب من المكان الذي أردت أن تبدأ فيه رحلتك بعيدًا عن أشباح الماضي وخصوصًا شبح جدتك وأشقائك وأهلك، كما أنه يعني مساعدة الصبية التي أسرّت لك أن اسمها فاطمة، بينما اتفقتما أن يكون اسمها الحركي "أبورماح". وراح الخواجة يبادلك الفكاهة ويسألك عما فعلت في الأقصر، قبل أن يقص عليك قصصًا مما شاهده من النوبة، وقد كاد الخجل أن يقتلك وقتما قصّ عليك تفاصيل زيارته لبيت من بيوت الهوى، ولم تعرف كيف توقف الخواجة عن حكاياته الماجنة خشية أن تخدش حياء أبي رماح.

لكن فاطمة تعاملت مع الموضوع بشكل أذهلك، إذ راحت تضحك كما يفعل الرجال عندما ينصتون للقصص الفاحشة وحواديت العاهرات. أخبرك بأنكم حين تتوقفون في إسنا سيصحبك معه إلى

t.me/qurssan

بهت أشهر عوالم المدينة، مؤكدًا أن العالمة التي سيقصدها تلميذة "كوتشوك هانم" أشهر عالمات وجه قبلي، ولكنك قلت له هاتفًا معاذ الله، فضحك على الكلمة التي كان يسمعها للمرة الأولى، فعدت تؤكد له في إصرار أنك لا تهتم بهذه الأمور. ابتسم لك ابتسامة خبيثة أدركت منها أنه يشكك في كونك مثليًا، فكرهت نفسك. والتفت إلى فاطمة فوجدتها تضحك وقد أدركت الورطة التي ورطت نفسك فيها، وكان عليك أن تُخرج نفسك من الورطة فرحت تحكي له عن مشاهداتك في الأقصر لبيوت الهوى والفتيات اللائي كنّ يوجهن إليك الدعوة لزيارتهن. وقد أنصت لك الخواجة بوجهٍ ضاحك ثم قال مقلّدًا إياك: "معاذ الله". فأغرق الجميع في الضحك.

رأيت النهر وقد اتسع فغدا شاسعًا كما لو أن المسافة بين الضفتين تحولت إلى بحيرة، وارتفع منسوب مياهه بشكل لم تره من قبل، وتغير لونه وأصبح داكنًا ومحمرًّا في مواضع قريبة من الضفتين، حتى أنه أغرق لك كثيرة قريبة من النهر، وكان ذلك الخير الذي يقتضي بعض ما يظنه الناس شرًّا كما تذكرت من أقوال ستّك. إذ اعتادت أن تقول لك بأن الناس يعلمون أن طين الأرض وخيرها وري زراعتها تعتمد على فيضان النيل. قالت لك لا تظن بالناس الغباء فهم يهبون أنفسهم للنيل.

قالت لك فاطمة إنها تتمزق من مشاهد الفلاحين الواقفين في الجزر العالية بعد أن فقدوا مساكنهم ومحاصيلهم. فسألتها متحيِّرا في أمرهم: إذا ما كان الأجدر بهم أن ينزحوا بعيدًا عن مسار النيل؟ فقالت ومن الذي يمكن له أن يهرب من قضاء الله؟ قلت: ونعم بالله.

t.me/qurssan

التزمت فاطمة الصمت طوال الرحلة متعللة بالمرض. انتحت بنفسِها بعيدًا عن الجميع، حتى لا ينكشف أمرها، فاتّخذتْ موقعها في المقدمة. وهكذا مرّت الأيام، غناء البحارة لشدّ الهمم، مراقبة الفلاحين على الشواطئ، والأطفال الذين يمرحون أو يتابعون مروركم من الشاطئ، وقطعان الجاموس وهي ترعى أو تشرب من مياه النهر أو تستحم. أشجار النخيل، التي تصطف وتكثر أو تقل حسب المزارع التي تمرون عليها، وتلال الحقول التي تفيض بالأشجار بين الفينة والأخرى. الفتيان الذين يسبحون بالقرب منكم كلما اقتربتم من إحدى القرى، أو الصعاليك الذين يهاجمون القارب مطالبة للأجانب بالبقشيش، ومعاركم أنت والبحّارة معهم لصد الهجوم، وحكايات الخواجة عن مشاهداته. جلسات السمر مساء، التي يتلفع خلالها الجميع بعماماتهم خوفًا من هجوم الناموس. التوقف على شواطئ المدن الكبرى من أجل المؤونة والطعام والتزود بالمياه، حتى بلغتم مصر المحروسة.

ودعت الخواجة الذي كان سيمكث في المحروسة ليوم واحد قبل أن يستكمل رحلته إلى الإسكندرية. ورغم إصراره على اصطحابك معه، شكرته قائلًا إن أقارب لك ينتظرونك. ورحت تودع البحّارة فردًا بعد آخر، وحتى الريّس أخبرك بأنه لن يسامح إذا علم أنك عدت يومًا لقِبْلي على دهبية أخرى، فشكرته بسعادة.

التفت حولك بحثًا عن فاطمة فلم تجد لها أثرًا. لمحت ثوبًا أسود بين الزحام فتتبعته مهرولًا، حتى لحقت بصاحبته، لكنك أدركت أنها

t.me/qurssan

لهـست فاطمة، فرحت تركض يسـارًا ويمينًا. وخوفًا من النطق باسمها بصـوت عال، أخذت تنـادي: أبورمـاح.. أبورماح"، ولكـن ذلك كله ذهب أدراج الريح.

اسـتعدت حواراتكمـا المقتضبـة عمّا يـود كل منكمـا أن يفعل في القاهـرة. قالت لك إنها سـتبحث عـن عائلة أجنبية لتعمـل لديها، وأن فرص وجود مثـل هذه العائلات أكثـر مما كان الأمر عليـه في القرية. ولكـن لا شـيء آخر يمكـن أن تعرف منه إلـى أين يمكنهـا أن تذهب. شعرت بالغباء لأنك لم تعرف منها شيئًا عمن تقصده في المحروسة.

وأنـت؟ مـاذا عنك؟ لم يكن لديـك أدنى فكرة. كل مـا تعرفه أنك في حي بولاق، ولا بد أن تبحث عن عمل لتعيش. وفي جيبك خمسـة قـروش و20 باره سـلمهم لك الريّس في الليلة التي سـبقت وصولكما لبولاق.

كانـت المهنـة الوحيـدة التـي تعرفهـا، بعـد جنـي البلح مـن أعلى النخيـل، هي ما زاولته لمسـاعدة البحارة في القـارب. ولم يكن لديك استعداد لإعادة التجربة.

بـدأت خبرتـك في القاهـرة بالزحـام، بمراقبة البشـر الذيـن هالك تكدسـهم: القادمـون مـن حيـث لا تعلـم، والمبحـرون إلـى حيـث لا تعلـم أيضًـا، بجلابيـب بيضـاء وسـوداء وقاتمـة، نظيفـة أو مغبرة، حفـاة أو ينتعلـون خفافـا مهترئـة، ونسـاء بجلابيـب سـوداء، أغلبهن أخفيـن وجوههن، وبعضهن كشـفن عـن وجوه جميلـة، أنصاف عراة

t.me/qurssan

بسراويل قصيرة من الخيش، وزنوجًا وسيدات يضعن في أنوفهن ما أسميته خلاخيل صغيرة، حمير وجمال وعربات خشبية في انتظار نقل القادمين وأغراضهم. وضجيج صاخب، وأصحاب عمامات يمسكون بنبابيت يتكئون عليها، بينما يبدو من نظراتهم الشرسة التي يوجهونها لمن حولهم أن لهم فيها مآرب أخرى.

ولم تتبين مآربهم إلا عندما رأيت فتى يرتدي جلبابًا مهترئًا يركض باتجاهك، يحمل في يده صندوقاً خشبياً صغيراً، وخلفه تتابع المطاردون، حتى اقترب من المعمم صاحب النبّوت أمامك، فرفعه وضرب به صدر الفتى الذي بوغت بالضربة فوقع على صدره، وانتفض الصندوق من يده من أثر الصدمة ووقع على الأرض، وفي لمح البصر كان صاحب النبّوت قد أمسك به، وانتظر القادمين في تحد. رفع يده بالنبّوت مهدّدا ليُسكتهم، ويوضّح لهم أنه إذا كان الصندوق لهم فقد أمسك باللص، ويبدو أنهم أدركوا أنه يساومهم على حقه من الصندوق نظير الإيقاع باللص، فظهر من بينهم رجلٌ بعمامة ضخمة وجلباب صوفي أسود، وأخرج صرّة قماشية من سيّالة الجلباب، تناول منها عدة قروش، مدّ بها يده لصاحب النبّوت، فقبِلها شاكرا، وناوله الصندوق راضيًا ومبتسمًا بزهو.

أما الفتى الواقع على الأرض، فأخذ يتلوى قليلًا حتى يظن الرائي أنه يصارع الموت، وعندما تبين له أنهم انشغلوا عنه قفز من الأرض، وفرّ مثل حيّة تسعى بين الرمال، واختفى أثره. مشيت في شارع بولاق

t.me/qurssan

باحثًا عن مقهى تشرب فيه الشاي وتجد فيه من يمكن أن تسأله عن مكانٍ للنوم، فوقع بصرك على رجل يرتدي جلبابًا، ويعتمر طاقية صوفية وأمامه منصة خشبية عليها قِدْرَة فول، وأرغفة خبز متراصة في مقطف من الخوص، وآخر تحتشد فيه ربطات من البصل الأخضر، طلبت طبقًا فوضع في صحن فخاري قدرًا من الفول ورشّ عليه من لتينة نحاسية بعض الزيت ثم منحك إياه. أعطيته البارات التي طلبها وجلست على حجر صغير أمامه قفص من الجِريد استخدمه الرجل كمنضدة بجوار الجدار القريب. ورحت تراقب وأنت تأكل الفول بنهم أهل المحروسة في ذهول، بخبز فلاحي يختلف عن مذاق الـ"العيش الشمسي" والفطير المشلتت اللذين لم تألف غيرهما.

بدا أن مرسى القوراب في بولاق، القريب، مركز لحركة الكثير من أصناف البشر: حمّالون يحملون على ظهورهم أجولة منتفخة ببضائع لا يعرف أحد ما هي، أو سقّاء المياه الذي ملأ جرابه الجلدي من النهر وعاد سائرًا في الطريق، ليبيع المياه للمحتاجين من رواد المقاهي وسكان الأكواخ الخشبية القريبة. أو بعض الأفندية الذين ارتدوا السترات ووضعوا الطرابيش على رؤوسهم، وهم يمشون خافضي الرؤوس إلا إذا لمح أحدهم سيدة متسربلة في عباءتها أفسحت المجال لوجهها، فتراهم يطالعونها بنظرات حذرة متلصصة، ثم سرعان ما يغضون أبصارهم.

تنفست الصعداء، وقد رأيت في هذه الحياة مكانًا. قلت إنك هنا ستجد ما تفعله، وستكسب رزقك، وتعيش حياة آمنة بعيدًا عن شبح

t.me/qurssan

الموت الذي يخيم على كل شيء في البلد، وكنت تقصد به قريتك النائية التي بدت لك بعيدة تمامًا، كأنها لم توجد من الأساس.

سرت في الشوارع، بلغت شارعًا طويلًا، بمحاذاة ترعة الإسماعيلية، مارا بمنطقة مزارع إبراهيم باشا. لم تعرف ما الذي يمكنك أن تفعله، وكان ثمة إحساس غريب بالفقد بسبب غياب فاطمة. لم تكن تعرف شيئا في المحروسة، ولا يكفيك ما سمعته من جدّتك عن وسيلة للبحث عن مكان تجد فيه لك ملاذًا، وتجد عملًا يمكنك من البقاء حيًّا.

وكلما رأيت مارًّا فكرت أن تسأله المساعدة، بائع العرقسوس الذي وضع الوعاء النحاسي الضخم على ظهره ومر يطرق بطبقين نحاسيين صغيرين بيده معلنًا عن مشروب الصحة البارد، ثم سرعان ما غيرت رأيك عندما رأيت عربة عليها فاكهة أو خضروات يقف أمامها معمم أو أكثر، وحولهم صبية يساعدونهم في بيع بضاعتهم للمارة. صبي فران، وشحاذون.

ولم تهتد لشيء، حتى وجدت نفسك في منتصف اليوم وقد بلغت حي الجمالية العتيق، وجدت سبيلًا فتوجهت إليه بكامل طاقتك وقد نالت منك حرارة الجو وكاد شعورك بالعطش أن يقضي عليك. تجرعت من مياه السبيل حتى ارتويت، وجلست على الرصيف الحجري تتأمل المكان من حولك. رأيت بناء حجريًّا واجهته دائرية سألت عنه فأخبروك بأنه "كُتّاب السيدة نفيسة"، فاستعدت أيام الكُتّاب في القرية قبل أن يقعدك المرض عن كل شيء. ولكنك سرعان

t.me/qurssan

ما تذكرت أنك في كُتّاب القرية كنت ابنًا موسرًا يدفع أبوك للشيخ لروشًا، أو مكيالًا من القمح إذا تيسر ومن التبن يكفيان غذاءه وغذاء حماره لنصف شهر، مقابل تحفيظك القرآن، أما هنا فلا أحد يمكنه أن ينفق عليك شيئًا.

ولم يمنعك ذلك من تأمل الشارع والبيوت العتيقة، والمارة الساعين لأرزاقهم، وقد أبهرك أن الناس هنا يعملون في أي شيء، باعة جائلون، وبائعو عرقسوس، وعمال بناء، وناقلو بضائع على عربات خشبية تجرها الحمير أو البغال، وعربجية، وسقاءو مياه، وباعة خبز، وحمّالو أمتعة ينقلونها على جمالهم. ومن أحب منهم الكسل؛ امتلك قردًا يُضحك به المارة ويتناول منهم بارات تكفيه لطعامه وطعام القرد.

رأيتَ نعشًا خشبيًا يحمله أربعة رجال، ويمشي خلفه شخصان معممان، اقتفى أثرهما ثلاثة شباب يرتدون جلابيب أيضًا. لم تفهم لماذا لا يسير أهل الحي كلهم خلف نعش في طريقه للدفن، كما يفعل أهل القرية عندما يموت واحد من أهلها؟ فاندفعت للسير خلفه، وأنت تقرأ الفاتحة على روح الميّت وتدعو له بالرحمة من دون أن تعرف شيئًا عنه أو عمّن يسيرون بجوارك، ثم هرولت ووضعت كتفك أسفل الصندوق الخشبي مشاركًا في حمله. وظللت سائرًا معهم صعودا على التلّة الترابية الطويلة التي لاحت عند قمتها منطقة المقابر.

t.me/qurssan

بلغتم المقابر وقد أخذ حاملو النعش يوحدون الله ويتبارون في رفع أصواتهم ففعلت مثلهم، وأمام القبر المنشود شكروا سعيك، ولكنك أصررت على حضور الدفن والمشاركة فيه، لكنهم رفضوا بإباء، وأخبروك بأن الميّت امرأة ولأنك لست من أهلها فليس من حقك دفنها.

فاعتذرت لهم بحياء، وانصرفت عنهم محاولًا تذكر الطريق التي جئت منها، بينما تتلفت إلى المقابر من حولك وتقارن بينها وبين المقابر التي خرجت منها حيًّا في قريتك النائية البعيدة".

***

سمعتُ قارئة القطار تتثاءب، فانتبهت، ثم صمتت عن الكلام فجأة، ولأول مرة تنهي الحكاية من قبل أن يغلبني النوم. ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل. ولكني تذكرت أنها غالبًا ما تفعل ذلك لتمنحني الفرصة لكي أتناول طعامًا أو أتناول دواء مسكّنا، فنهضت من مكاني وكان ألم يدي محتملًا، وانتظرت أن تتحدث إليّ أو تخبرني بشيء فلم تفعل. سألتها إن كانت تحتاج لشيء فلم تنطق.

كنت أشعر بتقلص عضلات جسدي، فقررت أن أتمشّى قليلًا بين العربات، لكي أنشط نفسي قليلًا.

ألحّ الغيظ على ذهني وضاق صدري. تضخمت صورة زرقاء في وعيي لأول مرة كامرأة كريهة تتحمل مسؤولية وجودي في هذا السجن المتحرك.

t.me/qurssan

استدعيت أحداث عربة الحفل وشخصياتها، وشعرت بندم عميق. فعلى الأقل كانت لديّ حياة هناك. أكثر من شخصية، وحكايات وضحك ورقص. قراءة وطهي. مجتمع غريب لكنه يظل مبددًا للملل ومثيرًا، بدلًا من كوني وحيدًا هنا مع هذه السيدة التي لا يمكن لها أن تخالط البشر.

انبثق خاطر في وعيي أراني أن حل كل المشكلة قريبٌ جدًا مني، وأنني الذي أتجاهله بغباء شديد. عدت إلى مقصورتها حيث وجدتها ممددة وقد أمسكت كتابًا تقرأ منه كالعادة، فتمددت في الجهة المقابلة لها، وانتظرت. اعتقدت أن حكايتي ستلهيها عن القراءة لكن يبدو أن ذلك أمر مستحيل. برقت الفكرة في ذهني مرة أخرى بشكل ملح. لا يوجد حل آخر؛ فإذا كانت تقرأ بشكل أبدي لكي يظل القطار ماضيًا في هذا المجهول، فلم يعد أمامي إذن سوى أن أوقفها عن القراءة بأي وسيلة.

ولأول مرة أجد في نفسي الجرأة لأطلب منها أن تكمل الحكاية، وكانت الفكرة التي وصلت إليها قبل دقائق قد بدأت تختمر في رأسي، لكنها لم تلتفت إليّ، ولم تعقب بشيء، وبعد وهلة من الصمت لم أفهم أكانت نائمة أم أنها تفكر في أمر ما أم تحتشد لقراءة جديدة؟ لكنها أخيرًا بددت الصمت وطلبت مني في هدوء الخروج من غرفتها، وشددت عليّ أن أوصد الباب جيدًا خلفي، وطلبَتْ، بنبرة حاسمة وحازمة، ألا أعاود الدخول إليها مرة أخرى.

t.me/qurssan

ولستُ أدري لماذا شعرت بالخوف الشديد فجأة؟ كانت قد أثبتت لي أنها بالفعل تمتلك بصيرة لا غبار عليها، لكن كيف أمكن لها أن تقرأ ما دار في خاطري؟ كنت أريد حقّا أن أمسح هذه الفكرة من رأسي، لكنها كانت تتحداني مثل الوسواس.

وارتجفت في مكاني حين جاءني صوتها مرة أخرى:

- ألم تسمعني؟ لماذا لا تتحرك؟

وأذعنت لها كالعادة، وخرجتُ بالفعل وأوصدت الباب خلفي. وأنا مشلول من الارتباك، ومن الشعور بالخجل لأنها اطّلعت على نيتي في تعطيلها عن القراءة، وبينها الخاطر الذي مرّ على عقلي بأن أقتلها إذا اقتضى الأمر ذلك.

لكني لأول مرة منذ دخلت القطار أشعر بهذه المشاعر. أصبحتُ ضائعًا تمامًا، ليس بسبب فقداني لذاكرتي بل لأنني فقدت الاتصال والتواصل مع السيدة التي تجسد روح هذا القطار. لم أتمكن من تقدير نواياها عما يمكن أن تفعله؟ هل ستكتفي بإبعادي عنها، أم أنني سأجد نفسي في قبضة الرجال الذين انشقّت عنهم أرض القطار وأمسكوا بي ليقودوني إليها؟

كيف شعرت قارئة القطار بالخطر أو بما انتويته في صدري؟ أي سرّ خلف هذه المرأة؟ ولكن صحيح، فإذا كانت قادرة على أن تحكي لي حكايتي أنا التي تبدو لي أنها تخص شخصًا آخر عاش في زمن آخر، فكيف لا يمكنها أن تقرأ الخواطر؟!

t.me/qurssan

6

مـرّت أيـام صعبـة، لـم يمكنني خلالهـا النـوم إلا بشـكل متقطع، وحاولـت شـغل الوقـت بالقـراءة. أردت فتـح بـاب مقصـورة زرقاء فوجدته موصدًا من الداخل. وشـعرت بأن الأمر الآن بات محسـومًا، وسوف يُقضى عليّ في القطار.

أقلقنـي أننـي فكـرتُ في القتـل، ولم تكن هـذه هي المـرة الأولى على ما يبدو، فقد فعلت ذلك في الحفل، حتى لو أن الأمر أخذ شـكل التهديـد. تذكرت مرة أخرى مـا قالته ذكرى عن احتمالية كوني مجرمًا هاربًا من العدالة، وعاودني الشعور الثقيل بالذنب تجاه إلهام.

ثـم عرفـت الجـوع، مُـدركًا مـدى الرفاهية التـي تنعمـت بها في الحفـل، وكلمـا راودتنـي نفسـي بالعـودة إلى عربـة الحفل، سـرعان ما أكبح حماسي مذكّرًا نفسي بفِرَق العلاج والتحقيقات والإدانة الذين جاءوا بي إلى هنا.

لكني بعـد أول محاولة جادة لتجاوز المسـألة اتضح لي أن إقامتي فـي القطار قد تحددت الآن في عربة واحدة، فقـد أغلق البابان اللذان يصـلان العربة التـي أقيم فيها ببقيـة العربات، وتنفسـت الصعداء لأن

t.me/qurssan

العربـة بهـا حمّام. وإن أصبحت كل هذه الأمـور بمرور الوقت رفاهية لا معنى لها، لأنني فقدت الرغبة في كل شـيء بسـبب الجوع الذي بدأ ينهكني، ويقلل من قدرتي على الحركة، وأصابني بالدوار والصداع.

لم تعد لديّ القدرة حتى على أي لون من ألوان الجنون والهيستريا التـي أصابتني من قبل. وبمرور الوقت أدركت أن هذه الرحلة كلها لم تكن سـوى رحلة النهايـة؛ أفقد ذاكرتي أولًا، وأفقـد هويتي، ثم تنتهي حياتي.

لـم يعد أمامي إلا الإذعان لحكمة الأقـدار التي دفعت بي إلى هذا المكان، فمن أنا في النهاية لكي أقاوم قدرًا بهذه القسـوة، رغم أنني لم أر فيه سـوى وجوه رقيقة وملامح جميلة، ولم أسـمع سـوى حكايات مشوقة.

مـع ذلك فقد راودني شـعور بأن ثمة حكمة ما، قـد أصل إليها قبل أن تنتهـي حياتـي هنـا، وقـد لا يصلني منها شـيء. لم أعد قـادرًا على التدخيـن، أصبـح الدخـان يصيبنـي بالغثيان، ربما بسـبب قلـة الطعام أيضًا. لسـت أدري. كان التدخين هو الشيء الوحيد الذي أمارسه وأنا أعرف تمامًا أنني مارسـته قبل أن أفقـد ذاكرتي، حلقة الوصل الوحيدة بين هذا الحاضر المشوّش، وبين الماضي المفقود.

حـلّ الصمت على كل شـيء مـن حولي. وبقيتُ أجتـرّ قصتي كما حكـت لي زرقاء جانبًا منها قبل أن تغضب وتطردني من جنّتها، وتمنع عني بقية الحكاية.

t.me/qurssan

لا شـك لديّ الآن أنها تسيطر على القطار بشكل ما. فقد جاءوا بي إليهـا لتردعنـي، وما كانوا ليفعلـوا ذلك لو أنهم لا يعترفون بسـلطتها. والآن أراني سجينًا في هذه العربة، من دون أن تتحرك هي من مكانها. كأنهـا تتخاطـر بعقلها مع من يحرسـونها فـي هذا القطار لكـي ينفذوا أوامرها!

لا أعرف من هم حُراسـها، لا يمكن لي رؤيتهم. يأتون ليضعوا لي الطعام الذي غدا شـحيحًا وقليلًا، في أوقات نومي، وكانوا يعالجونني من دون أن أشـعر. حتـى أنهم أزالـوا الجبيرة عن يـدي المصابة أيضًا من دون أن أشـعر بهم. وبالتأكيد يسـاعدونها كمـا كانت ذكرى تفعل، يذهبون بها إلى الحمام، ويطعمونها، ولعلهم يحممونها أيضًا. فبالرغم من أنني لم أرها إلا ممدّدة على تلك الأريكة، إلا أن عبقًا عطريًا ناعمًا يميز مقصورتها باستمرار.

أمر مخيف أن تكون هذه المرأة جنيّة من الجنيّات. والأدهى من هذا كله أنها تعرف عني كل شيء؛ حياتي قبل أن أفقد الذاكرة، وعلاقتي في حياة أخرى بتوءمها، بل وما يخطر في عقلي من أفكار أو نيّات.

لـم يكن لديّ ما أفعلـه في هذه العربة، التي تحوّلـت إلى زنزانة، إلا المشي جيئة وذهابًا، أستعيد ما كانت تحكيه لي عن حياتي خارج القطار، مرارًا وتكرارًا، كما لو أنني أخشى أن يخاتلني ويضيع من ذاكرتي.

رحـت أسـتعيد تفاصيـل ما دار فـي عربـة الحفل، القصـص التي تداولتهـا إلهـام عنـي، ثم مـا دار بيني وبين الفتاة ذات الشـعر الأسـود

t.me/qurssan

الحالـك التـي لا أعـرف أهي شـخصية من لحـم ودم أم مجـرد وهم أقصـد أهي امرأة حقيقية أم أنها صورة للفتـاة التي توهمت أنني رأيتها بعدما استمعت لقصة مطعم القناديل المعتمة لأول مرة.

قالـت إنهـا تعرفني جيّدا، وإن هذا هو سـرّ إحساسـي بالألفة حين رأيتهـا لأول مـرة لمّـا فتحـت لي بـاب عربـة الحفل قبـل أن تخطفني ذكرى.

قالـت لـي إنها لـم تلتقني إلا مع آخريـن، وذكرت أسـماء لم تعن أيّ منها لي شـيئًا: سـمير، محسـن، نرمين، فريدة وآخرين. سألتها عن ظـروف لقائي بها لأول مـرة فأجابت بأنها جاءت لمقهى مع صديقات للقائـي بناء علـى نصيحة إحداهـن. وكيف أنها ضحكـت على الكثير مـن تعليقاتي حين بـدأت أتحدث معها. لم يكن مـا تقوله في الحقيقة يكشف شيئا خاصًّا عني، بإمكان أي شخص في العالم أن يتعرف على بشرٍ وأن يلتقيهم بلا أسباب مهمة كما هي طريقة لقائي بها. كان كل ما تقوله عاديًا جدًّا.

لم يكن لكل ما قالته أي أثر في تذكيري بأي شيء عن حياتي خارج القطـار، أو عن علاقتي بها، أو حتى مفيدًا لي في محاولاتي لاسـتعادة ذاكرتـي. وأدركـتُ في نهايـة الأمر أننـي وقعت ضحيـة مجموعة من النسـاء اللائي أردن أن يقضين على ملـل حياتهن في القطار بالتلاعب بـي. ولعـل هذا ما تسـبب فـي إثـارة جنونـي، وانتهى بالفضيحـة التي تحولت خلالها إلى متهم بالشروع في القتل.

t.me/qurssan

كان لقائي تلك الفتاة داعيًا للتوقف عن التفكير في البحث عن سيرة حياتي لدى مجموعة من غريبات الأطوار اللائي لا أعرف عنهن شيئًا. كنت قد وقعت في فخ زرقاء مرة أخرى لأنني صدقت ما قالته لي من أن الحفل مكان لاستعادة الذاكرة، بينما يبدو أنها أرادت أن تتخلص من وجودي المعطل لها لإبعادي عنها بأي وسيلة.

ولعل إبعادي إلى هنا الآن أيضًا ليس سوى محاولة للتخلص مني بعدما ضاقت من ضياع وقتها بالحكايات التي تحكيها لي.

t.me/qurssan

7

قضيت فترة من الزمن في حيرةٍ، وإحساسٍ بالغبن، فكيف لزرقاء أن تحاكمني على خواطري، والنفسُ تهجسُ ليلًا ونهارًا بالفظائع. ألا تعرفين، وأنت زرقاء القطار، ما يدور في خلد سكان هذا القطار؟ ألا تعرفين ما يكنزونه في صدورهم من الغيرة والكراهية والحقد؟ لقد سمعت منهم قصصًا وحكايات، وأعرف جيّدًا ما أقول، فلماذا لا تهتمين بعقاب كل منهم على نياته الخبيثة؟ هل اعتقدت أن هياجي مع سيدات الحفل مؤشر على اعتباري خطرًا عليك؟ ضعي نفسك مكاني يا سيدتي قارئة القطار.

اتركي قراءاتك وهروبك المستمر من عالمنا هذا كله، وتأملي ما يدور حولك، على الأقل انظري بعين المهتم بآلام الآخرين. تفهّمتُ آلامك وحزنك على ابنك، وابتعدت وفقًا لنصحك، ولكن لم يكن ممكنًا أن أسمح لهم بأن يعبثوا بي وأن أتحول إلى هدفٍ للسخريةِ واللهو، لمجرد أنني رجلٌ فقد ذاكرته وابتغى أن يعرف شيئًا عن نفسه.

أنت لا تبالين بأحد، ولا حتى بتوءمكِ التي وقفت بجوارك وأوقفت حياتها على مدّ يد العون لك، والتي جعلت من نفسها عينيك اللتين ترين بهما، وقدمين بهما تسيرين وتستحمين وتأكلين. لقد أخبرتني

t.me/qurssan

باختفائها بدم بارد، هل تذكرين النبرة اللامبالية التي أعلنت لي بها أنها: "كما جاءت ذهبت"، كأنك لا تهتمين بأمرها؛ جاءت أم اختفت. أصدقيني القول أفي ذلك ما يدفع للتعاطف أم للنفور؟ نعم نفرت من هذا كله، ونفرت من تكبرك. من هذه السلطة التي تتعالين بها على الجميع، وعليّ أنا من قبل ومن بعد.

كررت كل هذا بصوت أعلى وأنا أتخيل زرقاء أمامي وقد لاحت على وجهها ملامح الضيق والاستنكار كالعادة.

ثم داهمني الملل، فغدوت أبحث عن سبل تزجية الوقت. نهضت أحاول القفز على ساق واحدة، من أول العربة لنهايتها، ومن دون أن أضع الساق الأخرى على الأرض. تعثرتُ في منتصف الطريق، فعدتُ مشيًا لنقطة البداية وكررت الأمر. ونجحت لولا قفزة غير متقنة في الثلث الأخير انتهى بي ساقطًا على الأرض مثل جثة. بقيت في مكاني منبطحًا على وجهي، وألصقت وجهي بالأرض، كنت ألهث، ولكني لاحظت شيئًا أسفل المقعد المجاور، إلى يميني. لعله طبق فارغ لم ينتبهوا له، أو متاع قديم لركاب مرّوا بالعربة من قبل. حاولت الوصول إلى الصندوق، وانتهيت إليه. لم يكن صندوقًا بل دفترًا صغيرًا. قلتُ لنفسي رائع. على الأقل يمكنني استخدامه في التدوين بين آن وآخر. كان الدفتر متوسط الحجم، مغلّفًا بغلافٍ جلدي أزرق. عدت به إلى المقعد وجلست أتصفحه. أوراقه صفراء، خالية. لاحظت كتابة بخط اليد في إحدى الصفحات، دققت في الكتابة واسترعى انتباهي جمال الخط.

t.me/qurssan

"حبيبي!

أكتب إليك هذه الرسالة وكلي أمل أن تقرأها يومًا، ولن أذكر اسمك. عليّ أن أحتاط فلست أدري إذا ما كانت ستصل إليك أم لا ولن أذكر لك اسمي لأنك من المفترض أن تعرفني.

لعلك تشعر بالدهشة من اختفائي المفاجئ. لكن أؤكد لك أن الأمر ليس في يدي. نحن كثيرًا ما نكون أسرى لقدر، أو لقوة أقوى منا. قد تكون هذه القوة داخلنا. لو شرحت لك أزمتي ربما لن تفهم منها شيئًا، لكن ما أود أن تعرفه أنني أعيش غربة كاملة في جسدي. وُلدت بذاكرة تعيش فيها حياة كاملة. هل تفهم ما أعنيه؟ أن ترى في طفولتك سيرة حياتك كاملة: فيها الطفولة والصبا والكهولة، لكن الحياة التي تعيش في ذاكرتي لم تكن نفس الحياة التي أحياها. نعم، هكذا سار الأمر منذ طفولتي: أرى في خيالي تداعيات لحياة عشتها كاملة، ارتحلت، وسافرت، وعشقت، وذقت من عسل الحياة ومرها ما قدر لي، وليس في هذا شيء سوى أنه أمر لا معنى له عندما تولد فتكتشف أنك تستقبل العالم بعين قديمة، لا جديد فيه بالنسبة لك.

للأسف ليس مسموحًا لي أن أذكر الكثير عن طفولتي وحياتي لأنها مرتبطة بتوءمي. بدأ اختلافنا حين أثقلت رأسي في بداية صباي بهذه الذكريات، لا مرأة أخرى تعيش في جسدي. لا أعرف من أين جاءت أو كيف. ولن أطيل، فيمكنني أن أكتب عن هذا كتابًا لا رسالة، لكن لا وقت لديّ لهذا الآن. هل تذكر ما قلته لك عن حياة أخرى عرفتك فيها؟

t.me/qurssan

هل يبدو لك الأمر الآن مفهومًا؟ لا أدري. فأنا نفسي، وقد أدركت في صباي أن أحدا ممن أتذكرهم في خيالي، وبينهم من أعرف أنهم ابي وأمي وإخوتي في حياة سابقة لا يمكن أن أراه في حياتي هذه. لقد أدركت الأمر بمرور الزمن. وحاولت أن أحافظ على حياة طبيعية بين من أعرفهم، وأبقي ذكريات عمري الآخر سترا. حياة سرية أخرى لا يعرف عنها أحد شيئًا. لهذا لم يكن متوقعًا أبدًا أن أرى منهم أحدًا، وخصوصًا أنت.

لو جاء ملك الجان بنفسه ليخبرني بأنك ستأتي لهذا القطار وأنني سألتقيك، لقلت عنه إنه مخرف. ولهذا عشت حياتي غريبة. غريبة عن نفسي، وعن أهلي وعن هذا العالم كله، ولولا ما حل بأختي وما تعرضت له من محن، والتي قضت تدريجيًا على بصرها ثم شلت حركتها، بسبب ضمور عضلات ساقيها، ما كنا اجتمعنا سويًا أبدًا. هذه ترتيبات القدر على أي حال. لقاء بمن لا يمكن أن تتوقع، ورحيل عمن تتمنى أن تعيش معهم للأبد. لا أعرف ما سيؤول إليه أمرك في القطار. ولكنك لن تراني بعد ذلك. كان لقاؤنا معجزة ولم يكن مقدرًا لها أكثر من ذلك. فحتى لو كان من المقدر لنا أن نعيش معًا ما أمكنك أن تطيق حياتي الغريبة، لأنني أعيش في زمن آخر، لا تملك أنت أن تستعيده. لكن ما يهمني أن أخبرك به أمران: أولهما أن تعرف أنني أحببتك ولاأزال، في الحياتين، وأن توءمي المسكينة ليست قاسية كما تراها، فهي أيضًا رهينة قدرها. لكن المهم أنها تعلم عن حياتي السابقة كل شيء، وبالتالي فقصة حياتك التي لا تعرف أنت عنها شيئًا، والتي

t.me/qurssan

أخبرتك بأنني عرفتك فيها، هي أيضًا بين يديها، وقد تحكيها لك إن شاءت وقد لا تهتم بالأمر. لكن هذا كل ما يمكنني قوله.

لعل الأمر غريب، ولكنه ليس أقل غرابة بالنسبة لي أنا التي عرفتك مرتين، ولا أزال أحبك. لن يمكن لك أن تفهم ما تمر به إلا إذا تأكدت من شيء واحد. نحن نموت هناك لنعيش هنا. ونعيش هناك لأننا متنا هنا. هل تفهم؟ أنت ربما تعيش الآن في القطار لأنك ميت هناك. أرجو ألا تكون كلماتي قاسية لكن صدقني. لو أردت مني نصيحة فاعلم أن الحياة في القطار لا يلزمها إلا الصبر. أتمنى أن تصل هذه الرسالة إليك، أنت يا من سيعرفني، فإن وقعت بين يديك فاحتفظ بها ذكرى مني، كما أتمنى أن تبقى ذكرى أيامنا معًا خالدة وقد حرصت فيها على إظهار محبتي الأبدية هذه لك. كن بخير أبدًا.

.....

انتهت الرسالة بلا توقيع بالفعل، لكني لاحظت كيف دسّت اسمها في السطر قبل الأخير. ولم يكن لديّ شكٌ في كاتبتها. وبأثر المشاعر التي انتابتني نهضتُ ممسكًا بالدفتر، وأنا أتجول بعيني في أرجاء العربة بحثًا عن ذكرى. ومن تأثير كلماته التي كنت أقرأها وأنا أتخيل صوتها رحت أنادي عليها.

t.me/qurssan

8

قالـت لي: أنـا مدينة لـك إذن بهـذا التصويـب في حكايتـك، فقد اصبحت الآن ملزمة بأن أحكي لك كل شيء كما أعرفه.

وقبل أن أرد قالت:

"كان ياما كان كنت وكان ما كان:

لنعـد إلـى رحلتـك من الجنـوب بصحبـة فاطمة التـي ترتدي زي الرجـال. كانـت خلال توقـف الدهبية في إحدى المـرات، قد ابتعدت حتـى بلغت الخلاء، فلما انتهت، لمحهـا الخواجة الذي كان قد خرج للخـلاء أيضًـا، ولكـن بـرأس مخمـور، اقترب منهـا وأدرك أنهـا أنثى تتخفـى فـي هيئة رجـل، حاول نـزع العمامة التـي تلفها حول رأسـها، لكنهـا قاومته، فلما أصـر صفعته وفرّت هاربة، فأثـاره الأمر ولحق بها وهجـم عليهـا يحـاول أن يواقعها. فإذا بهما يسـمعان عـواءً عجيبًا من مكانٍ خفيّ، ولن يعرف أحد منهما أمر الذيب الذي كان لايزال يتابعك بـدأب. وبلا مقدمات هاجم الذئب الأجنبي وكاد ينهشـه لولا ظهورك مـن قلب الظلام متتبعًا أصوات الصخب والعواء، وما إن رأيت الذئب حتى طلبت منه أن يهدأ.

t.me/qurssan

رمقت الخواجة بغضب، وطلبت منه العودة من حيث جاء، وقل
له إنك أنقذته من أنياب الذيب إكرامًا لكونه ضيفًا على بلادك، لم تفا
له إن خسّته ليس لها إلا القتل، ولكنك هربًا من شبح الدم قلت له إ
هذا فراق.

وأمسكت بيد فاطمة وغبتما في الظلام، وعاودت ساقك العط
غير المفهوم الذي جعلك تعرج مرة أخرى، بينما كان شطر القافيه
الثاني، صديقك الذئب، يعرج في سيره من مكان قريب، كما لو أنه
الحارس المكلّف بأمنك وبمن يرافقك.

تلقفكما الليل فقطعتما فيه طرقًا خطرة، بخطوات حذرة، حتى
بلغتما أقرب قرية بعد ليلتين. بحثتما عن السوق، ومشيتما فيه
كصديقين يبحثان عن طعام ومياه.

وإذ كان من الصعب استكمال المسير، عزمت على سرقة حمار
ضال، رأيتماه في الطريق، لم يُعرف له صاحب، وعلى ظهره خرجتما
من القرية مسرعين. ولم تنتبه لاختفاء الذئب، مشغولًا بفاطمة
وحكاياتها عن أهلها في قريتها النائية.

وقد بدا مثيرًا لاهتمام فاطمة أنها كلما حكت لك شيئًا عن مخاوفها
رحت تضحك باستهانة. تحكي لك عن عفريتة القرية، التي عادة ما
يشيع أنها تعيش في النهر، فتنتحي ليلا بعيدًا عنها، خالعًا جلبابك لتلقي
بنفسك في النهر. وإذا ردّدَت أنها تخشى البحر (تقصد بحر النيل) لأن
أحد أشقائها مات غرقًا فيه، فسرعان ما تعاود السباحة في النهر مرة

t.me/qurssan

أخرى. تحكي لك عن جنيّة البلد التي استوطنتها القرية قبل أن يسكنها البشر، كما حكت لها أمها، فتضحك بأعلى صوتك. يتلبسها الرعب من ضحكك من الجنيّة خوفًا من أن تسمع ضحكاتك وتنتقم منك. وعندما سألتها إن كانت قد رأتها من قبل، قالت لا يمكن أن يراها أحد، فإما أن يُسمع صريخها في الليل فيعلم أهل القرية أن موتًا وشيكًا سيحل على أحد أبناء القرية، أو أن تُسمع زغاريدها تتجلجل في ظلام الليل فيعرف أهل القرية أنّها تبشرهم بأفراح قريبة. وبعدما انتهت أخذت تعوي كما لو كنت تنادي على صديقك الذئب. فشرعَتْ فاطمة، تتمتم في ذعر، ما تحفظه من آيات القرآن دفعًا للشر والأذى الذي رأتك تناديه.

قالت لك إنها ملّت من زيارات الثأر التي تقوم بها أمها وعماتها وخالاتها يوميًا في بيت من بيوت أصحاب الدم ليأخذن بخاطرهم حتى يرفع الله ويؤخذ الثأر أو يحدث الصلح، ويتسلم أهل القتيل الكفن، من عائلة القاتل، إذا وافق أهل القتيل على العفو لوجه الله. قالت إنها تحمد الله أنها ليست صبيًا لأنها بذلك نجت من التورط في الدم.

وأملًا في القضاء على الملل من طول الطريق سألت فاطمة عما أحبته في القرية فقالت إنها كانت تشعر ببهجة تزقزق في روحها حين تبدأ طقوس الاحتفال بعرس، خصوصًا عندما تشارك أمها صنع الكعك أو الحلوى في ليالي الحنّة والزفاف. وأردفت أنها عدا ذلك لم تر في بلدتها إلا الشقاء ولم تسمع سوى العويل على الموتى.

طال صمتك فقالت إنها حزينة على أمها التي تقبلت زواج أبيها عليها، ووقفت بجواره في مرضه رغم ذلك.

t.me/qurssan

قالت إنها تريد أن تعيش حياة أخرى. وشردت قليلًا ثم عبّرت عن دار في بالِها بقولها لعل الله لن يكتب لي أبدًا أن أكون هانمًا، ولعل حظي لن يتيح إلا أن يشتريني ثري من أثرياء البلاد، ولن أبالي. طالما سيعاملني كامرأة. قالت إنها ملّت من ارتداء جلباب الرجال، وتريد أن تعيش كامرأة. قالت: تمنيت لو أنهم طلبوا عوني لهم أيًا كانت المشقة ولكن بكوني فتاة، لا أضطر لارتداء جلباب كالرجال، لرضيت، ولما هربت منهم.

كان كلامها غريبًا لدرجة جعلتك تتأمل عينيها فيما تجلسان أمام النهر بجوار شجرة بلغتماها بحلول الليل فكانت موضعًا لستركما حتى يطلع الفجر.

وما بين ليل ونهار، وشروق وغروب، كان الحمار يقطع بكما الطريق من قرية إلى أخرى حتى بلغتما طريقًا طويلة بين الجبال وكنت تخشى أن يخر الحمار واقعًا من التعب قبل أن يكمل الطريق.

ولم يقطع الصمت الذي حل بينكما في تلك الليلة إلا صوت جلبة مباغتة أخذت تقترب منكما، من دون أن تتمكنا من إدراك مصدرها. وتلبس فاطمة إحساس شديد بالخوف، إذ ظنت أن جنيّة القرية قد جاءت خلفها حين علمت بهروبها من القرية، بينما رحت تتلفت حولك متتبعا أصوات القادمين، ثم أوقفت الحمار ووثبت متأهبًا وقتما لاح لك من بعيد أشباح أربعة رجال على الخيل، كانوا

t.me/qurssan

... بون منكما في حماس ومن دون وجل أو تردد. ورغم وقوفك
... م وسؤالهم عما يبتغون فقد باغتوك بهجوم بالنبابيت لم يسبقه
... م. ورغم قوة بدنك والجهد الذي بذلته في الدفاع عن فاطمة وعن
... سك، ولكن الكثرة انتصرت على الشجاعة، وانتهى بكما مقيدين
... ظهر فرس اقتيد بكما صوب جبل قريب.

بقيتما في مغارة جبلية معتمة، ليوم كامل لم يفهم أي منكما خلاله
... يجري حولكما. وفي نهاية الليلة الثانية عرفتما أن عصابة الجبل من
... ارقين على الحكومة وسلطات القرية التقليدية ظنّا بأنكما ابنا عمدة
... دى القرى، أرادوا أن يساوموه على محصول أرضه باختطاف ابنيه،
... سطررت أن تكشف هوية فاطمة وتخبرهم بأنهما ليسا المقصودين،
... عمت لهما أنك وشقيقتك في طريقكما إلى القاهرة لأجل اللحاق
... مكما المريضة هناك.

ورغم ذلك حاول اللصوص أن يبقوكما لديهم حتى يصلوا لأهلكما للحصول على فدية؛ لولا ظهور الذئب مرة أخرى متدخلًا لإنقاذكما، ومانحًا الفرصة لكي تتمكن أنت من سلب اللصوص أحد خيولهم، لوثب بكما إلى الطريق مبتعدًا عن الجبال وقطاع الطريق.

كانت رحلة طويلة، لكن الفرس كان قويًا، قطع المزارع المتلاحقة بيسر، كاشفًا قدرته على الهرب بكما للاختباء، إذا صادفتما الهجانة، ممن كانوا يجوبون القرى بحثًا عن عمال للسخرة أو للتجنيد في الجهادية. وقد استضافتكم بيوت للطيبين، وطاردكم قطاع طرق ومجرمون. حتى بلغتما أخيرًا قرية قرب المنيا، فأطلقتما الفرس، وانتظرتما قاربًا يبلغ بكما الباقي من الطريق حتى مرسى بولاق".

t.me/qurssan

9

لأول مرة تتوقف زرقاء عن الحكي، وتطلب مني أن أساعدها في الذهاب إلى الحمام. نهضت وأسرعت لأحملها، حتى بلغت بها الحمام، وأخبرتني بأنها ستحتاج لعصا أسفل الأريكة في مقصورتها وعدت بها إليها بسرعة، وتركتها في الحمام.

تنفست الصعداء، فها هي أخيرًا قد أبدت رضاها عني، وصوّبت ما كانت قد أغفلته في حكايتي، والآن أصبحتُ أخيرًا موضع ثقة واطمئنان.

لعل رسالة ذكرى التي توصلت إليها هي السبب في هذا كله. فقد دفعتني لبذل كل طاقتي لكي أحرر نفسي من سجن العربة التي حُبست بها.

كان الأمر قد استغرق مني عدّة ساعات لكي أخلع ذراع أحد المقاعد، ومثلها لكي أخلع ذراعًا أخرى. ومع ذلك ورغم إحساسي بالتعب، لم أنتظر، ذهبت إلى الباب، وبدأت في البداية أطرق عليه أملًا في أن يفتح لي أحد ممن يأتون بالطعام خلسة، ولا يزورونني إلا في ساعات نومي. ومهما بقيت مستيقظًا بقوا أشباحًا لا يمكن أن

t.me/qurssan

ظهروا. توسلت إليهم أن يأتوا ليفتحوا الباب. صرخت موضحًا أنني أريد أن أتحدث إلى زرقاء، وأنني لن أهدأ حتى يسمحوا لي بذلك، وإذا اقتضى الأمر فسوف أكسر الباب بأي وسيلة.

منحتهم فرصة لكي يتشاوروا في الأمر، قلت لا شكّ إن هذا أمرٌ لا بد أن يحصلوا على موافقة زرقاء عليه، ولكنهم لم يردوا عليّ الجواب، لم ينفتح الباب، ولم يظهر لي منهم أحد، فبدأت في محاولة معالجة الباب، خلّصتُ إحدى الذراعين من الكساء الجلدي حولها، ولم تغب كلمات ذكرى التي كتبتها في الرسالة عن خيالي لحظة. "نحن نموت هناك لنعيش هنا".

ولم أفلح في كسر زجاج الباب، لكني نجحت في خلخلة ذراع استغرقت منّي جهدًا ووقتًا طويلًا حتى تمكنت منه.

عندما خرجت من العربة في هذه اللحظة شعرت بشعور مدهش، كأنني تحررت من قبضة ثقيلة على قلبي. توجهت صوب زرقاء، وقبل أن تنتبه جلست على الأرض بجوارها وأمسكت يدها ولثمتها.

سَحَبَتْ يدها بعنف، لكني عدتُ أمسك بها، برقة وإلحاح ورجاء، طلبت منها أن تسامحني، وقلت لها إن الخواطر التي تخطر في بالنا هي هواجس، تتجول في عقلنا بلا رادع، والنيات لا علاقة لها بالأفعال. قلت لها إنني لا يمكن أن أتسبب لها في أي أذى. وإنني أقدّر ما أخبرتني به عن أَنَسْ: ابنها، وأن الأمر قد مسّ قلبي وكفيل بأن يجعلني متعاطفًا معها للأبد. قلت لها إنني فهمت أشياء كثيرة وقررت أن أبقى بجوارها معاونًا لها بدلًا من توءمها، ورهن إشارتها.

t.me/qurssan

تأملتها، فرأيتها تحدّق في سقف المقصورة، لم تنزع كفها من يدي هذه المرة، لكنها لم تنطق بحرف، ولم تتحرك من مكانها. وبعد فترة هزّت رأسها بتفهم، وطلبت مني أن أجلس قريبًا منها. ولاحظت إصبعها تتسلل من خلف نظارتها لتمسح دمعة قمعتها بحسم. وطلبت مني أن أمهلها بعض الوقت حتى تستعيد الحكاية. وحين بدأت في الحكي اعتذرت عن إغفالها جانبًا منها وانتهت إلى ما أخبرتني به.

رحت أتحرك في العربة جيئةً وذهابًا وأنا لا أعرف ما ينبغي عليّ فعله. هل أطرق باب الحمام لأسألها إن كانت تحتاج إلى مساعدة؟ أم يكفي أن أبقى في الجوار حتى تناديني هي؟

حاصرني شعور بالذنب. لم أدرك أبدًا حجم المأساة التي تعيشها هذه المرأة. لم يشغلني تمثل معاناتها. كنت منشغلًا بذاتي، فلم أر إلا الجانب السلطوي لها. بينما هي في حقيقة الأمر حبيسة قدر عجيب لا أعرف عنه شيئًا، قدّر لها أن تبقى ممدّدة في قطار لتقرأ نصوصًا متعاقبة ليلًا ونهارًا، بينما لا تملك رفاهية النهوض لكي تقضي حاجتها لأنها لا تبصر، ولا تستطيع المشي من دون مساعدة.

لم أحاول الإنصات لأي أحد ممن التقيته في هذا القطار. لم أكن مشغولًا إلا بذاكرتي اللعينة الضائعة متجاهلًا أقدار بشر اجتمعوا معي في نفس الظروف، لكن أحدًا منهم لم يشك أو يصرخ كالأطفال كما فعلت أنا باستمرار.

بعد مرور فترة من الوقت ذهبت إليها، فطلبت مني أن أفتح الباب. وخرجتْ وقد بدت أكثر حيوية، فحملتها، بينما أبقت عصاها في يدها،

t.me/qurssan

كطفلة تتشبث بلعبتها، ولم تقل شيئًا حتى عادت إلى الأريكة. شعرتُ بجسدها باردًا، فسألتها إن كانت تود أن أغطيها بأي غطاء، فشكرتني وقالت لي إنها تعاني من حساسية عجيبة، ولا تطيق أن يلمس جسدها أي نسيج من أي نوع. ولهذا تعيش عارية كما أراها دومًا.

سألتني عن يدي، فقلت لها إنني أفضل حالًا بكثير، وإن الألم قد زال تقريبًا.

رفضت أن تتناول الطعام، وقالت إنها مضطرة أن تقرأ قليلًا لأنها توقفت فترة طويلة، وأنها بعد فترة من القراءة سوف تستكمل ما تحكيه.

والحقيقة أنني كنت أشعر بما يشبه الخدر في جسدي. غالبًا بسبب الهدوء بعد القلق النفسي الشديد الذي عانيت منه الفترة الماضية. وشعرت بأن أفضل ما يمكن أن أفعله الآن هو النوم لفترة حتى تنتهي فترة القراءة التي ستقررها زرقاء. قلت لها إنني سأخرج من المقصورة قليلًا، فهزت رأسها واستكملت قراءتها كالعادة. ولفني شعور بالسكينة لأنها استعادت طبيعتها.

t.me/qurssan

10

قالت زرقاء:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان. وإذ بلغت بولاق وغابت فاطمة عن عينيك، غدوت وحيدا، واستقبلتك المحروسة بعجائب البشر، بقيت تتعثر في وحدتك، طلبًا للرزق والمأوى، وعملت شيّالًا بغية أن تضع قدميك على الأرض الجديدة، على أمل أن ترى أفقًا جديدًا. وقد حسم أمر شتاتك بحثًا عن حرفة ترتزق منها مرور موكب عجيب، لرجل غريب المظهر، بشعر أسود حالك طويل، يرتدي قميصًا أبيض واسعًا، بنصف كم يكشف عن ذراعين قويتين لرجل رياضي، وسروال أبيض. كان رداؤه نظيفًا بشكل لافت، وشعره معتنى به، ووجهه نضرًا. بدا غريبًا بين الوجوه التي أحاطت به. وجوهٌ لوّحتها الشمس واعتلاها الغبار وانتشرت بها البقع لسوء التغذية.

ساروا خلفه جميعًا، كركبٍ في قافلة. صبية وفتيان في جلابيب رمادية وسوداء وبُنيّة، اعتمروا طاقيّات صغيرة بيضاء، غير أن القذارة والإهمال جعلاها بلون السمن أو سكر البنجر، وأغلبهم حفاة. ولم يؤثر ذلك على بساطة ملامحهم وابتساماتهم التي لا يعرف منها المرء،

t.me/qurssan

انسعدهم حقًّا رؤية الغريب أم أنها ستار يخفون به مطامعهم لما يتمنون أن يجود به عليهم؟ وقد لاحت على وجهه ملامح اليسر والرخاء.

سرتَ بينهم وعندما سألوك عن اسمك كدت أن تقول لهم "حامد"، وإنك جئت في رحلة بعيدة من المقبرة، لكن خاطرًا جعلك تقرر أن تعدّ نفسك مولودًا جديدًا في حياةٍ جديدة فأسميت نفسك محمودًا، وهو الاسم الذي ستُعرف به في أرض المحروسة: "محمود الوهم".

كنت تمشي بينهم من دون أن يبدو على وجهك سوى بعض الفضول. بعد أيام قليلة من النوم في حوش قريب من ميناء بولاق حيث عملت شيّالًا للبضائع والأجولة بين المراكب والعربات الواقفة أو الحمير. فلما انكسر ظهرك، مشيت حتى زقاق قريب من مقام سيدنا الحسين، لاح لك آمنًا وهادئًا.

رأيت الرجل ذا الشعر الأسود الطويل فتعلق به نظرك، كما تعلق به الجميع، لأنه لم يكن مثل الأجانب الآخرين، من أصحاب الشقرة والوجوه الحمراء الذين عادة ما يُحسبون إما على الإنجليز أو الفرنسيين، فيخشاهم الناس تحسُّبًا لأن يكونوا من أصحاب السلطة، وإن كانوا يرون فيهم أملًا يخلصهم من ظلم الأتراك ومن تبقى من الشراكسة.

كان لهذا الأجنبي مظهر شرقي، بلحية كثّة وشعر أسود ثقيل لامع وطويل. بدا متجهما، لكن بإمكان أي راء متأمل أن يلمح نبلًا في عينيه، أما أنت فقد حدست بأنه ربما يكون زائرًا لآل البيت. لعله جاء من بلاد

t.me/qurssan

الأتـراك أو بلاد فارس التي حكت لـك عنها جدتك أيضًا حكايات من ألـف ليلـة، أو لعله من أي بلد شـرقي آخر. ومن بين الزحـام والوجوه العديـدة تعلقـت عينـاك بصبي يرتـدي جلبابًـا أخفى قذارتـه بجاكيت مهلهـل يعلـو الجلباب، واعتمر طربوشًـا مهترئًا أعلى رأسـه، ويحمل عصـا غاب طويلة تنتهي بمجمرة صغيرة يسـير بهـا خلف الرجل، ولم تفهم هل "الشـيبُك"، كما سـمعت اسـمه من ريّـس المركب، تخص الأجنبـي ويحملهـا لـه الفتى حتـى يقتعد مكانـا يمكن لـه التدخين فيه بهدوء؟ أم أنه مجرد صبي مقهى يطوف على الزبائن المحتملين ورأى في الرجل هدفًا جيدًا يمكن له أن ينال منه قروشًا صعبة المنال.

لم تكن "الشيبُك" منتشرة في القرية التي جئت منها. فلم تعرف بها من سبل التدخين سوى لف السجائر، وقلة ممن عرفوا بتدخين الجوزة. وصحيح أنك رأيـت النوتيّ يدخنها في الدهبية بصحبة الأجنبي أيضًا، لكنك تصورت أنها غليون يشبه غليون الأجنبي.

أعجبتـك هيئة الآلة العجيبـة التي تتكون من عصا نحيلة من قصب الغـاب طويلـة تنتهي بمجمـرة صغيرة يوضع بها التبـغ وتوقد. لم تكن راغبًـا فـي تدخينها بل تمنيـت أن تجد من يصنعونها لكـي تنضم لهم، فقـد عرفت من فاطمة كيف كانت السـيدة الأجنبية التي زارتها بصحبة صديقتها شفيقة، تتحدث باحترام عن أصحاب الحرف.

ولأنـك اتخـذت قـرارًا بـأن تهجـر كل علاقـة بمـا يفعلـه أهلـك وخصوصاً زراعـة الأرض، فقد وجدت في "الشـيبُك" غواية جعلتك

t.me/qurssan

رافبًا في تعلم صناعتها، ولهذا لاحقت الأجنبي الذي كان يسير باحثًا عن مقصده الغامض، وهو يتلفت بين كل زقاق وآخر، كمن يبحث عن شيء لا يعرفه سواه، لكنه لا يسأل أو يستفسر، إذ يبدو بملامح وجهه المترفعة عمن حوله كمن يعلم كل شيء. ومن خلفه الصبية الذين يحلمون ببارات أو قروش قليلة مقابل ما قد يقدمونه للأجنبي، بينما لم تبدر منه هو التفاتة إلى أي منهم، كما لو أنهم مجرد أشباح. لم يكن يعنيك أمر الرجل الأنيق صاحب العطر الفوّاح، بل الصبي الذي يحمل له "الشيبُك"، أملًا أن تعرف منه مصدر توريدها، فلعلك بذلك تجد فرصة عمل محترمة.

في صباح اليوم التالي وقفت داخل دكان معتم تتعلق على جدرانه نماذج منها، غلايين بدائية تتنوع أطوال الساق التي يمر بها الدخان، ورحت تراقب الصبية والعمال المهرة الذين يتفنون في صناعتها. رآك شاب من المارة، لاحظ أنك غريب فسألك: تريد أن تدخن؟ أتريد شراء واحدة؟ أأرسلك صاحب المقهى؟ فهززت رأسك بالإيجاب. تأملك الفتى قليلًا وقال: هل تملك ثمنها؟ فنفيت.

كان الصبي قد أدرك بفطنته أنك لست إلا ريفيًا قدمت لتوك إلى المحروسة، فسألك وتقصى، حتى عرف غايتك. فنصحك قائلًا إن رغبت في تعلم الصنعة فعليك أن تتدرب على يد أحد مساعدي الأسطى، مقابل طعامك، وربما يوفر لك فرشة في ورشته أيضًا. ثم تأمل وجهك قليلًا، وتوسم ما جعله يقول: اسمع، في النجارة تخصصات كثيرة يمكنك أن تكون نجّار سواقي، أو مراكب أو حتى

t.me/qurssan

نجـار موبيليا. وشـعرت بالطـرب. فقد كنت ترغب فـي وداع ماضيك كلـه، الأرض والفلاحـة والقطـن والنخيـل. ففـي قـرارة نفسـك تعلم الشـقاء الذي عانى منه أهلك بسبب المُلّاك الإقطاعيين الذين يؤجرون الأرض للفلاحيـن ويحصلـون على كامل المحصـول إلا قليلًا، ولولا جدّتك وتدبيرها ما عشـتم في نعم ما كانت تربيه من دواجن وماشية، ولا انتبهتم لإصرارها أن يُخصّص قيراط من الأرض لزراعة القمح من أجـل الخبيز، ولولاها لعرفتم الجوع مثل كثيـر من جيرانكم وأهلكم، وما مشـي أبوك فـي القرية كأنه شـيخ الخفراء، لأنه مـن القلائل الذين عُرفوا بأنهم من المستورين.

والأهـم من هذا كله أنك أردت اجتناب البطالة، حتى لا تنقطع بك سبل العيش فتجد نفسك مضطرًا للسطو على مقدرات الآخرين.

اسـتدعيت المشـربيات التي خطفت عينيك وأفقدتك صوابك منذ وضعت قدميك في شوارع مصر المحروسة، وسألت الشاب بجوارك: هل يمكنني أن أتعلم صناعة المشربيات؟

تأملك الفتى مبتسـمًا وقال إن كل شـيء ممكن، ثم سألك إذا كنت حقًـا راغبًـا فـي تعلـم الخراطـة؟ وأردف قوله: هـذه تحتـاج مهارات ويقتضي تعلمها تدريبًا وتعبًا. ثم كمن تذكر شـيئًا قال إن زميلًا له اليوم سوف يتقلد حزام الانتقال من صبي إلى عريف خراطة، ودعاك لحضور المراسـم، فشكرته وأنت تشـعر بالإثارة، فلم تكن تفهم بالضبط معنى المراسم ولا الفرق بين الصبي والعريف.

t.me/qurssan

ثم إنك تنقلت بين ربوع خان الخليلي وشارع المعز، تراقب عمل الطوائف المختلفة كمن يمنح لنفسه فرصة أن يتعرف على حِرَفٍ لا يعلم عنها شيئًا، وقد يكون بينها ما يناسبه أكثر من غيره.

مررت على الصاغة، وراقبت العاملين في ورش صهر الذهب والفضّة. فبدا أمرًا صعبًا لا يخلو من التعقيد. كما لاحظت أن غالبية من يمارسون الحرفة في الورش "جريج". وشاهدت عمال النحاس، وراقبت الخياطين. فأدركت أن المنطقة ليست سوقا فقط، بل معملًا كبيرًا لإنتاج كل شيء.

وبعيدًا عن الشوارع الكبيرة التي كانت ممرًّا للبشر والحمير والجمال التي ينتقل بواسطتها زوار المكان، قررت الانتقال إلى الأزقة الداخلية والتي تضم الورش المختلفة.

فتشت عن ورش النجارة بشكل خاص، ربما ليطمئن قلبك لصحة اختيارك. فقد كان أحد أسباب نفورك من موسم القطن في القرية إصابتك بحساسية الصدر التي عانيت منها بسبب زغب القطن، وقد خشيت أن يكون للنجارة أمراضها، لكنك لاحظت همّة العاملين نشرًا أو قطعًا للأخشاب، أو تعشيقاً لها أو طرقاً لأجزائها بالمسامير. حتى بلغت أخيرًا ورشة لخراطة الخشب. وأدركت أن الخراطين يعشّقون الأخشاب في بعضها بعد أن تأخذ أشكالا دقيقة جدًّا، لتتشكل منها لوحات خشبية تتجاور وتتلاصق بهندسة خاصة لتشكّل جسد المشربية.

t.me/qurssan

وفي نفس تلك الليلة، وجدت نفسك مرميًّا على فَرشةٍ من القش مُغطاة بكسوة من الصوف، وألقى بها في ركن من طابق علوي لورشة الخراطة التي قَبِل المعلم حسن أن تتلقى فيها تدريبًا على يده بشرط الاختبار أولًا لثلاثة أيام، فإن لم يجد فيك الاستعداد اللازم صرفك.

وجدت في الانتماء لطائفة الخراطين، بعدما سمعت من أحد الصبيان عن طوائف الحرفيين، ما أشعرك بالطمأنينة. أدركت أنك بتخليك عن العائلة لست إلا فردا لا سند له ولا ظهر. صرت موضعًا للافتراس لأنك بلا عائلة أو قبيلة. حتى لو كان ذلك اختيارك، وهو ما جعلك تُقبل على العمل بحماسٍ لافت، اكتسبت به ثقة الجميع بسرعة. ومن ثمّ اجتزت اختبار الأيام الثلاثة بسهولة.

أعطاك مسعد الذي تولى تدريبك مصباحًا زيتيًا، وقُلّة من الفخار امتلأت بالمياه، وأخبرك بموضع زير المياه، وزودك برغيفين من الخبز وورقة بها قطعة جبن، وطماطم.

شعرت بالأمان أخيرًا، خصوصًا بعدما لاحظت خلو المكان من البراغيث التي كانت تتكاثر على جسمك في القرية، والتي بسببها عانيت خلال رحلتك الطويلة من أسوان إلى المحروسة ولا تجد في بعض الأحيان حلًّا إلا أن تخلع جلبابك وتلقي بنفسك عاريًا في المياه لتتخلص منها إذا تكاثرت من حولك، وهو الأمر الذي تعلمه منك الخواجة على القارب.

t.me/qurssan

وبالرغم من إحساسك بالغربة، لكنك تغلبت عليه مؤكدًا أن أي مكان سيكون أكثر أمنًا لك من النوم في مقبرة، ساخرًا مما فعلته بك جدّتك. ولعلك بعد هذه الرحلة الطويلة افتقدت روائح الخبيز، والمعجين، وزِلَع المِشّ والجبن القديم، ووجبات الأعياد والأعراس التي كانت تفيض بالدوا-جن والبط. لكنك تنهدت وقلت ما معنى الشبع في حياة تخطو فيها حاملًا كفنك؟".

t.me/qurssan

11

كنتُ أعلم أنها كلّما حكت لي فصلًا كهذا من فصول حياتي، تتوقف عن الاسترسال بعدها لفترة. وفي الأثناء أستعيد التفاصيل مرارًا، حتى أتأكد أنني حفظتها. ثم قررت تدوين فصول الحكاية حتى لا تضيع التفاصيل.

في استعادتي لما تحكيه تيقنت من أن إصرارها أن تحكي الحكايه بضمير المخاطب يدفعني لأصدق كل حرف مما تقول، وأعيد خلق صورتي عن نفسي. لم تعد لديّ رغبة في العناد أو إضاعة الوقت، خصوصًا أن وقتًا طويلًا كان يمر بين فصل وآخر من الحكاية، إما لأنها لا يمكنها التوقف طويلًا عن القراءة، أو لأنها كذلك تتعرض لحالات من الإنهاك التي تجعلها تطلب مني القراءة بدلًا عنها، إضافة لساعات كانت تتوقف فيها مرغمة لتناول الطعام أو الذهاب للحمام أو للاستحمام.

وقد شعرتْ بصدق إخلاصي في مساعدتها بكل طاقتي على إعداد طعامها، وعلى تنقلها من أي مكان لأي مكان، وتلبية ما تحتاج إليه.

اشتدّ عليها التعب مرة، فطلبت مني مساعدتها في الانتقال إلى غرفة نومها. ولأني لا أعرف لها غرفة نوم أخرى فقد سألتها، فأخبرتني

t.me/qurssan

، ي موقعها، واكتشفت أنها نفس الغرفة التي تقع بعد عربة الحفل، ، التي تحولت إلى غرفة نوم فاخرة. قالت إنها كل عدّة أيام تحتاج لنوم ، مبق حتى تسترد طاقتها وتركيزها. وطالبتني بالقراءة المستمرة من ، انها خلال الليلة التي ستقضيها في غرفتها.

وضعتها على فراشها، وتمددت عارية. تمنيت أن أغتنم الفرصة لأسألها عن ذكرى، باعتبار أنها في إجازة فرضتها على نفسها من القراءة، لكنها لم تمنحني الفرصة إذ تتعجل عودتي بسرعة إلى المقصورة والقراءة بدلًا منها، فأمضي مرتبكًا وأهرول، مارًا بكل العربات وبينها الحفل، حريصًا على النظر في الأرض، لا ألتفت لأي كان. فمازال الشعور بالعار مما فعلته وبالأذى الذي تسببت فيه لإلهام يلاحقني. كبحت رغبتي في البحث عنها تجنبًا لأي مفاجآت قد لا يُحمد عقباها. وإن كنت على يقين من أنهم فهموا أنني قد نلت عقابي، وأن وجودي في ذلك العبور المفاجئ لعربة الحفل، يحدث بمباركة قارئة القطار.

أعود للمقصورة وأنتزع الكتاب من حيث تركته، وأغادر إلى المكتبة، ففيها أرائك مريحة وثيرة، وأجواؤها تبث الرغبة في القراءة المستمرة أكثر من غيرها. لكنني كنت ألتزم تمامًا بما تطلب مني قراءته، وأرفع صوتي بما أقرأ حتى لا أشرد، وحتى لا تستغرقني الأفكار.

أقرأ بلا توقف. أنتقل من أريكة لأخرى، أو أبدل من وضعي من التمدد إلى الجلوس، أو الوقوف أحيانًا، أو أتمشى جيئةً وذهابًا من

t.me/qurssan

دون أن أرفع عينيّ عن الكتاب بحيث أقرأ لأطول وقت ممكن. ثم بدأت أتساءل عما يعنيه لها كل ما تقرأه. هي تقرأه ببصيرتها، فهل تتأمل المعاني؟ هل يستوقفها معنى ملتبس أو دلالة ملغزة ما؟ أم أنها تقرأ بعينيها ولسانها فقط؟

لكني عدت لتذكير نفسي: "لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم" لقد أصبحتُ في غنى عن هذا كله. وفي قلبي عميقًا كنتُ أشعر بالغبطة من مساعدتي لها. لم أختبر هذه المشاعر منذ وصلت القطار. كأنني رفعتُ ستارًا كان قد أسدل أمام ضميري فأعماني إلا عن فكرة البحث عن نفسي على حساب كل الآخرين.

في فترات انشغالي بالقراءة عنها أفتقد فرصة تدوين قصتي، فلم أكن لأسمح لنفسي بالتوقف عن القراءة، فإذا غالبني النعاس بدأت بالقراءة مشيًا، وإذا ما استغرقني الكتاب فإني أغيب عن كل شيء من حولي، وأنتقل إلى الكلمات والأفكار وأتماهى معها حتى أنفصل تمامًا عن عالم القطار. وأحسست بأن هذا ما يحدث لهذه المرأة فيما يبدو، فهي غائبة عما يدور في عالم القطار بالسفر المستمر في عوالم ما تقرأ، ولعل هذا ما يجعلها تحتمل الأمر.

لكني طلبت منها بعد أن انتهت الهدنة التي فرضتها على نفسها أن تحكي لي حكايتي كما لو أنها تخص شخصًا غائبًا. ولم تعارض الأمر. بل قبلته برحابة صدر، ولكن ذلك بطبيعة الحال لم يبدأ إلا بعد فترة قراءة يجب أن تقوم بها كالعادة.

t.me/qurssan

12

قالت قارئة القطار:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان..

جاءتـه جدّته فـي المنـام، عاتبة، رآهـا بوجهها المغضـن، الذي فعلت فيه السنون فعلها. راحت تعدد عدّودة موت لم يتذكرها جيدًا حين اسـتيقظ، لكنه عرفهـا في الحلم، وانقبض لها قلبـه. لم يبادلها ما كان يحسـه مـن غضب، واكتفـى بالنظر بعيدًا كمن يشـعر بالإثم والخـزي. وفي الصباح لم يكن ذلـك الحلم أول ما تذكره لأنه حلم أيضًـا بفاطمـة، وقـد راودته في منامـه برؤيتها في حـارة من حارات لا أصـل لهـا فـي الواقع، وسـار خلفها. تتوقف فتبتسـم له ثم تسـير فيتبعهـا، حتى وصل إلى زقاق مرقت إليه لكنهـا اختفت حين بلغه. وراح يركـض فـي الزقاق حتى تبين له أنه حارة سـد. ثم تذكر جدته فانقبض قلبه.

تأمل المكان حوله بعينين شبه مغمضتين من أثر النوم، وكان غبشًا للضوء يتسلل من مكان غامض يضيء المكان قليلًا. بينما التقطت أنفه رائحة نشارة خشب. وهو ما أصابه بدغدغة النشوة في صدره، إذ وضع

t.me/qurssan

قدمه على أولى خطوات احتراف صنعة ستجعل منه يوما "أسطى" محترمًا. وتبعد عنه شبح الموت سنوات أخرى.

قال إنه سيغير اسمه أيضًا، لكي يقطع كل صلة له ليس فقط بالقرية، بل وبالعائلة، وقرر أن ينهي علاقته باسمه القديم تمامًا، وراح يردد لنفسه اسمه الجديد حتى لا ينساه: محمود الوهم، فلم تكن له أوراق ثبوتية من الأساس، ولا يعرف حتى إذا ما كان أهله قد أصدروا له ما يثبت ميلاده، الذي مر عليه ما يزيد على 16 عامًا تقريبًا.

ولأنه لم يكن متأكدًا من وجود مياه في المكان، ولا يمكن أن يغتسل من مياه الزير، فقد غادر إلى المسجد القريب ليغتسل ويصلي، ثم خرج يفتش عن بائع فول قريب ومقهى يشرب فيه الشاي قبل أن يبدأ يومه الأول.

في الطريق وهو يتأمل المارة، على الحمير، أو الغادين على أقدامهم، تكشف له عالمًا أكبر كثيرًا من العالم الضيّق الذي كان يعيش فيه، محيطه لا يزيد عن الذهاب للمزارع، والمشاركة في أعمال الفلاحة، والري، وتفقد الماشية، والتي يذهب ناتجها لمالك الأرض، وبالفتات يعيش هو وأهله جميعًا، ويحاول كبير العائلة أن يدخر من هذا الفتات أيضًا ليؤكد سطوته ونفوذه.

في أيام الحصاد، حين يصبح لدى الجميع وقتٌ للسَمَر، لم يكن له ولرفاقه من أبناء عمومته وصبية الجيران إلا التجمع حول بئرٍ تجاورها طلمبة مياه كان يوفر مصدرًا إضافيًا للمياه. أو تسلق النخيل. أو البقاء

t.me/qurssan

بجوار الساقية إذا كانت الجاموسة مكلفة بالعمل وعليهم مراقبتها. حفلات الزفاف خصوصًا التي تخص العائلات الكبيرة في البلد كانت بالنسبة إليه مصدر سعادة لا حد لها، لمتعة مشاهدة الراقصين على الخيول والتحطيب. أما الأمسيات العادية فلا تمتد لما بعد صلاة العشاء، إذ تعتم القرية، فيسرع كلّ إلى داره، خوفًا من جنيّة القرية التي كانوا يعلمون جميعًا أنها تطوف حولهم ولا تظهر إلا ليلًا.

كان عالم مصر المحروسة يبدو حيويًّا أكثر، متنوع البشر، وربما مخيفًا أحيانًا بسبب ما سمعه عن النهابين والبلطجية، لكنه لم يكن يخشاهم. فقد كان له هَمّ واحد ألا يحول بينه وبين هدفه الوحيد أي شيء، حتى يصبح خرّاطًا يزهو بأن بيوتًا في الشوارع التي يمر بها تتغلّق نوافذها بمشربيات خشبية من خرط يديه.

وكان كل يوم يمر عليه في الحي العتيق المحيط بالمشهد الحسيني الذي يمثل قبلة القاهريين والريفيين على السواء للحصول على البركة، وبث النجوى والرجاء والدموع، والنذور، يُشعره بأنه يكتسب معرفة جديدة.

كانت القرية بهواجسها وعفاريتها وأشباحها تبتعد وتنأى عن خياله يومًا بعد آخر، باستثناء صورة أمه وصورة ستّه، فقد كانت صورة كل منهما الأكثر التصاقًا بذاكرته والأكثر احتلالًا لمخيلته. وباستثناء هاتين الصورتين وشبح ذكريات مرضه العضال، وعبق مما علق بذاكرته من روائح خبيز جدّته أو شذى الحقول، كان قد دفن ماضيه في المقبرة.

t.me/qurssan

في أيام الراحة الأسبوعية، لم يعدم وسائل ترفيه لم يتوقعها. ينتظر التجمعات التي تبدأ عقب انتهاء صلاة الجمعة، وبينما يبدأ المارة في التوافد على الأسواق لقضاء حوائجهم، أو على عربات الطعام، فإن أغلب الفتية والأطفال يتجمعون في الساحة القريبة من المسجد، انتظارًا للحاوي الذي يقدم فقرات سحرية أو فكاهية باستخدام ثلاثي القرد والحمار والعنزة.

وبسبب ألفة باعة المطاعم وبعض أبناء الكار له بعد تردده عليهم، بدأ يجد من يقدم له وجبة عشاء مجانية أحيانًا، وبينهم صاحب المسمط القريب الذي كان يبيع لأبناء الحي النوع الوحيد الممكن من اللحوم، مكوّنًا من كافة ألوان الأحشاء الداخلية للبقر والغنم مما يستغني عنه الجزارون الذين يوردون اللحوم لأثرياء المدينة أو الأجانب.

وقد علم أن ذلك بركة من بركات سيدنا الحسين، متذكرًا ما كانت ستُّه تردده عن بركات أهل البيت، كما سمعت عنها هي أيضًا. وشعر لأول مرة منذ وضع قدمه في أرض المحروسة بأنه يشتاق لجدّته، وتمنى لو كان بيده أن يتجول بها من مقام سيدنا الحسين إلى السيدة زينب، أم العواجز، وستّنا نفيسة وستّنا سكينة ومقام سيدنا زين العابدين. لكنه كان يكتفي بزيارته للمقامات المختلفة كلما سنحت له الفرصة، والدعاء لجدته بأن تُكتب لها هي أيضًا زيارتها بين ربوع أضرحة ومقامات آل البيت، والورشة، وساحات حي الحسين والغورية وصولًا لحي الخليفة حيث يقع ضريح السيدة نفيسة.

t.me/qurssan

اتسع العالم الجديد لمحمود الوهم الذي أثبت ولعًا وشغفًا بالخراطة ودق الخشب ونحته، أكسبه مهارة وضعته سريعًا في مكانة قريبة من الأسطى حسن الخراط، جعلته يحصل على إجازة سريعة في الحرفة، وبدء اكتساب رزقه.

ومع ذلك فقد ظل يراقب ويتأمل المهرة من الخراطين، ليجوّد الصنعة ويتقنها. يتعلم منهم كيفية الإمساك بمقبض المتلوتة، وكيفية الدق عليها بلا قوة زائدة ولا أقل مما تحتاج، وطريقة استخدام الضَفْرة بكل مقاساتها، ومتى يدق عليها بالدُقمة ومتى تحتاج لدفعات خفيفة من يده الأخرى ليخوّص سلاحها في الخشب مقشّرًا منه ما يبتغي وفق الرسم على الخشب، مّما جعله واحدًا من أقل من كلفوا الأسطى حسن خسائر من الخشب التالف بسبب أخطاء المتدربين. ومن حسن حظه أنه كان من بين أكثر المتدربين حرصًا على تجنب إصابات العمل في الخشب، فلم يتورم إصبعه بسبب دق خطأ، ولم يجرح نفسه بسلاح منشار أو أي آلة أخرى.

ولم يكن قد أخبر أحدًا بالفترات الطويلة التي قضاها يراقب الخراطين ليس في ورشة المعلم حسن فقط، بل وفي ورش أخرى قريبة في الغورية والنحاسين. كان يراقب ما يفعله النجّارون وما يستخدمونه مقابل ما ينتج عن ذلك سواء أكان نقشًا، أو تنحيفًا، أو دقًا لمسمار. إضافةً لمحاولته في تمييز أنواع الخشب ومعرفة الأجود والأنسب للخراطة من غيره.

t.me/qurssan

وبفضل قربه من آل البيت وكذلك لحياته قريبًا من المشهد الحسيني، كان يتجنب كل ما عُدّ في رأي شيخ الجامع الحسيني لهوًا، فإن رأى فتاة عرف من مشيتها خطرًا، غضّ بصره، وإن تودّد إليه زميل علم عنه حبه للمشي البطّال، اجتنبه.

لم يفتنه إلا الخشب، وأدواته، التي غدت طيّعة بين يديه، مثل المطرقة والإزميل، والمتلوتة، والشاكوش، والبرينو والخشخان والضفرة والسكين والمبرد والمقشطة وأدوات التنعيم.

بمرور الوقت اكتسب محمود الوهم سُمعة كبيرة بين الخرّاطين، حتى أن بعض الأهالي ممن كانوا يرغبون في تعليم أبنائهم الخراطة كانوا يلجأون إليه.

ولولا الكساد الذي أصاب الدولة العثمانية، لعرف من حرفته خيرًا كثيرًا، لكنه بفضلها تعرف على عائلة يونانية جاءت لأجل تصميم مشربية لبيت استأجروه في حارة الروم قريبًا من الغورية، وأبدت فتاة جميلة وشقراء إعجابًا بصنيعه، بل أصرت على حضوره للإشراف على تركيب المشربيّة بنفسه، حيث عرف مجتمعًا جديدًا يتحدث أفراده بالجريجي، ويرتدون أزياء عصرية نظيفة، وتفوح منهم روائح العطور، وقد جاءوا مع من جاءوا للحياة في باريز الشرق قبل أن يضع الخديوي إسماعيل مقاديرها في أيدي حكام بريطانيا بسبب ديونه المبذولة لتحقيق ذلك الحلم.

ولن تنقطع زيارات الفتاة الشقراء أو الخواجاية كما يناديها، عن ورشة الخراطة. وبسبب زياراتها للورشة وطلباتها ستعتاد قدماه على

t.me/qurssan

حارة الروم، وستغدو بالنسبة إليه مكانًا أليفًا، يزوره مرتين أسبوعيًّا حاملًا مشربية أو قطعة أثاث على عربة خصصها الأسطى لنقل بضاعتهم، وكثيرًا ما كان يقوم بعمله في حوش البناية أو أمام بابها؛ إذا اقتضى الأمر ذلك، فيكون العمل في المكان أسهل من تحميله ونقله للورشة.

ولأول مرة يشعر محمود الوهم بالتغير، بأن قلبه يخفق عند رؤية الشابة الشقراء التي كانت تنطق اللهجة المصرية بطريقة تبهجه وتسبب له مسرّة غامضة، وحين تظهر له في أحلامه يعرف أنه وقع في الحب الذي طالما حكت له عنه ستّه قصصًا كالأساطير.

وبالرغم من وقوعه في الحب فقد ظل متمسكًا بما قاله للخواجة وقتما دعاه لزيارة دور الهوى، عالمًا أنه ما ترك قريته البعيدة إلا لكي يتقن حرفة ويعيش بعيدًا عن المشاكل والدم. كان يعرف أن غرامه بأجنبية كفيل بأن يقلب حياته، ويعرضه لما قد لا تُحمد عُقباه، إضافةً لإدراكه أن فارقاً كبيرًا في التراث والثقافة والحياة يفصل بينه وبين الروم، وبين الخواجات في المجمل، فاكتفى بأحلام يقظته ليلًا في الغرفة التي استأجرها أعلى سطوح بيت في زقاق قريب من حي الحسين.

وحلّ الكساد الذي سيسمع عنه من الأسطى، وكبار تجار الخشب في جلساتهم على المقهى. ولن يهتم بالأمر في البداية، فمن جاء من الجنوب على ظهر حمار، لا يفهم معنى الكساد، فمثله لا يحتاج لأكثر من طعامه اليسير، وليس أيسر عليه من أن يجد ما يأكله، خصوصًا وأنه

t.me/qurssan

لـم يكـن ملتزمًا بإطعام أفـواه أخرى. فـلا عائلة له، ولا امـرأة وأطفالًا يجعلون من الكساد مأساة كتلك التي يتحدث عنها التجار.

لكنه لم يفهم أن اسـتمرار الكساد وتعطّل ورش النجارة يؤديان إلى تسـريح العمالـة. ظن أن الكسـاد مجرد كلمـة بعيدة لا تطالـه ولا تؤثر فيه. لكن أوهامه لم تسـتمر طويلًا؛ فقد شحّت أعمال الورش، واضطر أصحابها لتسـريح بعض الصنايعية، ولم تكن ورشـة الأسـطى حسـن استثناء.

في زمن الكساد تقل أرزاق الناس، ويزيد وقت الفراغ، وهو ما أسهم في توثيق علاقته بجورجي شـقيق الخواجايـة، والذي دعاه للعمل معه في معمل دخان، عندما حكى له مرة عن شغفه القديم بصناعة الشيبُك، ولكنه لم يتقبل العرض بعدما بلغه من مهارة في خراطة الخشب، مُخفيًا احتقاره لمهنة لفّ التبغ في لفافات حتى لو كان دخلها أعلى.

ولولا استمرار الكساد وتوقف طلب الناس من المصريين والأجانب معًا لأعمال الخراطة لربما طالت مقاومته لرفض عرض جورجي، لكنه حين ووجه بمطالبة إيجار غرفته المتأخر لأكثر من ثلاثة أشـهر قرر أن يقبـل ولو بشـكل مؤقت عـرض جورجي الذي اصطحبـه صباح اليوم التالـي إلـى ميدان الإسـماعيلية، فرأى مبنـى صغيرًا أنيقًا لـم يفهم أهو قصـر أم مصنع فأبلغه صاحبه بأنه كان قصرًا اشـتراه ثري يوناني وأهله لكي يكون معملًا للدخان".

t.me/qurssan

13

أحيانًا وبينما أنصت إلى زرقاء وهي مستغرقة في حكايتها لي عن نفسي، أتأملها حيث تتمدد على ظهرها، وقد خلعت نظارتها لتحدق بعينيها الشاردتين في سقف المقصورة. أتخيل أنها ذكرى، فتمر بروحي مشاعر مختلطة لا أعرف أهي الحنين لذكرى أم التعاطف والشفقة مع زرقاء؟ وسرعان ما أكبح تماديّ في الأفكار كي لا أفقد انتباهي لما تقول.

لكن الأهم أنني بدأت أشعر بالتماهي مع محمود الوهم، وأشعر بمشاعره، وأحيانًا أضع تكهناتي لما سيقوم به في موقف أو آخر. ولكني لم أرغب في كبح تدفق الحكاية كما ترويها زرقاء، أو في تشتيت ذهني بأفكار تفقدني التركيز في خط الحكاية. والمهم أن أستعيد كل ذلك فور أن تنتهي هي لكي أقوم بتدوينه.

لكن الأمر في النهاية استمر على النحو الذي يسير عليه، واستمرت تحكي لي حكايتي وفق المواقيت التي تحددها وتجد في نفسها الطاقة:

قالت زرقاء:

t.me/qurssan

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

وجد محمود الوهم نفسه بين الروم وبعض الإيطاليين، وقلة من أهل بلده، محاطًا برائحة التبغ التي لم يكن قد ائتلف معها بعد، وبوجوه حمراء وشباب شقر ورجال مخضرمين في صناعة التبغ، وبسواعد تتبارى في اللف بسرعة ومن دون أن تخطئ.

لم يفتقد محمود الوهم قريته لكنه افتقد حي الحسين، وصوت الدقات على الخشب ورائحته. افتقد صخب الباعة وملامح أهل الحي التي ألفها. ورغم بقائه مقيمًا في نفس الغرفة في الزقاق، إلا أنه كان يخرج في الفجر قبل أن يستيقظ أهل الحي، ويعود إليه بعد أن يغطوا جميعا في نوم عميق.

اتخذ مصنع جاناكليس للدخان، طابقًا من مبنى كان العمال يسمونه بالقصر. كان بناءً أنيقًا، محاطًا بالحدائق يتوسط ميدان الإسماعيلية، قريبًا من نهر النيل. حين رآه لأول مرة أبهره أن يغدو مكان عمله مبنى فخمًا مثل ذلك القصر. كان معمل الدخان في الطابق الثاني، ولم يكن مسموحًا للعاملين التواجد في الطابق الأول من المبنى، وعلم لاحقًا أن المبنى مؤجر من عائلة الخديو، فكاد أن يغشى عليه من شدة التأثر.

بدت له أولى خسائر العمل الجديد في اضطراره للاستيقاظ من الفجر لكي يمشي من حيث يقيم قريبًا من الحسين حتى ميدان الاسماعيلية، ليصل في وقت مبكر.

t.me/qurssan

ورغم سعادته بالعمل بين الأجانب، لكنه لم يجد لنفسه ما تمناه في المعمل، محاطًا برائحة التبغ المجفف، ومقصورًا دوره على لف السجائر بالمكائن التقليدية وقصها من الطرفين. لم يجد في الأمر ما يمكن أن يقارنه بالصنعة التي تعلمها، بالإضافة إلى الهاجس الذي تلبسه من احتمالية أن يكون العمل في مصنع السجائر حرام.

أخبره شيخ الجامع بأن العمل في الدخان مكروه، إن لم يكن محرمًا، وهو ما جعله يتردد في قبول دعوة جورجي لفترة. ولكنه تحت ضغط شح النقود اضطر لقبول العرض في النهاية. كان يعلم أن ما يحصل عليه يقل عما يحصل عليه الأجانب أي الروم كما يطلق عليهم أو الأرمن، ولا يقارن كل هذا بأجرة الخبراء الإنجليز الذين قيل إن صاحب المصنع يستعين بهم للحصول على مذاق إنجليزي لسجائر إكسترا فين، وزمزم.

لكن المقابل رغم ذلك كان مرضيًا لمحمود الوهم، وهكذا خلع الجلباب، وارتدى قميصًا إفرنجيًا وبنطلونًا كما طلب منه جورجي، وفي المصنع كان يخلع قميصه ويرتدي زي العمال المخصص للعمل في معامل الدخان.

وبعد أن بدأ العمل في المصنع اطمأن قلبه تدريجيًا لما يقوم به. وها هو يجاور مجموعة خواجات، ويسمع منهم أخبارًا لم يسمع بها قبلًا عن السلطنة العثمانية، وعن دورها في تشريد الأرمن، ففهم سبب توافد الكثير منهم إلى البلد، وانتشارهم في المصنع رغم أن أصحابه من الروم.

t.me/qurssan

كان في كل ذلك ما يجعله يحتمل الأمر، ورائحة التبغ، والساعات الطويلة للجلوس أمام كومة التبغ وورق اللف والقص. وقد رأى في التجربة مجالًا مختلفًا يتعلم كل يوم فيه جديدًا.

وفي يوم من الأيام، في أثناء رحلة العودة اليومية من ميدان الإسماعيلية، مرورًا بالعتبة، سمع صوتًا أنثويًا ينادي عليه، وخفق قلبه حتى أنه لم يلتفت حتى يتماسك قليلًا ويسيطر على توتره. فقد ميّز الصوت وعلم أنه لفاطمة.

توقف، وتأمل المارة من حوله، من دون أن يجد لها أثرًا، وفي النهاية اقتربت منه امرأة تتشح بالسواد، وأزاحت عن وجهها البرقع لكي يتعرف عليها، فلما اطمأنت لأنه ميّزها طلبت منه أن يسير خلفها، وعادت مرة أخرى باتجاه العتبة. سارت على الطريق الواسعة المتربة حتى بلغت حارة تراصت على جانبيها بنايات من طابق واحد لها نوافذ خشبية كبيرة مغلقة، وتعلو بعضها أبنية أصغر كغرف على الأسطح. توقفت أمام واحد منها، وأشارت له بأن يتبعها.

انتظر قليلًا، وسمع أذان المغرب من مؤذن المسجد القريب، وهو في طريقه للبناية فمد خطواته وبلغ المدخل. وجد سلمًا ضيقًا فصعد درجاته بحذر حيث أطبقت العتمة ولم تكن هناك إضاءة، وبعد أن وصل الطابق الأول أتاه صوتها مرة أخرى تتعجل صعوده لأعلى فأسرع من خطواته، ووجدها تنتظره على بَسْطة تواجه بابًا خشبيًّا متهالكًا، قادته إليه فوجد نفسه على السطح.

t.me/qurssan

هتف بها يسألها عن سبب اختفائها يوم وصولهما معًا للقاهرة، فأخبرته بأنها ستحكي له كل شيء، وأن الأفضل أن يدخل معها إلى غرفتها أولًا. نظر حوله متردّدًا، ولم ير أحدًا، فقالت له تشجعه: أنا أعيش هنا وحدي الآن.

فتحت الباب ودعته للدخول. طلب منها أن تسبقه وتُسرج نورا، فدخلت وبعد لحظات رأى إضاءة من سراج صغير، علقته على مسمار في أحد جدران الغرفة. دخل في تردد وحذر، وهو لا يعرف أين يضع عينيه في بيت تمتلكه امرأة تعيش بمفردها؟ لكنه تأمل المكان بنظرة سريعة مرتبكة، ولمح مرتبة صغيرة في ركن قصي، وإلى اليسار رأى طبلية خشبية عليها كوبان نحاسيان، وكنكة، وسبرتاية صغيرة، وعلى الأرض "وابور جاز" صغير.

أما بجوار الباب فقد وجد فرشة أخرى صغيرة كانت قد رفعتها على مصطبة خشبية كأنها أريكة، وأسندت خلفها مسندًا على الجدار. دعته للجلوس فجلس، ذهبت باتجاه الركن القصي وخلعت عباءتها والبرقع، وعادت بفستان عاري الكتفين لم يكن رأى مثله في القرية، فتعوّذ بالله من الشيطان، وأخفض عينيه للأرض. قالت له إنها ستعد له شايًا فلم يمانع. لاحظ أنها امتلأت قليلًا ولم تعد بنفس رشاقتها.

ومع أولى رشفات الشاي بدأ بينهما الحديث. طلبت أن تسمع منه أولًا، وهي تتأمل ملابسه الإفرنجية بدهشة، فحكى لها حكايته التي أنصتت إليها حتى علمت بعمله في مصنع الدخان فشهقت مذعورة،

t.me/qurssan

وهي تسأله عن الكيفية التي وافق بها على العمل في عمل حرام كصناعه الدخان؟

تأملها قليلًا وسألها عمن أخبرها بهذه التخاريف، فقالت إنها سمعتها من أبيها في البلد. لكنه أكد لها أنه تحقق من ذلك. حدجته بنظرة مستريبة، فعاد يؤكد لها أنه تعرف على مشايخ كبار في الأزهر وأفتوه. عاودت التحديق فيه بارتياب. لكنه غيّر الموضوع وسألها عن أحوالها، وسبب اختفائها يوم وصولهما لمصر.

قالت له إنها استعانت بصديقتها شفيقة، فأوصلتها برجل يوفر المخدومين للعائلات، سألها بارتياب:

- أيوفر خدمًا أم يبيعهم عبيدًا؟

هزّت رأسها بلا مبالاة، وقالت:

- ومن يهتم طالما سأعيش في بيت نظيف وجميل وأجد طعامًا وفرشة مريحة.

ثم أخذت تفكر لوهلة صامتة وقالت له إن الرجل لم يعرض عليها الذهاب إلى أي وكالة، بل رآها بنفسه وقال إنه سيوفر لها فرصة عمل لدى عائلة محترمة. وأضافت أن الرجل لم يكن كاذبًا، ففي اليوم التالي صحبها إلى فيلا تلك العائلة لتنضم لفريق الخدم. تخلت عن الملاءة وطلبت مديرة المنزل منها أن تستحم وترتدي زيًا كان مخصصًا لعاملات النظافة.

t.me/qurssan

أشار إلى ما ترتديه وسألها إذا كان هذا هو الزي المقصود؟ فضحكت بارتباك وقالت له إن أكبر بنات العائلة التي عملت لديهم أهدتها هذا الفستان.

لكنها عادت لتستدرك أن ارتداءها فستانًا كهذا لا يعكس طبيعة حياتها. قالت إن الأمر لم يكن متماثلًا مع ظروف العمل كما عاينته في بيت الخواجاية في الصعيد. فلما استوضحها قالت إن شفيقة كانت حرة الحركة، أعباءها قليلة نسبيًا، مما أتاح لها الفرصة لتعلم الكتابة والقراءة، والتقاط بعض الكلمات الفرنسية من تلك السيدة، أما في البيت الجديد فالحياة مختلفة، صارمة، تشرف عليه سيدة كبيرة في العمر، يقال إنها كانت مربية سيدة القصر، لها صلاحيات كبيرة، وتتحكم في كل شيء.

ومع ذلك فقد لفتت انتباه بعض أفراد العائلة الصغار؛ خصوصًا صغرى بنات العائلة التي رأت فيها رغبة سريعة في التعلم، وتهذيبًا جعلها تتحدث معها بين آن وآخر.

ظلت تحكي ومحمود يُنصت لها وهو يشعر بالإعجاب المتزايد، وكان يقارن بينها وبين "أمينيتا"، الخواجاية الرومية التي كان ينطق اسمها أمينة كما اعتقد في المرة الأولى التي سمعه منها.

لكنها توقفت عن الكلام فجأة فنظر إليها بقلق. استأذنت منه ثم انصرفت إلى الحمام، وتناهى لسمعه صوت سعال غريب، فنهض متوترًا، وبعد دقائق عادت وقالت إنها شعرت بمغص مفاجئ لكنها

t.me/qurssan

الآن أفضل، سألها إذا كان لديها كمّون لمغص البطن، فطالبته بألا يقلق وأكدت أنها وعكة بسيطة.

عاود الجلوس ثم شعر بتوترها، ولم يعرف ماذا يقول، خصوصًا أنه لم يفهم لماذا تعيش في هذه الشقة بمفردها؟ فسألها. قالت له إنها تعيش مع امرأتين أخريين ليتقاسمن الإيجار، ولكنهما سافرتا إلى البلد لزيارة أمهما المريضة. لم ينشغل بأمر المرأتين كثيرًا فقد كان مشغولًا بأمرها هي.

وقبل أن يسأل مرة أخرى قالت له إنها تركت العمل مع تلك الأسرة بسبب تسلط السيدة مديرة المنزل، وأنها تبحث عن عمل جديد، وطلبت منه ألا ينساها إذا علم عن توافر فرصة عمل لها.

كان يشعر بالقلق من وجوده معها في الشقة فأخبرها بأنه يرغب في رؤيتها، وأنه سيسأل لها عن فرصة عمل موضحًا لها أنه على صلة بمجموعة من الخواجات، فشكرته، واتفقا على أن يلتقيا مرة أخرى.

قالت له إنها تتمنى أن تزور مقامي سيدنا الحسين والسيدة زينب، فقال لها إنه يسعده أن يصحبها إلى هناك. وانصرف.

تسلل من البناية بحذر، وخرج مسرعًا من خطواته على عكس عادته في المشي ببطء المكتسبة من حياته في قريته النائية".

t.me/qurssan

14

ولم تستغرق زرقاء وقتًا طويلًا هذه المرة حتى عادت لتستطرد قائلة:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

بعد أن خرج محمود من الحارة التي تسكن فيها فاطمة، ثارت في روحه مشاعر عجيبة، تراوحت ما بين الحبور والسعادة، والدهشة، والأمل. فكر في أن القدر الذي جعله يلتقي بفاطمة في الأقصر يمنحه علامة، وأن الظهور الثاني لها هنا في مصر المحروسة بلا إنذار مسبق ولا ترتيب هو إشارة قدرية من رب العباد.

باغته إحساس عابر بالضيق وقت أن تذكر "أمينيتا"، التي كاد أن يفاتحها في مشاعره تجاهها. لكن إحساسا باطنيا جعله يحدس بأن ظهور فاطمة علامة من الله، فلن يمكن له الزواج من نصرانية من الروم، وأنها مجرد حلم عابث ووهم.

ثم عاد وفكر وهل ستوافق فاطمة أن يتزوجها مثلًا إذا فاتحها في أمر كهذا؟ وهل ستكون حياته معها فاتحة لمستقبل مختلف بعيدًا عن

t.me/qurssan

كل تراث قراهم في الجنوب؟ أم أنها ستكون بمثابة صلة الوصل التي ستوثق علاقته بجذوره التي لن يفتك منها أينما رحل؟

ظل يفكر في الأمر، كلما انفرد بنفسه، ووجد أنه يستعيد تفاصيل رحلتهما معًا في البحر، ثم لقائه الأخير بها، ويشعر بأنه يألفها، ليس بسبب تلك الرحلة وما مرّا به معًا. بل كشيء قدري بدأ من اللحظة التي رآها فيها لأول مرة.

استعاد ما كانت جدّته تحكيه له من حكايات عن بشر عادوا أرواحهم في أجساد غير التي عُرفوا بها في حيواتهم الأولى، وكانوا يتآلفون مع أرواح سبق لهم أن عرفوها. وسأل نفسه، لكنه لم يدع السؤال يكتمل في ذهنه واستغفر ربه وتعوّذ من الشيطان.

وفي الليل، كان يستلقي على فرشته في حجرته البسيطة التي لم يكن بها سوى مرتبة حشاها بالقطن، وطبلية خشبية دائرية قريبًا منها، وفي الركن الآخر قُلّة فخارية لشرب المياه. وصندوق خشبي صنعه بنفسه ليضع فيه ملابسه وأغراضه. ووجد أنه كلما فكر في الزواج من فاطمة تداعت لذهنه صورة أمه، وستّه، ثم شقيقاته الثلاث، وإخوته السبعة. وأخيرًا صورة أبيه.

شعر بالتوتر إزاء تداعي الذكريات المقيت، وساورته فكرة أن وجود فاطمة في حياته يعني أنها ستعيد إليه كل ما حاول تجاهله على مدى العامين اللذين قضاهما في القاهرة، متجاهلًا تاريخ أهله، وماضيه الذي كان يهرب منه كما يهرب الخائف من شبح الموت.

t.me/qurssan

استعاد تاريخ العائلة. الأشقاء الذين انقسموا بين الفلاحة والعمل في مصنع السكر التابع لإقطاعية الباشا الذي يمتلك نصف أراضي القرية. أخواته الثلاث، وأمه التي لم يكن لديها الوقت ليس لترعى أحدًا منهن بل حتى لتتنفس، إذ يبدأ يومها من الفجر، ومعها بناتها ثم الجدّة، التي يسمونها جميعًا بـ "ستّي" وبلقب أبيه من الآخرين، أم مصطفى.

يبدأن بالخبيز، إذ ينهضن قبيل الفجر بقليل، لإعداد الدقيق والعجن حتى طلوع الشمس، فيأخذن أقراص العجين ليفرشنها تحت الشمس لتختمر، ثم يعدن إليها في الضحى لوضعها في الفرن. وبعد أن ينتهين وتتوزع المهام على من سيذهب بحصة الرجال للأرض، يذهبن لإحضار المياه أو غسل الثياب عند الترعة القريبة، بينما تجلس هي وحماتها للاستعداد لطهي طعام اليوم للأفواه التي لا تقل عن خمسة عشر، وقد تزيد وفق الظروف.

أما الإخوة فيذهبون إلى الحقل مع طلوع الشمس، باستثناء أكبرهم، المكلف بالذهاب إلى التجار للاتفاق على بيع المحصول، في وقت الحصاد، أو لبيع الدواجن التي تعتني بها الأم تحت إشراف الجدّة. أما هو فيتبع إخوته حاملًا مع شقيقيه الذين يكبرانه قليلًا كل ما يمكن أن يحتاجه الركب طوال اليوم. يضعون الأغراض في مقطفين كبيرين على ظهر حمار، ويسيرون بجواره.

تذكر أمسيات السمر بجوار المجمرة على سطح البيت، ومغامرات تسلق النخيل لجني البلح، أو الألعاب التي كان يمارسها

t.me/qurssan

مع الصبية في الجوار. تذكر أيضًا أيام المرض، التي جاءت قاسية وغامضة. كان أغلب من يعرفهم إما يصابون بأمراض لا يعرفون لها اسما ويعانون من حمّى وقشعريرة وسعال وآلام في العضلات أو ترتفع حرارتهم عدة أيام ويعودون لطبيعتهم، بشربة من إعداد حلاق الصحة أو امرأة عجوز من قابلات القرية المتمكنات. وأما شقيقه الأكبر فتعرض مرّة لحادثٍ في مصنع السكر وكُسرت قدمه، فراح يتلوى من الألم، حتى بعد أن جاء المجبراتي، واستخدم بعض العصي الخشبية والعجين لكي يقوم بتجبير القدم المكسورة كان ذلك أقسى ما يتخيله من آلام المرض. أما ما حصل له فكان لا يُحتمل. تذكر وجه شقيقته الكبرى التي كانت تعاون جدّته في إطعامه أحيانًا، أو مناولته المياه ليشرب من "طاسة الخضّة" النحاسية الصغيرة، المحفورة بها آية الكرسي، والتي كانت الجدة حريصة على تلاوة آيات القرآن عليها كل يوم، قبل أن تناوله منها شربة بعد أخرى داعية الله أن يبارك في المياه ويجعل في بركتها سرّا لشفائه.

كان يتذكر الأيام بحنين، لكن مشاعره لم تلن، ولم يتقاعس إصراره على عدم العودة لهم أبدًا.

ولعل هذا الإصرار العنيد هو ما تسبب في فتور حماسه لفاطمة. فإذا كان قد تمكن من قتل رغبته في رؤية أمه وأبيه فهل يصعب عليه أن يقتل مشاعره تجاهها؟ شعر بأنها القدر الذي جلبه معه وهو يظن أنه يهرب منه، بينما كان في صحبته.

t.me/qurssan

استيقظ يومًا على صوت طرقات متتابعة على باب حجرته في يوم جمعة أطال فيه النوم قليلًا عن المعتاد. فتح الباب فوجدها أمامه، ونعرّف عليها رغم البُرقع. جاءت وهي تحمل في يدها مقطفا من الخوص، كشفت له ما فيه وقد أحضرت له فطائر المشلتت، وقطعًا من جبن المِشّ.

أخبرته بأنها جاءت لكي يصحبها لزيارة مقامي سيدنا الحسين والسيدة زينب كما وعدها، وقد جعلته رؤيتها جذلًا، متناسيًا كل مخاوفه، فارتدى جلبابًا نظيفًا مما يوفره ليوم الجمعة، وانتعل البُلغة، ثم تناول جاكيت اشتراه منذ أن التحق بالمصنع، ارتداه على الجلباب ووضع على رأسه طربوشاً. تأملته بسعادة وقالت له إنه أصبح يشبه الأفندية. ابتسم لها وهو يتحسس شاربه الذي غدا ثقيلًا عما كان عليه وقتما رآها لأول مرة.

تقدمها وطلب منها ألا تفقد أثره، وهو يتعجل الخطو حتى يتمكنا من زيارة المقام قبل صلاة الجمعة، وقد اغتنم الفرصة لكي يناجي صاحب المقام ويدعو الله أن يوفقه لما فيه الخير فيما شغل به باله.

كانت فاطمة تضع يدها على كل شيء تراه في الغرفة التي تضم المقام المبارك، وتتلمس الباب الذي قيل لهما إنه يضم شيئًا من آثار آل البيت، ثم خرّت على الأرض باكية وهي تلهج بالدعاء قريبًا من السياج الخشبي الذي يحيط بمقام سيدنا الحسين. وبعد خروجهما كانا يشعران بأن روحهما غدت أخف، وناوشتهما بهجة غامضة،

t.me/qurssan

فانطلقا بحثًا عن عربة كارو تنقلهما إلى السيدة زينب، وزارا ضريح السيّدة، أم العواجز، وأمسكت فاطمة بالسياج الذهبي، وهي تلهج بالدعاء، فلما رفعت رأسها ورأت قُبّة الضريح راحت تبكي بحرقة كانت تتضرع داعية الله أن يفرج كربها، وترجو ربها أن يلبي دعاءها ببركة "ستّنا زينب أم العواجز" وآل البيت. وبعدما خرجا من المسجد كانت لاتزال من دون البُرقع ورأى في عينيها آثار دموع.

بحثا عن مكان قريب فوجدا رجلًا معمّمًا بشاربٍ كث أبيض يضع أمامه "قِدرة" فول نحاسية وأطباق، وتساعده فتاتان صغيرتان حاسرتا الرأس. توجه محمود إلى الرجل الذي استقبله ببشاشة جعلته يهز رأسه لفاطمة لكي تقترب منه، وجلسا على قفصٍ من الخوص المتين، وأمامهما آخر استُخدم كمائدة، وسرعان ما وضعت إحدى الفتاتين طبقي الفول والخبز والبصل أمامهما. فتناولا الطعام بشهية، كأنهما كانا قد توقفا عن الأكل لسنوات.

وفي طريق العودة دار بينهما حوار عن ذكريات رحلتهما في النيل، وتذكرا مواقف عديدة أثارت ضحكاتهما، ثم دار بينهما حوار عن الحب والزواج. سألته إذا قُدّر له أن يتزوج فهل سيُعلن ذلك لأهله أو يقيم عرسه بينهم في البلد؟ تأملها وهو يفكر ثم قال إنه قطع علاقته بأهله للأبد. فسألته عن الوضع إذا أسفر زواجه عن البنين والبنات فهل سيقطع علاقة أبنائه بأهله؟

لم يجد إجابة لسؤالها، لكنه أخذ يفكر فيه طوال الليل، حتى بعد مجيء شريكه في السكن، عبّاد، الخراط الذي زامله في ورشة الأسطى

t.me/qurssan

حسن، وعدد من صحبه وكانوا ثلاثة أشخاص أخبره بأنهم سيبيتون في المكان عدة أيام حتى يدبروا أمر إقامتهم، وقبل أن يجيبه محمود أكد له عبّاد أنه سيدفع حصة أكبر في إيجار هذا الشهر نظير استضافة أبناء عمه كما وصفهم.

لم يعبأ محمود بالأمر؛ فلم تكن هذه الغرفة بالنسبة إليه سوى مثوى ينام فيه، بعيدًا عن أبناء الحرام، أو أتباع فتّوة الحارة. ورجال الدرك الذين يتفقدون المارين ليلًا.

لكنه استعاد لقاءه بفاطمة، وحُزن عينيها السوداوين الواسعتين. وحديثها عن الزواج. كان في قرارة نفسه وهو في القرية، يقول لنفسه إنه لا يرغب في الزواج، لكيلا ينجب أطفالًا يكبرون فلا يجدون لهم من مستقبل سوى أن يصبحوا مجرد أهداف لثأر لا يد لأيّ منهم فيه.

***

لكن شيئًا يشبه الشوق كان يتضخم في قلبه كل يوم تجاه فاطمة. فلم تمض عدة أيام أخر حتى جمعهما لقاء آخر. اتفقا يومها على الذهاب بعيدًا عن الأزقة والحواري، ليكونا بالقرب من النيل. وهناك جلسا على شاطئ النيل، أو البحر كما كان يعتاد أن يقول عنه، وهما يرقبان مراكب الصيادين الصغيرة من حولهما، وتلك الدهبيات الوافدة من البلاد البعيدة في جنوب الوادي عبر النيل، والمراكب التي تنقل الخواجات.

t.me/qurssan

قالـت له وهي تتأمـل الدهبيات والمراكب إنها لـو كانت رجلًا لما بقيـت لتزرع الأرض، بل لأصبحت بحّارًا على قارب يطوف النيل من النوبة وأسوان وحتى الإسكندرية.

ابتسم محمود قائلًا: الريّس أبورماح، فقهقهت ثم ضربته على كتفه برفق يشبه العتاب. قالت له ما أجمل أن يعيش البني آدم كل يوم حياة جديدة ويرى وجوها جديدة.

دار بينهمـا حديث طويل، بدأ رقيقًا عاطفيًا، مصحوبًا بهبّات نسيم بارد رطب، ولكنه انتهى بصمت شـبيه بثقل حجارة جبل المقطم. فقد أسـرّت فاطمة إليـه بأنها تريد الـزواج منه. وقد اسـتقبل رغبتها بحبور وسـعادة. وبأثـر من الجـو العـام أخبرها بأنه سـيكون أسـعد رجل في المحروسة لو تزوجها. لكنه ما إن عبّر عن رغبته تلك، حتى فاجأته بما لم يخطر له في بال.

صمتت لوهلة، ثم قالت بتردد إنها سـتخبره بسـرٍّ لا تجد بين البشر كلهم أحدًا غيره يمكنها أن تسـرّ به إليه. وإزاء ثقتها الطاغية التي أبدتها فيه، فقد خلع طربوشـه ومسّـدَ شـعره الأسـود الثقيل الناعـم قائلًا إنها لا يمكن أن تجد مثيلًا له في حفظ الأسرار.

ظلّـت صامتة لوهلة، ثم بـدأت في البكاء، فانقبـض قلبه، ثم قالت بصوتٍ مرتجف تشـبه نبراته العويل إنها تعرضت للاغتصاب من أحد أبنـاء صاحـب السـرايا، وأنه طردها مـن المكان فخرجت مـن دون أن تخبر أحدًا، وهم يظنونها الآن هاربة.

t.me/qurssan

كاد محمود الوهم أن ينفجر من شدّة الإحساس بالقهر. لم يدر ماذا يفعل؟ لو حدث هذا الأمر في القرية لكانت في عداد الأموات. والآن ماذا سيفعل؟

نهض من حيث كانا يجلسان، لم ينطق بشيء. ولم يلتفت لها وهي تناديه بحرقة والتياع. مشي مذهولًا قريبًا من ميدان الإسماعيلية، واستمر ماشيًا بلا توقف، من باب اللوق إلى العتبة ومنها إلى الجمالية، حتى بلغ الزقاق الذي يعيش به، مفكرًا فيما ينبغي عليه أن يفعل. كان يمشي في طريقه مثل الأعمى، لا يرى شيئًا، ولا يسمع إلا ضجيج خواطره وأفكاره التي فاضت به نفسه.

أيمتثل لقواعد القبيلة التي غادرها وأصبحت مكانًا نائيًا بعيدًا. كان كل ما يعرفه عن مثل هذه الأمور أن المرأة التي تتعرض للاغتصاب لا يجد أهلها مفرًا من قتلها غسلًا للعار؟ وإذا قرر قتلها، فمتى يفعل ذلك وبأي وسيلة؟

لكنه عاد ليسأل عار من؟ فهي ليست من أهله، بل ولا يعرف لها أهلًا. استعاد كل كلمة قالتها له عن أهلها وعن شفيقة والسيدة الأجنبية، ليحاول أن يجد خيطًا يصله بفساد نفسها الذي أوقعها في الإثم. أتركت نفسها للرجل طمعًا في الزواج منه؟ كان في كلامها واعتدادها المبالغ فيه بنفسها ما يجعله يصدق هذا الخاطر.

انتبه لسيره في نهر الطريق الممهد بالتراب، حيث تمر الحمير، أو عربات الكارّو، وتلك العربات المغطاة كما لو أنها حافلة بدائية تجرها

t.me/qurssan

البغال والتي سيعرف لاحقا أن اسمها "الساواراس"، واضعًا يديه في جيب الجاكيت الذي ارتداه فوق الجلباب الأبيض تأنقًا في يوم لقائه بالحبيبة. رفع عن رأسه الطربوش الذي قرر اعتماره بدلًا من العمامة منذ عمل في مصنع الدخان، ومسح شعره المبتل بالعرق.

وعاوده عرج ساقيه فجأة بلا سبب واضح، وأخذ يئن مع كل خطوة كما لو أنه يعاني من مرضٍ عضال. شعر بأن هذا الداء الوهمي الذي يجعله يعرج يرتبط بالموت، كلما شعر بأن الموت قريبٌ منه. تمكنت منه فكرة قتل فاطمة، فلم يكن يعرف وسيلة أخرى لغسل العار. وشعر فجأة بكراهية مقيتة تجاهها، ليس بسبب ما فعلته فقط، بل لأنها قرّبت منه شبح الموت الذي غادر قريته وأرضه وأهله وجدته وكل تاريخه هربًا منه.

عندما بلغ الزقاق، وأمام البناية المتهالكة التي يسكن بها لم يجد في نفسه القوة للعودة إلى حجرته وهو في هذه الحالة، ولكنه لم يكن يعرف ما ينبغي عليه أن يفعل. تذكر إحدى الخمّارات التي ذكرها رفاق مصنع الدخان. حاول أن يتذكر وصفهم للمكان وبدأ يسلك طريقًا تصور أنها تؤدي به للمكان المشتهى. سلك الطرق المتربة حول ميدان العتبة الخضراء، حتى وجد مقهى قريبًا تراصت أمامه مجموعة دكك خشبية، وقد علت فيه ضجة الجالسين، من المعممين، ورأى بعض الشباب يرتدون جلابيب رثّة وأغلبهم حفاة جالسين على مصطبة خارج باب المقهى، فحسم أمره. جلس بجوار ثلاثة ممن بدوا

t.me/qurssan

له من أهل الريف كانوا يشربون الشاي في صمت. طلب شايًا من صبي المقهى، وبقي صامتًا في مكانه مُطرقًا للأرض الترابية الرطبة من أثر رشّ المياه، من دون أن يتوقف رأسه عن الغليان.

كان مقته لفاطمة يتزايد، كلما أدرك مدى فداحة جرمها في حق نفسها، وفي حقه. لعن اللحظة التي رآها فيها في الأقصر، وفي اصطحابه لها في تلك الرحلة. ولم ينتبه لمجيء الشاي إلا بعد أن كرر الصبي نداءه زاعقًا:

- الشاي يا بلدينا.. وحد الله!".

t.me/qurssan

15

مـرّت زرقـاء بفتـرة صعبة بسـبب اشـتداد مرضهـا الذي لـم أفهم طبيعته، مع ذلك أصرّت على أن تعاود نشاطها. عادت إلى مقصورتها واستكملت القراءة بوهن، ولم تتمكن من أن تحكي لي شيئًا. أوضحت لـي أن ذهنها أصبح مشـتتًا، وفقـدت قدرتها على التركيز. سـألتها عن محـاولات العلاج فأجابـت باقتضاب أنها تتناول العلاج الآن بشـكل منتظم.

طلبـت منـي أن أقرأ بدلًا عنهـا أكثر من مرّة خـلال الأيام الماضية. وبدا وجهها شاحبًا. وكنت أراها لأول مرة تتوقف عن القراءة من دون وعي منها، وحين أستطلع الأمر أراها تغفو من دون أن تدرك.

اقترحت أن أصحبها إلى غرفتها حتى تسـتعيد حيويتها مرة أخرى. أقسـمتُ لها أنني سـأقرأ بكل ما أملك من طاقة ولن أتوانى أو أتكاسل للحظة. ابتسـمتُ قائلًا لهـا إن كل ما أتمناه أن تتيح لي الاسـتعانة بأي كميات من القهوة تمكنني من الاستيقاظ طويلًا، فرسمت ظل ابتسامة على وجهها الذي كان الإعياء باديًا عليه، ولم تعلق.

استسـلمت لي كما لو أنها فقدت إرادتهـا تمامًا، حملتها فوضعت ذراعهـا حـول رقبتـي، بحثت عن مـلاءة أغطيهـا بها، لكنهـا قالت لي

t.me/qurssan

إنها لن تتحملها. سرتُ ببطء لأنني سمعتها تتأوه. ولأول مرة أشعر بالخوف عليها. عندما بلغت عربة الحفل ورأوني أدركوا الأمر ووجدتهم يتهامسون، ولكني لم أتوقف، وقد تيقنت أن الطبيب وبعض ساكنات عربة الحفل سوف يتبعونني إلى غرفتها.

سبقتني فتاة لم أكن رأيتها من قبل، ودخلت الغرفة، وأزاحت الأغطية والملاءات فرأيت المَرْتبة مغطاة بطبقةٍ جلديّة. وانتبهت أن زرقاء تتحسس من النسيج بكل أنواعه، فوضعتها على الفراش. كانت عيناها مسددتين باتجاهي، فابتسمت لها من فرط إحساسي بأنها تبصرني، لكنها لم تقل شيئًا. وطالبتني بالعودة لمكاني بسرعة، فامتثلت وأنا أشعر بقلق.

وبقيت في مكانها يومين متعاقبين، أقرأ بلا كلل، وبفضل إيقاع الحياة في قطار لا يبذل المرء فيه جهدًا من أي نوع. كان بإمكاني البقاء يقظًا لفترات طويلة. وحين يداهمني الوهن أتمشى قليلًا، أما حين شعرت بتعب عيني من تتابع القراءة بلا توقف، توجهت بلا تردد للحفل وطلبت منهم قهوة فأمدوني بترمس كبير. وعدت به سعيدًا ومغتبطًا لاستكمال قراءة الكتاب الذي كان بين يدي زرقاء.

بعد يومين عادت أخيرًا، وطمأنتني أنها تلقت العلاج بشكل جيد هذه المرة، وأنها أفضل كثيرًا، وشكرتني على القراءة المستمرة في غيابها، وبمجرد أن انتهت رفيقتاها من وضعها على الأريكة الجلدية في مقصورتها شكرتهما، وودعتهما ثم قالت لي بحسم ووهن:

t.me/qurssan

- دعني الآن أنتهي من الحكاية التي تخصك، فهذا دين عليّ أن أنتهي منه، حتى أعود للقراءة بالشكل الذي اعتدته.

وقبل أن أرد عليها، ظلت شاردة لوهلة كما لو أنها تستعيد ما حكته، ثم قالت:

"كان يا ما كان. كنت وكان ما كان:

راقب محمود الجالسين من حوله فلم يجد من يجلس منفردًا غيره، كانوا جميعًا في صحبة بعضهم بعضًا، في مجموعات ثلاثية أو رباعية، البعض يطلق النكات، والبعض يتحدث عن سوء أحوال الرزق، ومن أمسك بالشيبُك أو الجوزة في يده كان يدخن وهو ينصت للجالسين معه من دون أن يتفاعل بالحديث.

كانت الشمس قد ودّعت المكان، وحلّت العتمة، فراح الصبي يشعل سرج الضوء داخل المقهى المعتم. وأخرج كلوبين لإضاءة المساحة أمام المقهى. وفد بعض الأفندية الذين ارتدوا السترات واعتمروا الطرابيش، وتأملوا المكان مليًّا قبل الدخول إلى المقهى.

وبعد قليل لاحظ زيادة الصخب داخل المقهى، إذ يبدو أن الأفندية تناولوا شأنًا أثار اهتمام الجالسين فتدخلوا في النقاش، وكانت الأسئلة تصل لأسماع الفتى في الخارج فلا يميز منها إلا بضع كلمات مثل "عرابي"، والخديو، والجهادية.

لكنه أنصت جيدًا، حتى أدرك من أقوالهم إن الإنجليز يرغبون في احتلال البلاد، وأن عرابي يتصدى لذلك، ولكن الخديو لا يبدو واقفًا إلا في صف الإنجليز.

t.me/qurssan

ولفت انتباهه قول بعض الموجودين إنهم سمعوا أخبارا عن بعض الموسرين من القرى الكبرى والعمد الذين يوفرون السلاح والرجال لعرابي. وقد أخذ محمود الحماس فسأل شابًا بجواره عن كيفية التطوع. لكن الفتى رمقه في ريبة. ثم أمسك بذراعه وانتحى به بعيدًا وقال له: احذر لأن الجواسيس يجلسون في كل مقهى وينتصتون على الناس. وطلب منه أن ينتظر حتى تهدأ الأمور.

مرّت مجموعة من رجال الدرك بالخيول، وجالوا وصالوا حول المقهى مما اعتبره صاحب المقهى تهديدا من الدرك، فطلب من الجالسين أن يدفعوا مقابل ما تناولوه وينصرفوا قبل أن يحدث ما لا تُحمد عقباه.

ركض مع من ركضوا في الطريق الموحل الذي نُثرت عليه نشارة الخشب، خوفًا من ملاحقة رجال الدرك. وزاد عرجه كما لو أنه يمنح نفسه مبررًا إضافيًا لعدم الملاحقة. وبالرغم من أنه لم يكن خائفًا، لكنه لم يكن يرى في المبيت في مخافر الشركس وزنازينهم بديلًا لحياته الجديدة التي خلقها في المحروسة. لكن اسم عرابي استولى على اهتمامه، وقد تمكن الأفندية في المقهى من رسم صورة فارس من أبناء البلد يواجه حاكمًا يريد أن يضع مقادير البلاد في ملكية الأجانب.

تذكر في تلك الليلة حكاية، كانت قد حكتها له ستّه؛ عن شيخ من المتصوفة الذين عارضوا الظلم في الصعيد، وحاول أن يتذكر اسمه. ارتبط في ذهنه بالطيبة، أخبرته جدته بأن الرجل الصالح أراد

t.me/qurssan

أن يقيم العدل على الأرض لكي يحصل الفلاح على ما يكفيه. قالت له إن الناس تعبوا. يزرعون طول العام ولا يرون شيئًا مما يزرعون لأن الباب العالي أو مولانا يحصل عليه، وحتى ما يمتلكونه بعد شقاء من مواشٍ أو جِمال كان الخيّالة يأتون لينفذوا أمر مولانا بجمع هذا كله لصالحه.

ومن يخالف الأوامر يُنفى إلى السودان، ويُسجن هناك. والبعض قُتلوا أمام أهلهم. استعاد محمود كل تلك الحكايات، واستدعت ذاكرته أوقاتًا شهدت هروب أبناء عمومته وبعض أهل القرية إلى الجبال، هربًا من حملات شيخ الخفر ورجاله التي يكلف بها لجمع شباب القرية للانضمام لعمّال السُخرة لأجل مشاريع مولانا، خصوصًا حفر القناة.

استعاد حنقه الذي كان يغلي في صدره عندما استمع لهذه الحكايات من جدّته. كما استدعى أيضًا ما حكته عن إبادة القرى التي ناصرت الشيخ الطيّب، وقد تذكر أن هذا اسمه، وكيف أصابه الذعر آنذاك عندما سمع عن إبادة قرى عن بكرة أبيها انتقامًا من الرجل الطيّب. أما الآن فقد وجد أن ظهور البطل الذي يتحدث عنه الناس الآن هو الذي قد يُخلّص الناس من الظلم والفقر.

ونام وهو يشعر بالسعادة لأول مرة، حتى أنه نسي في فورة حماسه لعرابي وثورته كل ما يتعلق بغضبه من فاطمة.

لكن ابتسامته تحولت إلى وجوم شديد في الصباح حين دخل معمل الدخان، وسأل جورجي عن عرابي، فأجابه ساخرًا بأنه موهوم،

t.me/qurssan

وأنه مجرد شـاويش لا قوة له، لا يحب الأجانب، ويريد أن يجد لنفسـه مكانًـا فـي البـاب العالي. فهزّ محمود رأسـه بغيـر اقتنـاع، وأحسّ بأنه يحتـاج لمصـادر يعرف منهـا الحقيقة. شـعر أيضًا بـأن جورجي مهما أظهر له الودّ فإنه يحتقر شـخصًا ينادي بكرامـة المصريين في بلادهم، وشـعر بالغبن لأنـه لا يجيد القراءة، فكل ما وهبه مـن وقته للكُتّاب في القريـة بذله في حفظ آيات القرآن سـماعيًا، وقد نسـي نصف ما حفظه مع الوقت.

حـرص على زيـارة المقهى كل يـوم، وبدأ يبحث عـن مقهى يجد فيه من يحكي حكاية أو سـيرة، إذ وجد في ذلك الحد الأدنى من توفير مصدر للمعرفة بعد أن فقد مصدره الرئيس للمعرفة ممثلًا في جدّته.

وفكـر فـي الاسـتعانة بمن يعينـه على فـكّ الخط، فلم يجـد أحدًا، فأغلـب العمّال الروم لا يعرفون العربية، أمـا زملاؤه الذين عمل معهم في الورشة فلا يعرفون القراءة ولا الكتابة.

ولم يجد حلًا لما يشـعر به حتى اهتدى إلى مشـيخة الأزهر، ليسأل أحد المعممين ممن كان يراهم بكثرة هناك. فقد كان يخشـى لقاء إمام جامع الحسين حتى لا يضطر للكذب عليه إذا سأله عن عمله.

وقـف متـردّدًا حتى وجد شـابًّا معمَّمًا مـن طلبة العلـم، فعبّر له عن رغبته في لقاء رجل علم من أجل فتوى. أخبره الشيخ الصغير بأن مفتي الديـار قـد جمع مع الإفتاء منصب شـيخ الأزهر لأول مـرة، وأنه ينظم شـؤون الفتوى، ثـم أخبره بأنه يمكن أن يسـاعده فهو دارسٌ للشـريعة

t.me/qurssan

والفقـه. وشـعر محمـود بالارتبـاك لأن الشـيخ الفتي كان يبـدو مقاربًا لعمره أو أكبر قليلًا، وهاله أنه سـيضطر لفضح سرّ فاطمة لفتى صغير، فقـال لـه إنه يريد أن يسـتفتي أحد الشـيوخ لأنه تلقى فرصـة للعمل في مصنع للسجائر، ولا يعرف أحلال ذلك أم حرام؟

ومن بعد البسملة والحوقلة وحمد الله، أخذ الشيخ الشاب يعددله حيثيات الكراهية التي تقرب الأمر من التحريم. واصطحب محمود إلى الداخل، وحتى رواق قريب، وذكر له ما اسـتند عليه في آرائه مؤكدًا له أنه سـمعها بنفسه من أكثر من عالم من علماء الأزهر الشريف، واستند علـى أحاديث عديدة، وحثّه أن يبحث عن وسـيلة للرزق الحلال حتى يأمن على نفسه وأهله ولا يأكل مالًا حرامًا.

سـأله محمود عن وسـيلة لتعلم القراءة والكتابة، فقـال له الفتى إنه على اسـتعداد لأن يفعل ذلك، واتفقا علـى الأمر. وقرر محمود العودة يوميًا من المصنع إلى الأزهر مباشـرة ليتعلم على يد هذا الشـاب الذي قدم له نفسه باسم الشيخ حسانين.

قال محمود لنفسه إنه إذا تأكد من معرفة هذا الشاب بالدين فسوف يسأله عما يقلقه من أمر فاطمة.

لكنه انشـغل عن فاطمة بالقراءة، والكتابة. إذ كان يعود من المصنع إلى صحن الجامع الأزهر، فيسـرع أولًا ليتوضأ ويفرط في غسـل بدنه خشية أن تفضحه رائحة التبغ العالقة به. ثم يلتقي الشيخ حسانين، ومنه عرف عن أسـماء لم يكن قد سمع بها من قبل، خصوصًا الشيخ محمد

t.me/qurssan

عبده، أستاذ التاريخ في إحدى المدارس كما أخبره، وصديقه الشيخ الأفغاني.

كان محمود يؤكد لنفسه كل يوم أن رحيله من القرية لا يمكن أن يكون مما يصيب المرء بالحزن، فقد رأى العجب والعجائب منذ وصل للمحروسة، ولايزال يرى فيها حيوات جديدة، عمارة حديثة، وبوابات عمرها مئات الأعوام، ومساجد لم يكن يتخيل يومًا أنه يمكن أن يوجد مثلها، وآثارا تختلف عن الآثار الفرعونية والمعابد التي رآها في الأقصر وإسنا، وشوارع ممهدة بالتراب، وحواة، وحوانيت في كل لون من ألوان البضائع، ونساء جميلات من بنات البلد ومن الأجنبيات، ومقامات لآل البيت.

ولا يمر يوم من دون أن يصادف في طريقه أو يكتشف شخصًا من غريبي الأطوار، سواء أكان مجذوبًا من الدراويش الذين يهيمون على وجوههم ويتحدثون للسماء وكائنات الأرض الشبحية، أو سيدة تقرأ البخت للمارة وتقلب عينيها كأنما تقرأ أقدارهم من صفحة في علم الغيب، أو جمّال لا يحلو له المرور إلا في الأزقة المخصصة لمرور الحمير فيؤدي إلى مشاحنات بينه وبين الحمّارين، من دون أن يتوب عن زيارته اليومية للدرب أو العطفة أو الزقاق، والآن ها هو يدخل الأزهر فيرى فيه عالمًا آخر ينشغل فيه الناس ليس فقط بالدين والفتوى والحديث والشريعة وحفظ القرآن، بل ومطالبة الحكومة بالإصلاح من رجال وطنيين كما قال له الشيخ حسانين.

t.me/qurssan

لـم يكن يفهم كثيرًا ممـا يقال، ولكن التضارب الشـديد بين الآراء التي يسـمعها في الأزهر عن عرابي وأهمية ما يقوم به من أجل الإسلام والمسـلمين وبيـن الكراهية الشـديدة التي كان الأجانب يشـعرون بها تجاهه أصابه بالارتباك.

بـدأ، بعون صديقه الأزهري، في التردد على "قهوة متاتيا"، في حي الأزبكية، يُنصت لما يقوله أنصار عرابي وصحبه، وحين لا يجد جمعًا من الأفندية الذين يسـتهويهم الحديث عن الإصلاح، يبحث عن مقهى مما يتردد عليه حكاؤو السـيرة والمنشـدون، ممن ملأوا قلبه بالشـغف والطرب".

t.me/qurssan

16

لـم يسـتغرق توقف زرقـاء عن الحكي هـذه المرة أكثر من مسـافة الذهاب للحمام بمساعدتي والعودة، حيث استطردت:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

كان عالم القرية الظالمة قد غدا بعيدًا مثل طيف شـاحب لذكريات غائمـة، وأصبحت القاهـرة عالمًا بألف عالم، واليـوم فيها بألف حياة. كان يقول لنفسه اليوم هنا بألف يوم من أيام البلد الميّتة.

ثـم جاءته فاطمة مرة أخـرى. انتظرته أمام باب المصنع وطلبت منه أن يتحدثا. اتفقا أن يلتقيا قريبًا من بولاق، على الشاطئ.

وهنـاك أبلغتـه بـأن حياتها في خطـر، وقد أبدى قلقه وسـألها وهو يتوقـع أن أهلهـا قد علموا بمـا حدث لها، فقالت له إنها اكتشـفت أنها تحمل جنينًا في أحشائها، ولا تدري ماذا تفعل؟

انتظر أن تسـأله عن وسيلة لكي تقتل ما في بطنها لكنها فاجأته بأنها تريد منه أن يقبل الزواج منها حتى يسـتر عليها، وأنها اختارته لأنها تثق في أخلاقه وفي رحمة قلبه، وأنها لا يمكن أن تتسـبب في قتل طفل في بطنها مهما كان السبب أو الثمن الذي يمكن أن تدفعه.

t.me/qurssan

كان ينظـر إلـى بكائها مذهولًا، وهي تؤكد لـه أنها تعترف بخطئها، ولكنهـا أُخذت علـى غير رضاها وبعنف لم تتمكـن من دفعه. وطلبت منـه ألا يرد عليها بـل أن يفكر في الأمر ويحكّم ضميـره ولا يتبع إلا ما يقولـه لـه، وأنها سـتتفهم أي موقف يتخذه سـواء أكان رفضًا أم قبولًا، وأنها لو قبل بالأمر ستظل خادمة تحت قدميه مدى الحياة.

أنصت إليها بقلبٍ دامع، ولم ينطق بشيء. كان يرى أنها لا تستحق هـذا البـؤس، وروّعـه أنهـا تركت قريتهـا وأهلهـا لأجل هـذا المصير البائـس، أصابته الحيرة فلم يعرف مـا الذي ينبغي عليه أن يفعله. أليس من واجبه أن يقتلها؟

ثـم عـاد ولفظ الفكرة كمن يسـتيقظ مـدركًا أنه يحفـظ أفكار أهله ويرددها كأنه لم يعش حيوات أخرى في المحروسة، ورأى فيها عادات وأفكارًا وبشـرًا مختلفين تمامًا عن كل مـا عرفه في القرية، فطلب منها أن تمهله وقتًا ليفكر في الأمر، وانفصلا كلّ في طريق.

استعاد رحلتهما معًا من الأقصر إلى المحروسة للمرة المئة وتوقف عنـد ثغرة اختفائها يـوم وصولهما إلى بـولاق. كان يقينه أن وجودهما معًا في بداية وصولهما لبولاق، كان كفيلًا بإنقاذها من أي خطر يمكن أن تتعـرض له، ودعم اليقين بواقعتي إنقاذها من بين يدي الخواجة، ثم من بين يدي عصابة المطاريد.

أيلوم نفسـه أنه استسـلم لاختفائها بسـهولة؟ أم يلوم ضعفها لأنها تركت نفسـها بين يدي شـيطان الشـهوة مـن دون أن تنجح فـي الدفاع

t.me/qurssan

عن نفسها؟ تساءل لو كان الخواجة جوستاف قد نال منها أمامه يوم هاجمها في الخلاء، قبل أن يتمكن من إدراكهما فهل كان موقفه منها آنذاك هو نفس ما يشعر به الآن؟ قال إن إنقاذه لها إنقاذ غير مباشر لنفسه أيضًا فلا شك أنه لم يكن ليتردد في قتل الأجنبي إذا آذاها.

وعاوده التفكير في القتل مرة أخرى. هل ينبغي له الآن أن يدافع عن شرفه بقتل الخسيس الذي واقعها؟ أكانت فاطمة عقابه الذي صاحبه لأنه تخلى عن أهله واعتبرهم أمواتًا؟

لم يتمكن من الذهاب إلى غرفته فعرج إلى المقهى القريب. رأى الشيخ حسانين جالسًا، وتنفس الصعداء فقد كان أحوج ما يكون لمن يفتيه في أمره.

سأله بعد أن مهدّ بأن الأمر الذي يتحدث عنه لا يعنيه شخصيًّا بل يخص نفرًا من أهله. أوضح له أن رجلًا من عائلته يريد أن يقتل رجلًا وامرأةً دفاعًا عن شرفه.

تأمله حسانين قليلًا، ثم انتحى به إلى أريكة نائية عن الجالسين، قال له:

قتل المسلم بغير حق أمر عظيم وجرم كبير، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. وروى البخاري عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول ﷺ قال: (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا). فعاد يسأله عن الزنا، فأجاب صديقه بما يعرف،

t.me/qurssan

موضحًا أن حد الزنا لا يصل للقتل، وأنه يقتضي لإثبات الزنا شروطًا من الصعب اجتماعها إلا برأي العين.

تأمله محمود بذهن شارد ولم يبد أنه استوعب كل ما قيل له فسأله بنفاد صبر:

- يعني حلال ولا حرام يا شيخ؟

فنادى الشيخ حسانين على الصبي العامل في المقهى طالبًا كوبي شاي وهو يُعلي صوته بقوله: "الظاهر محمود عايز حاجة تفوّقه".

وعاد الشيخ حسانين يدلل له بالحكايات والمأثورات أن العدل متروك لله، وأن القانون هو الذي يأخذ للناس حقوقهم، وأصل القانون شرع الله العادل.

فهدأ محمود تدريجيًا، إذ لاقت هذه الكلمات صدى في روحه النافرة من القتل والدم والثأر الذي عذبه، وتسبب في تشريد عدد لا يستهان به من إخوانه وأبناء عمومته.

مع ذلك لم تخلد روحه للهدوء، فسرعان ما ثارت وتهيّجت بعدما استدعى صورة فاطمة، التي قتلته بعشقه لها كما ردد لنفسه. وهو ما شعر به منذ رآها لأول مرة، ومدركًا أن شيئًا عميقًا من أثرها استقر في قلبه للأبد.

راح قلبه الجازع من هذا الخاطر يثب في قلبه متوفزًا بسبب فرط حيرته، لدرجة أنه توجه إلى الجامع الحسيني، وتوضأ ثم دخل إلى

t.me/qurssan

المسجد ومن الباحة الشاسعة توجه إلى جهة اليمين، قاصدًا مدخل الغرفة الكبيرة التي تضم الضريح حيث يستقر رأس سيدنا الحسين، وأمسك بالخشب المحيط بالضريح وراح يناجي الشهيد آملًا أن يجد له عند الله حلًا لما يصيبه بالحيرة، ثم توضأ وصلى ركعتين، وراح باكيًا وساجدًا يسأل الله ويستخيره بأن يعمل ما فيه الخير والعدل.

تذكر وهو يهيم على وجهه ليلًا شخصًا كان قد انمحى من ذاكرته. لا يدري من أي ماض سحيق جاءته ذكرى الشيخ السقعان، وكان مجذوبًا من مجاذيب القرية، يخشاه هو وأقرانه جميعًا باستثناء إسماعيل، أشقاهم منذ طفولتهم المبكرة، والذي كانوا يسمونه الديب لأنه كان قادرًا على الاجتراء على المجاذيب، وعلى المشي ليلًا في القرية من دون أن يخشى لا جنية القرية ولا أشباح الليل، رغم العتمة التامة. ووحده أيضًا كان إسماعيل الديب هو الذي تمكن من إصابة السقعان في رأسه بحجر فوقع مغشيًا عليه.

تذكر أن السقعان شوهد في فجر أحد الأيام خارجًا من أحد بيوت القرية، وتعيش به أرملة الحاج محمود أبو البنات، الذي لم ينجب سوى ابنتين. ولم يكن لها إخوة لكي تنتقل لبيت أحد منهم، وبقيت في البيت لتربي أطفالها. ولكن الصبية الذين كانوا يدورون حول البيوت والغيطان، كانوا يعلمون ما يفعله السقعان في بيتها.

كان عقله يحاول أن يخفف إحساسه بجريمة فاطمة، وبأن ما جرى لها جرى لغيرها، كان الله حليمًا ستيرًا معهن.

t.me/qurssan

وتسلل إلى غرفته في الليل، فداهمته جثث النائمين- كما وصفهم، إذ كان يـردد لنفسـه: "النـاس دول ميتين ولا إيه؟"-مـن ضيوف عبّاد، شـريكه في السـكن، وقد غرقوا مهدودين مالئين الغرفة البائسـة بمزيد مـن البـؤس الذي نضحـت به روائح أجسـادهم وأصوات شـخيرهم، حتى أنه فكر فى أن يجد له مثوًى آخر في أي مقهى ينام فيه حتى الفجر، لكـن التفكير في تربص الجنود بالمقاهـي والثوار جعله يتريث ويصبر على الشخير حتى أنهكه التعب وغاب في نوم حزين".

t.me/qurssan

17

طلبت زرقاء مني الذهاب لتناول طعامي، وقررت أن تقرأ قليلًا، وقد منحتها الفرصة التي رأيتها كافية لكي تشعر بأنها لم تتوقف عن القراءة، لكنها في النهاية نادتني، وبدأت تحكي:

"كان ياما كان، كنت وكان ما كان:

مزقه التردد بين غرامه بفاطمة وبين الثأر لشرفها من مغتصبها والثأر لشرفه منها، مثلما مزقته الحيرة بين العودة للعمل في ورش خراطة الخشب، لأنها الصنعة التي شغف بها، والتي شعر بممارستها بأنه من أبناء البلد الذين يتعلمون صنعة لا يتقنها سواهم، مقارنة باحتكار الأجانب لصناعة الدخان. كان يؤلمه أن أجره أقل من أقرانه؛ ليس لأنه أقل مهارة، بل لأنه من أبناء البلد. ومع ذلك فبعد أن تعلم مبادئ القراءة وقرأ إعلانًا يشيد بسجائر "جاناكليس" لأنها ملفوفة بأيدٍ مصرية هدأ قليلًا، وشعر بالغبطة. لكن ذلك لم يقتل إحساسه بالظلم.

قرر أن مكانه في النهاية ينبغي أن يكون مع الثوار، فبحث مع الشيخ حسانين عن الوسيلة التي يمكن له بها أن يسلم نفسه لرجال عرابي، بعد أن علم أن المتطوعين من كافة الفئات ينخرطون مع الثورة

t.me/qurssan

الوطنيـة. وأخرج المنديل الذي صرّه تحت حجـر في غرفته وبه وضع كل مـا ادخر، وقـرر أن يمنحه لفاطمة لتحافظ على مدخراته ويعلن لها موافقتـه على الـزواج منها، علـى أن يؤجلا الزفاف حتـى تنجح الثورة ويتمكـن عرابـي مـن فـرض مطالبه علـى الخديـو توفيق؛ الـذي يدبر بالولاء للأجانب على حساب الباب العالي في تركيا.

أخبره جنود من أتباع الثورة بأنهم يقدرون حماسـته الوطنية، ولكن الانضمـام للثورة مقصور على الجند، وأن الشـعب يقف خلف الثوار. وعبثًا حاول مرة ومرات، حتى أنه كان يرابط أمام منزل عرابي نفسه في بـاب اللوق، لكي يعبر لـه عن رغبته في الانضمام إلـى الثورة، لكنه لم ينجح في مسعاه.

حتـى اليـوم الذي سـمع فيه مـن حسـانين أن الحزب الذي يرأسـه عرابي، دعا الشـعب للذهاب إلى ساحة عابدين لدعم عرابي وأصحابه فـي مطالبهم مـن الخديو. كاد يرقـص طربًا بهذا الخبر الـذي يعني أن الشـعب أصبح من حقه المشـاركة مـع الثوار، رغم أنـه، لا هو ولا أي أحد آخر كان يعرف الدور الذي يمكن القيام به في دعم الثورة.

تمكـن من الوقـوف مبكرًا قريبًا من محيـط القصر المهيب، وحتى ظهـر الجنود وبينهم أحمد عرابي نفسـه. كان فارع الطول وله شـارب ضخـم، وبـدا مهيبًا فـي زيه العسـكري. فـكاد محمود يبكي من شـدة الفـرح والتأثـر معًا. لكنه من فـرط هيبة الموقف لم يتحـرك من مكانه، بينما تواصل توافد الجند على خيولهم يصطفون في تشـكيل اتضح أنه يقصد أن يدور حول كامل الساحة في أكثر من صف.

t.me/qurssan

وسمع جلبة من بعيد تعالت تدريجيًا فتلفت حوله، فرأى توافد مجموعة من أهل عابدين حوله والذين حاولوا الاقتراب من آخر صفوف الجنود على الخيول، وراحوا يهتفون له بالنصر، فأقدم محمود على الهتاف بأعلى صوته، وروحه تنتفض بالحماس.

كان عرابي على جواده وسيفه يتدلى من خصره. وأحاط به يمينًا ويسارًا، رجلان بديا لمحمود كقائدين أو مساعدين لعرابي في الجهادية، وقد وقفوا بخيولهم هم الثلاثة أمام بوابة القصر بعد أن اكتمل نصاب من الجند خلفهم، ومن بعدهم بدأ اصطفاف الجماهير التي استمرت في التوافد حتى سطعت الشمس قليلًا.

أخيرًا فُتح باب القصر وظهر رجل أجنبي، لم يتبين الجمهور شخصه، لكنه تحدث مع عرابي وصحبه لفترة ثم تركهم وانصرف. وفي تلك الدقائق حلّ الصمت على الجميع وهم يكادون أن يحبسوا أنفاسهم تهيبًا ورغبة في الإنصات لحديث الثوار الذي كان من المستحيل أن يصل إليهم.

وبعد ساعة من الانتظار ثارت جلبة راحت تتعالى مصحوبة بركبٍ جاء من داخل القصر، وظهر أن الخديو توفيق بنفسه قد جاء لاستقبال الثوار، حين تناقل الجمع كلمة مولانا في ذهول. اقترب منه عرابي وهو لايزال على جواده، فطلب الخديو منه أن يترجّل، فقفز عرابي من أعلى فرسه واقترب منه بثبات وحياه التحية العسكرية، ودار بينهما حديث لم يسمع أحدٌ ما دار فيه. طلب مولانا من الجنود أن يعودوا

t.me/qurssan

إلـى مقارهم. لكنهم وقفوا بثبات ليؤكـدوا أنهم لن يطيعوا إلا قائدهم المباشـر. ونـزع الأجنبي غـدارة يحتفظ بهـا في حزام سـترته، فتحفز الجنود وسُـمعت قرقعات خيول الصفوف الأماميـة، لكن أحد الثوار الثلاثـة رفع يـده لهم محذّرًا من الاقتراب. أما مولانـا فبدا متحفظًا في تنفيذ ما كان الأجنبي يحفزه عليه وهو محاولة قتل عرابي، وبدأ حديثًا مـع الأخيـر، كان مـن الصعب أن يصل إلى مسـامع محمـود، رغم أن الجميـع سـكتوا كأن على رؤوسـهم الطيـر، لا يكاد أحد يسـمع حتى أنفـاس الآخرين. لكن ما جرى بين الخديو وبين عرابي، بات حديث مصـر كلها بعد سـاعة من حدوثه؛ إذ سـمع الجنود الأقـرب إلى باب السراي، صراخ عرابي قائلًا: "لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لن نوّرث أو نُستَعبَد بعد اليوم".

وعرفـت مصر أيضًا أن الأجنبـي الواقف بجـوار الخديو طلب منه العودة للسراي خوفًا من احتدام النقاش، ففعل.

وظـل الثوار في أماكنهـم، وتناقل الجمهور همسًـا أن الثوار باقون فـي أماكنهم هـم والجنود في انتظار رد الخديـو على طلباتهم بإصلاح الإدارة في الجهادية وتغيير الوزارة.

وبقي الجمهور وقد تزايدت أعداده في أرجاء الساحة وفي الشوارع المؤديـة إليهـا، بينما وقفت السـيدات والأهالي من السـكان في نوافذ البيوت. وكانت العيون تراقب المشهد في حماس وترقب.

t.me/qurssan

كانت الأحداث قد ألهته عن كل شيء، عن عمله وعن فاطمة، وبقيت صورة الفارس الذي واجه الخديو معلنًا أن الفلاحين أبناء هذا البلد لم يعودوا عبيدًا لأحد، ولن يكونوا إرثًا، صورة تفجر قلبه بالفرح. وراح يراقب الابتسامات المرسومة على الوجوه والدموع المنسالة من بعضها بتأثر شديد، وكان الجميع قد تواطأوا على الانتظار لما سيسفر عنه المشهد. وبقي يحاول أن يندس بين الجموع محاولًا الاقتراب ما أمكن حتى لا يبتعد البطل عن عينيه، وهو يمنع نفسه عن الهتاف بحياته.

وبعد وقت لم يتحرك فيه الأبطال الثلاثة الذين سيعرف من بينهم اسميّ الآخرين لاحقًا بأنهما عبدالعال فهمي ومحمود سامي البارودي، من مكانهم، حيث عاد عرابي ليترجل جواده منذ أدار له الخديو ظهره، ولم يتحرك أي من جنود الثورة، على مدى المساحة الشاسعة للميدان، وقد صنعوا مربعًا أحاط بكل نواحي الميدان ورفضوا جميعًا أن يتراجعوا حين طلب الخديو منهم ذلك، فقد كانت قلوبهم مثل الواقفين جميعًا في الميدان تلتهب بالحماس لفكرة أن زعيمًا من أبناء البلد لأول مرة يريد أن يكون للجهادية قيادات وطنية، وأن تنصلح أحوال الناس الذين سلبهم أبناء محمد علي كل عرقهم وجعلوا من أراضيهم مزرعة للأسرة الحاكمة.

ظهر الأجنبي أخيرًا، ووقف أمام القادة الثلاثة وتحدث معهم كثيرًا، ثم هزّ عرابي رأسه متفهمًا، ورفع سيفه عاليًا، فأدرك الجميع أن مولانا

t.me/qurssan

وافق على مطالبهم، فأخذ النـاس يصرخون ويهتفون بحياته ويعانقون بعضهم بعضًا، وهم لا يصدقون أنهم عاشـوا يومًا كهذا سمع فيه ممثل الباب العالي كلمة للمصريين.

***

في الأيام اللاحقة وتحت تأثير المشـاعر التي أثارتها بطولة عرابي، قـرر محمود الوهـم التخلي عن عملـه في مصنع الدخـان، بالرغم من تحسـن دخله. أراد العـودة لحرفته الأصلية، بالإضافـة إلى أنه لجأ إلى شيخ من أولياء الله من المتصوفة أقنعه بأن حُرمة الدم لا يمكن تبريرها بـأي شـكل، وأخبره بأنـه إذا سـتر المرأة فإنه قـد ينال بذلك حسـنات تدخلـه الجنّـة، أما لو تجـرأ على قتل نفسٍ محرمة فـإن مصيره جهنم وبئـس المصير، هذا إذا لم يلق مصيرًا أسـود في دنيـاه ويعلق رقبته في حبل المشنقة.

ورغـم أنه كعادته لم يخش لا من المشـنقة ولا من أي تهديد، لكنه كان يؤكد لنفسـه كمـا تعلم وردد دومًـا "معاذ الله"، واسـتعاد الطريق الطويلـة التي قطعها مـن قريته البعيدة في أقصى جنـوب الوادي مرورًا بالقـرى والمدن في وجـه قبلي، من أجل أن يتجنب مجـرد احتمال أن يحـل عليـه يوم يجد فيه نفسـه مضطـرًا للثأر لأخ من إخوتـه أو عم من أعمامه، فكيف يرضى لنفسه أن يقتل نفسًا؟

مـا كان يقلقـه ويؤرق نومه هو تشـوش مشـاعره وتناقضهـا ما بين حب غامر لفاطمة كلما اسـتدعى ذكرياته معها، ومشـاعر سلبية تجنب

t.me/qurssan

وصفها بالكراهية كلما استعاد ما أصابها. كان تصوره لأن يصبح أبًا لابن ليس من صلبه أمرًا جارحًا لكرامته، لا يجد في نفسه ما يدفعه لقبوله، أو تحمل نتائج خسّة أحمق بلا كرامة، لا يراعي حرمة النساء.

استعاد المشهد الذي رآه بأم عينيه في ميدان عابدين وأمام السراي التي يدير منها الخديو الأمور، وقد خضع لطلبات الفلاح صاحب القلب الشجاع، الذي لم يهب مولانا في ذروة قوته وأمام سراياه وبين قواته. قال لعل ما حدث رسالة لكل أهل الخسّة، ولعل الله أن يعوضني خيرًا بزواجي منها، وسترها.

لكنه رغم هذا كله لم يستطع أن يهدئ من روعه، ومن طوفان المشاعر التي كانت تعتمل في داخله، لولا أن التقى في طريق عودته من ورشة الأسطى حسن التي عاد إليها في العاشر من سبتمبر، بعد يوم واحد من إعلان الثوار ثورتهم وإعلان "الوحيد"، كما أطلقوا على عرابي، "أننا لسنا عبيدًا لأحد".

لم يكن استقبال الأسطى حسن له بالحماس الذي ارتجاه، فقد رأى الرجل فيه شخصًا جاحدًا، تخلى عنه وعن الصنعة حين ساد الكساد، وليته حتى استمر في الكار، لكنه تخلى عنه لأجل لف السجائر. هكذا قال له ليشعره بمدى احتقاره لما أقدم عليه. فلما أصر محمود على إبداء الندم والاعتذار وقدم وعدًا له بأن يكون كما عرفه، قبل الأسطى على مضض أن يعود للورشة، ولكنه أكد له أنه لن يمنحه أجرًا يزيد عن نصف ما كان يحصل عليه. ومع ذلك فقد قبل محمود، بل ووجد

t.me/qurssan

فـي ذلك تطهـرًا من إحساسـه بالذنب تجـاه الرجل الـذي آواه وعلمه الصنعة.

التقى بصديقه الأزهري الشـيخ حسانين، ووجد في نفسه الشجاعة أن يحكـي له كل شـيء يخص أمره مـع فاطمة، وعلى عكـس ما توقع وجـد فـي الرجل روحًـا طيبة أثنت علـى رجاحة عقلـه، وأخبره بأن لا "حد خالي من الهم"، وأن "الوحيد" بجلالة قدره، ومنذ وفاة الخديو سـعيد الذي كان داعمًا له، تعرض للظلم وعانى من المحن. واستطرد الشـيخ حسـانين: هـل تعرف أن هـذا البطل واجـه معارك خاسـرة في الحبشـة امتُهـن فيهـا الجيش، وأنـه من أجـل ذلك وكرهه للشراكسـة الذين يسـيطرون على الجهاديـة تحمل الأذى الذي بلغ حد السـجن؟ لـولا احتمالـه لهذا كلـه وصبره مـا رأيناه يـوم وقف أمام ممثـل الباب العالي ليأخذ لنا جميعًا حقوقنا.

كان لكلمات الأزهري وقع السحر في قلبه، حتى أنه قرر أن يذهب إلى السوق ليشتري لفاطمة هدية ويعلن لها أنه سيتزوجها.

التقاهـا يـوم الجمعـة اللاحـق، ورأى وجهها مشـرقًا، وقد كحّلت عينيها كما لم تفعل من قبل، ورأى سحرًا خاصًا في عينيها السوداوين. أخبرته بأنها وجدت عملًا. أحس بوخزة ضميره لأنه لم ينتبه إزاء غضبه لأنهـا فقدت عملها عندما غادرت بيـت مخدوميها، لكنه انتظر منها أن تفصـح. أخبرتـه بأن شـقيقة مغتصبهـا بحثت عنهـا بعدمـا علمت بما حدث، وأبلغتها بأنها سـتتولى الأمر. سـتبحث لها عن وظيفة، وسوف

t.me/qurssan

تتدبر أمر الطفل. قالت لها إنه ابننا، وسوف نتولاه. واستطردت توضح له أنها ستعمل في سكن المدرسات في المدرسة السيوفية في حي السيّدة. وبابتسامة رومانسية أكدت أنها ستغتنم الفرصة لتتعلم كل ما فاتها من المعلمات. قالت له إنها تتمنى أن تُعدّ نفسها لكي تلتحق بمدرسة الولادة.

كان كلام فاطمة بالنسبة إليه، كما كان دائمًا، يبدو آتيًا من عالم غريب. مدرسة وتعليم وعمل؟ لم ير في بيت أهله أو قريته كلها امرأة تفعل شيئًا خارج البيت إلا إحضار المياه من النهر، أو الذهاب للأرض للزراعة، أما البيت فغسيل وخبيز وطهي.

لعله بسبب غرابتها هذه كان يرى في عينيها فتنة مضاعفة، لكنه لم يستطع كبح الغُصّة التي كانت تلاحقه. غُصّة تشبه الرفض. لم يتردد قلبه في الإعلان عن أنه يحبها، ولكن كيف يتزوج منها؟ إذا تعلمت أيضًا ستكون قد تفوقت عليه، هو الذي يفك الخط بالكاد، ولا يعرف سوى بعض سور القرآن التي حفظها على يد شيخ الكُتّاب، وبعض حكايات السيرة التي حكتها له ستّه.

استوضح من فاطمة عما تقصده بهذا كله؟ فقالت له إنها جاءت لتبلغه بعدم رغبتها في الزواج منه أو من غيره. قالت إنها تريد أن تصنع نفسها أولًا، أن تدرس وتتعلم صنعة. قالت له إن الست فريال، أكبر بنات مخدومتها فتحت عينيها على عالم جديد، مختلف، يمكن لها أن تجد لنفسها فيه مكانًا.

t.me/qurssan

أصابته كلماتها بالذهول. ربما لأنه لم يستوعب الأمر كله. ولم يعرف ما الذي ينبغي أن يقوله. كان مشوّشًا بسبب حيرته بين تصديق الفتاة التي تجلس أمامه الآن راضية بمصيرها الذي يفترض أن يكون موقعًا للمهانة والذل، لكنها تجعل منه مكانًا عصيًّا على فهمه، أو تصديق الفتاة التي جاءته باكية يكاد الهم واليأس أن يقتلاها قبل أيام قليلة.

تذكر الشيخ صاحب الكرامات؛ الذي أصر الأجنبي في رحلتهما على ضفاف الجنوب أن يذهب لزيارته. وجدوا شخصًا عاريًا يجلس أسفل شجرة، وقد تراكمت الأتربة على جسده لدرجة تجعل من يراه يتصور أنه من جنس آخر غير البشر، يجلس ساهمًا واجمًا، ولا يتحدث مع أحد، وقيل إنه بقي في مكانه هذا منذ عشرين عامًا، استجابة لأمر الله. أما سرّه المقدس فقد بني، وفق ما شرح بعض أتباعه للخواجة، على ما قيل وتردد من أنه شوهد في مكّة أكثر من مرة، رغم أنه لا يتحرك من مكانه هذا أسفل الشجرة. وقد أبدى الأجنبي ذهوله مما يقال فأكد المريد أن هذا ليس كلامه فقط بل أكده أكثر من حاج عاد من مكة، وهو يقضي حاجات الناس ويمنحهم بركته بهذه الطريقة.

شعر في هذه اللحظة بالذهول، فبإمكانه أن يصدق بركات صاحب الكرامات، لكنه لا يمكن أن يستوعب أن تحمل فاطمة في جسدها كل هذا التناقض وقبول التعايش مع العار وحمل السفاح، بينما تشع السعادة والفتنة من وجهها كما يرى ذلك في وجهها الآن.

سألها إن كانت تحبه، فأجابت بتردد نعم، ولكنها عادت توضح له أنها تحبه لدرجة أنها لا تقبل أن تعيش معه. قالت له إنها حين خرجت من قريتها ومن مصيرها بأن تعيش في جلباب أبيها لأنه لم

t.me/qurssan

بنجب ذكورًا، لم تكن تهرب من هذا المصير فقط، قالت بالعكس، شرفني أبي لأنه اعتبرني قادرة على أداء العمل ولكنه لم يكن قادرًا على أن يعلن ذلك للناس. أنا أريد أن تكون لي صنعة يحترمني الناس بها ويعترفون بقدرتي عليها.

سألها كيف سيتدبر الطفل حياته ويكون بلا أب؟ قالت إنها حصلت على وعد من السيدة فريال بأن ينسبوا الطفل لوالده وأنها ستقاتل من أجل هذا الأمر.

وكالعادة احتار منها، وفاجأته مرة أخرى بما لم يحسب له حسابًا. في الحقيقة كان ثمة شعور آخر يترقرق في قلبه وهو إحساس بالخزي. بأنه كان يظن أن زواجه منها سيكون سترًا لها، وأنه إذا تراجع عن قتلها فقد منحها صك الحياة، فإذا بها تلطمه بقسوة، رغم فتنة عينيها وجمالها البادي أمام عينيه الآن. كانت تقول له إنها لا تريد رجلًا يعولها، بل تريد رجلا يقبل بها، يؤمن بأنها تستطيع أن تعول نفسها. يؤمن بأن تكون امرأة لها عمل، ولا تضطر أن ترتدي مثل الرجال.

لم ترفض الورد، ولم تتخل عنه وهي تخبره بقراراتها، وظلت تشم الشذى بين الفينة والأخرى وهي تتكلم. ولم تمتنع عن قبول الكردان الفضي الذي جلبه لها من ورشة في الصاغة. بل وأبدت استحسانها للكردان، وسددت له نظرة حالمة ذوبته سحرًا.

رآها في تلك اللحظة كأنه يراها لأول مرة. ثمة فتنة في العينين، وفي الشفتين. يتأملها ويكتشف أنه لم يرها من قبل بقلب العاشق. ولم يكن متأكدًا من مدى صدق نياتها، فسألها:

t.me/qurssan

- وإن قلت لك إني مستعد للزواج منك ولا أمانع في أن تعملي أيضًا كما ترغبين؟

نظرت إليه بمحبة، وتنهدت. ثم قالت:

- السِكّة التي أقصدها طويلة ومحتاجة صبر، وفيها تعب. واللي في بطني مسؤولية. فكرت فيك أول ما فكرت لأنك حميتني من أخطار طريق يمكن كان مستحيلًا أن أقدر عليها. حسيت فيك إنك بلدياتي اللي ممكن يساعدني. لكن اللي أعرفه دلوقت إني لو بحبك فمش لازم أقف في طريقك بالدواهي.

واستطردت توضح: أنت أيضًا تركت خلفك أهلًا وتاريخًا، لتعويضه حتى ترضى ستحتاج إلى سنين من التعب، وقد أكون حملًا زائدًا عليك لا تحتمله.

سألها إن كانت تحتاج لأي شيء، فأخبرته بامتنان بأنها مستورة. وأخبرته أيضًا بأنها ستذهب كل يوم جمعة عصرًا إلى المكان الذي التقيا فيه على شاطئ النهر، لتطمئن عليه إذا شاء. فانفرجت أساريره ووعدها بأن يفعل المثل. وحين قررت أن تغادر وأراد صحبتها، قالت له إنها تفضل ألا يظهر معها، لأنها تخشى أن يكون أبو طفلها قد علم بأمر شقيقته ويكيد لها بشكل أو آخر. فهز لها رأسه، لكنه ظل يمشي خلفها في حذر، كأنه يحرسها، محافظًا على مسافة بينهما لا تثير الشكوك فيمن يراه، حتى اطمأن لبلوغها دارها في سلام".

t.me/qurssan

فاصل

انتهيتُ من تدوين الحكاية، كما حكتها على مسامعي زرقاء القطار، ورحت أستكمل ذلك في فترات متقطعة بين أوقات القراءة، أو وقتما تعود هي للقراءة. أصبح لديّ وثيقة يمكن اعتبارها ذاكرتي الخاصة، باعتباري محمود الوهم، بشكل ما.

بعدما انتهت من الحكاية، قالت لي إنها بذلك أوفت بالعهد، وطالبتني بالعودة والبقاء في غرفتها، وتقصد بها غرفة النوم الفسيحة التي كانت تقيم فيها كلما توعكت. قالت إنني يمكن أن أجد هناك مكانا أكثر راحة، للتدوين، وللقراءة وللنوم. وشعرتُ بالحرج من ذلك، فاستطردت مبتسمة أنها إذا اضطُرّت للعودة إلى هناك فسوف تطلب منّي الخروج، ولن تخجل من ذلك. لكني طلبت أن أبقى بجوارها أنصت لما تقرأ هذه الليلة فقط ولم تمانع.

أنصتُ إليها بتركيز تام وأحيانًا أتشتت عندما تخفض صوتها. كنت أود اغتنام أية فرصة لأسألها عما تقرأ. هل تختزنه وتشكل به معرفتها، أم أنها تقرأ بلسانها، ولا تأبه للمعاني؟ كان الأمر يبدو لي شديد العبثية في الحالتين، مع ذلك كان الفضول يقتلني لكي أسألها.

t.me/qurssan

في تلك الليلة، انخفض صوتها حتى أصبح همسًا. نظرتُ إليها فرأيتها لاتزال تقرأ ولكن بصوت شديد الخفوت، وصمتت لوهلة ثم عادت للقراءة حتى توقفت، وارتفع صوت غطيطها فجأة. لم أدر ما يجب عليّ أن أفعل. أأوقظها لكي تستكمل القراءة، أم أتناول الكتاب منها وأقرأ بدلًا عنها كما فعلت مرات عديدة خلال الأيام الماضية؟

اقتربتُ منها، ورفعت الكتاب من على صدرها. ورأيت نهديها الكاعبين، ولم أعرف لماذا أثارني مظهرهما، كأنني أراهما لأول مرّة. مسحت بكفي على جبينها، ولاحظت برودته، لكن ليس إلى حد مقلق. أنصت فاستمعت إلى غطيطها.

تأملتها، بعد أن نزعت النظارة عن وجهها. بدت مثل طفلة تغط في نوم عميق. أمسكت كفها وقبلتها. ثم أخذت الكتاب، ورحت أقرأ في المقصورة المجاورة حتى أتاني صوتها مناديًا. اقتربت منها فقالت لي هامسة إنها لا تعرف كيف نامت، وشكرتني. طلبت الكتاب، وقالت لي إنها في وجود أي أحد بجوارها تشعر بالاطمئنان وهذا ما يجعل جهاز الدفاع عن يقظتها يتكاسل. وضحكت. نهضت وجلست، وطلبت مني أن أجلس بجوارها. قالت لي هامسة: أريد أن أعتذر إليك عن أي كلمة أو تصرف أساء إليك، وأعلم أنك ستعذرني. وقالت ضاحكة: احمد ربّك أني لستُ شكّاءة وإلا لكنت الآن منتحرة أو مجنونة. فضحكت. طالبتني بالعودة إلى غرفتها، لكي أدوّن حكايتي التي حكتها لي بالتفصيل. ثم طلبت أن تعانقني، ونهضتْ لتعتدل جالسة، فساعدتها. اقتربت منها وضممت الجسد الناعم الخفيف إلى صدري. للحظة

t.me/qurssan

شعرت بأن النائمة في حضني هي ذكرى وليست زرقاء، قبلتها على وجنتها فتلقت القبلة بامتنان لم أعهده فيها من قبل. وخرجت بينما كانت تأخذ أهبتها لاستكمال القراءة.

لم يعد يشغلني أحدٌ ممن يعيش في القطار، ولا أهتم بما ستكون عليه الأمور غدًا، فإن توقف القطار يومًا فسوف أفعل كما سيفعل الجميع، وإذا استمر في طريقه الأزلي هذا فغالبًا سوف يموت كل من فيه من الجوع يومًا ما، وهذا هو الأرجح. وحتى يقضي الله أمره فالواضح أنه لايزال أمامي الكثير من الوقت لاستعادة ذكرياتي التي أضحت تاريخًا شخصيًا، أعتز به، وأنقحه وأعيد تأمله، وأكتب تفاصيله وفق ما فهمته عن محمود الوهم، فليس لي أي اختيار آخر. اختياري الوحيد تمثل في صياغةٍ ختامية لتفاصيل لم ترد في حكاية زرقاء، لأنها أيضًا كانت تود أن تحكي الحكاية لأفهم منها كيف عشت، وكيف كانت حياتي، أما التفاصيل فكانت تجيب عنها في فترات الاسترخاء التي كانت تمنحها لنفسها، وتجيب عن أسئلتي، إذ لم تقل لي يومًا إنها لا تعرف. كانت تغادر إلى غرفتها لأيام وأحيانًا لأسابيع ثم تعود لتعرف مني ما دونته، وتفيدني في التفاصيل التي كان فضولي يناوشني لمعرفتها.

t.me/qurssan

العـودة!

أعلـم أن أحدًا لن يذكرني في القرية، فقد وخط المشـيب شـاربي ولحيتي، وامتلأ وجهي بآثار السـنين. كما أنني اليوم كهل يكبر الصبي الـذي كنته وقتمـا غادرتها بثلاثة عقود. لـم أعد إليهـم أفنديًّا ببنطلون وقميـص، وفضّلتُ أن أرتدي جلبابًا واسـعًا مـن الصوف الفاخر، وأن أتعمم بعمامة محترمة، ولم أكن لأظهر لهم أني أصبحت أفنديًا، يعرف القراءة والكتابـة، وقليلًا من الجريجي، والإنجليزية، بفضل اختلاطي برجـال المصنع الروم، الذين اسـتمرت علاقتي بهـم حتى بعد عودتي لحرفة الخراطة.

لعـل الأمر الوحيـد الذي يمكنهـم أن يعرفوه عني هـو زواجي من زينـب، بعد طول انتظار، وبعد شـهور من الخيبة والحزن، أعقبت نفي الزعيم عرابـي، وكل الذين أحببناهم ومجدّناهم، البارودي، والشـيخ محمد عبده.

رأيتها لأول مرة، بعد أيام قليلة من ضرب الإنجليز لميناء الإسكندرية، ولم نكن وقتها نعلم ما يخطط له الأفاعي الذين كانوا يريدون احتلال البلاد وبالتعاون مع الخديو توفيق الذي سلّمهم البلد على حساب أبطالنا الذين أعادوا لنا كرامتنا.

t.me/qurssan

كانت الحكومة قد بدأت تطارد كل من كان له علاقة بحزب عرابي، أو أنصاره. أو من انضم إلى الجيش الشعبي، وكنت من بينهم. وفكرت في العودة للبلد، لكني تأكدت أن الطريق كلها من هنا وحتى أسوان لن تكون آمنة. وبمساعدة الشيخ حسانين صديقي، الذي كان يذرف الدمع يوميًا على عرابي وصحبه، أوجد لي شقة في حي الظاهر. قال لي إن أغلب سكانه من يهود مصر، وأن ذلك قد يبقيني بعيدًا عن أعين عسس الأتراك وبقايا الشركس والإنجليز. فقد شاركت مع فريق ممن سافروا إلى كفر الدوار لدعم جيش عرابي بالثوار، وقد أخذتنا الحماسة بعد أن أفتى الشيخ عليش نفسه بأن الخديو مارق عن الدين لدعم جيش يحارب جيش بلاده.

قضيت شهرين في شقة على سطح بناية في زقاق بحي "الضاهر"، لا أرى أحدًا. وحين نزلت للشارع أول مرة، لمحت فتاة تضع أعلى رأسها مقطفًا من الخوص تفيض منه رائحة ورد. كانت بائعة ورد، ترتدي أسفل عباءتها السوداء ثوبًا أبيض موشى بألوان حمراء، وتمسك بالمقطف الذي وضعته على رأسها، بيد وبالأخرى تمسك باقة من الورود.

لم أكن رأيت بائعة ورد قبل ذلك اليوم، وفكرت أن أتتبعها، لكني رأيت جنديًا في نهاية الشارع. فتوقفت عن متابعتها وعدت أدراجي في الاتجاه الآخر.

من المؤكد أن هذه الأحداث كلها تشكل عالمًا بعيدًا عن القرية وعن أهلي، فلم يسمع أحد في قريتنا وربما في محيط المركز كله عن

t.me/qurssan

باعـة ورد جائليـن، ولا أن هوانـم عائـلات بعض الأفنديـة والأجانب يشترين الورد بالكيلة.

استغرقت الرحلة الطويلة في القارب الكبير، الذي وجدت به مكانًا في غرفة، عدة ليال، لم أجد في نفسي خلالها الرغبة في أن أتحدث مع أحد لا من المسافرين ولا بحارة المركب.

كنـت أخشـى من الأخبار السـيئة التي قـد تفاجئني فـي القرية عند وصولي، أخبار وفاة، لا قدّر الله، أمي أو أبي. والصدمة، في أنهم ربما كانوا يعتقدون أنني ميّت في قبري، فكيف سيصدقون وجودي أمامهم بعد كل تلك السنوات؟ هل ستّي مازالت على قيد الحياة؟

لـم يجر في بالي أن أصحب معي زينب، أم البنات. كانت تظن أني مقطوع من شجرة، وقد كان لذلك أثر في عطفها عليّ.

فـي اليـوم الـذي رأيتها فيـه مرة أخـرى في حـي الظاهـر، اقتربت منها لشـراء كيلة ورد. سـألتني عمن أرسلني لشـراء الورد، فاستنكرتُ السـؤال فعادت توضـح إذا ما كنت أريده لتقطيره فـي المياه، أم لعمل مربّى الورد حتى تنصحني بالأجود. فأُسـقط في يدي، فلم أكن أعرف أن للـورد سـوى الرائحـة، ولم أفهـم أن عائـلات اليهود فـي الضاهر كانوا يشـترونه من أجل المربّى وماء الورد البيتي. فلما أدركت خيبتي ضحكـت، لكنـي اغتنمت الفرصـة وقلت لها إنني أحتـاج من يعلمني في أمر الورد. كانت تتأملني بشـكل متفحص، وقالت إنها سـتفكر في الأمر وتركتني وهي تنادي بصوتها العذب: "الورد، يا ورد، يا ورد مين يشتريك"!

t.me/qurssan

وقعت في غرامها وغرام الورد وجمال عينيها، وسمرة بشرتها، والحَوَل الطفيف في عينِها اليسرى منذ تلك اللحظة، وحتى اليوم الذي غادرتها في الصباح هي والبنتين، لأني أحببت أن يكون لهما عائلة ولا يكونا مثلي مقطوعين من شجرة.

قبل وصولنا أسيوط أخبرنا النوتيّ بأن المركب سيبيت ليلة من أجل حضور دوسة في الصباح. ولأني لَم أكن شهدتها من قبل فقبلت بالعطلة برحابة صدر.

في اليوم التالي ذهبنا إلى ساحة تواجه المسجد الكبير، وانتظرنا حتى جاء شباب بجلابيب، أغلبهم ذوي أجساد فتية، وراحوا يتراصون على الأرض، يتمددون على وجوههم، وهم يكبّرون، ويوحدون الله. واشرأبت أعناق الغلمان والصبية الذين تحلقوا في الميدان وأنا معهم، رغم الحر، حتى وفد الرجل المبارك كما أطلقوا عليه، وهو يمتطي جواده الذي أمسك بلجامه رجل معمم وله لحية مشذّبة، وطلب من الحضور الصمت والهدوء، حتى تحل البركة على البلد والحاضرين فصمتوا جميعًا، ثم قرّب الفرس وقائده الذي كان يحني رأسه ويغمض عينيه في مسكنة، ويتمتم بما لا نسمعه، ثم يحوقل ويدعو بالغفران للحضور، وطلاب البركة.

وقف غلامان يتراشقان همسًا بأن الفرس لا بد أن يقضي على أي شخص في قلبه فساد. لكن الفَرَس بدأ يمشي ببطء فوق ظهور النائمين على بطونهم، واحدًا تلو الآخر، بينما يهتف الناس بعد أن يمر

t.me/qurssan

الفرس على جسد فتى من الفتيان والرجال بالتكبير، وإذ ذاك، انفلت صبي من الاثنين وركض كالسهم وألقى بنفسه عقب آخر الشباب في صف المضحين طلبًا للبركة. لكن الرجل الممسك بلجام الفرس رأى الصبي، فحفّز الفرس ليخطو بعيدًا من دون أن يمس الصبي بحوافره.

وبمجرد أن انتهى الفرس من "الدوسة"، بدأ طقس التوحيد والإنشاد والتكبير، ونهض النائمون كأنما كانوا في حلم عميق ولم يدروا بما يجري حولهم، فيما تحلّق الناس بالرجل الذي ثبت أنه عاد لتوه من الحج، والكل يبتغي أن ينال بركته بعد ما مسّ الكعبة، وربما قبر النبي بيده.

هذا عالم بعيد لن يعرف أحد من أهلي عنه شيئًا. يكفي أن يعرفوا أنني حيٌ أرزق، لم يتغير شيء. بلغت المرسى القريب، وكان عليّ أن أجد حمارًا ينقلني إلى القرية.

الأمر الوحيد الذي جعلني أشعر بالتغيير حين بلغت مشارف القرية، وبعد أن قطعت الطريق التي تبدأ بالنهر حتى قلب القرية، أنني لم ألمح وجهًا سبق لي أن رأيته من قبل. كما أن أحدًا ممن مرّوا بجواري وألقوا عليّ التحية بفضول لم يعرفوا في وجهي شبيهًا لأيّ من أهلهم.

بحثتُ عن الترعة الكبيرة التي تشق القرية وتتراص البيوت على ضفة من ضفتيها، حيث يقع بيتنا. رأيت أشجارًا كثيرة. ورأيت بيوتًا كنت أظنها ضخمة وكبيرة، فإذا هي صغيرة، وكان المارة يحيونني بريبة، ولم أتعرف على أحد منهم. رأيت جذع نخلة ضخمة مقطوعًا

t.me/qurssan

وقـد اسـتراح على الطريـق، كما لو أنه غدا مجلسًـا لمن يريـد أن يدير ظهره للبيوت ويواجه الترعة.

لـم أتعـرف علـى بيتنا. سـألت عنه فلـم أجد مـن يدلنـي. أوقفت مجموعـة من الصبيـة الحفاة وسـألتهم فلم يسـتدلوا عليـه ولا عرفوا اسـم عائلتـي. بعدما انتهـى صف البيـوت رأيت الزقـاق الترابي الذي كنّا نجمع فيه أعواد القصب قبل أن يتسـلمها مالك الأرض أو مندوبو مصنـع السـكر، وقـد كان الزقـاق في مكانه لـم يتغير به شـيئًا، لولا أن البيوت المحيطة به، وأغلبها كانت تضم زرائب المواشي والجاموس، قـد أصبحـت عاليـة. وجدتُ شـابًا يقتعد كومـة من القصب وسـألته، ولـم يكـن حظي معه أفضل من غيـره ممن رأيت، باسـتثناء ترحيبه بي وإصراره على أن أتناول الغداء في دارهم، لكني شكرته وقلت له إنني ربما أعود وقتًا آخر.

حاولت تذكر بيت شيخ الخفراء وقصدته، وما إن اقتربت منه حتى تنفسـت الصعـداء، إذ كان لايـزال في مكانـه، وإن بدا متجـددًا بطلاء أبيـض جديد، وما إن بلغت البوابة الخشـبية لحوش الدار، حتى اندفع إليّ خفير شـاب. اقترب منّي مُرحبًا، وسألني من أي قرية جئت، وإلى أيـن أقصـد؟ أخبرته عن اسـمي الحقيقي، وقلت له إنني سـافرت منذ نحـو ثلاثين عامًا للمحروسـة وعدت اليـوم لكي أزور أهلي. سـألني عن اسـم جدي فأخبرته، فأخذ يحملق في وجهي كأنه رأى عفريتًا، ثم تركني وطلب مني الانتظار.

t.me/qurssan

حين عاد إليّ طلب مني أن أصحبه إلى شيخ الخفراء. كان الرجل طويلًا فارع الطول، ولم أجد في ملامحه ما يمكنني أن أميزه. رحب بي، وأدخلني إلى المضيفة، وطلب لي شايًا، وبعدما شربته في غيابه، عاد ومعه رجل كبير في العمر، يعتمر طربوشًا ويرتدي جلبابًا محترمًا، وجاكيت، وأخبرني بأنه كاتب المشيخة. سألني الرجل عدة أسئلة، وراح يقلّب في الأوراق، ثم سأل: أنت من بيت الحاج يوسف مصطفى؟ فهززت رأسي، فعاد يقلب في الأوراق ويهز رأسه. وبعد وهلة نظر لشيخ الخفراء. وطلب أن ينتحي به قليلًا.

أثار الأمر ارتيابي وقلقي، ولكني قلت، لنرى ما لديهم، فالدنيا تغيرت ولا بد أن لديهم أمرًا يخص عائلتي، ميراث قديم أو ضرائب مستحقة، أو هروب من الجهادية.

لكن الباشكاتب عاد بمفرده، وسألني مرة أخرى عن اسمي وعمري، ومتى خرجت من البلد، فأخبرته. ولكني لم أذكر شيئًا عن المقبرة، ثم عدت وفطنت أن اختفائي ربما يكون قد جعل أهلي يُثبتون وفاتي.

لكن الرجل تأملني وقال لي بعد تردد، ما معناه أن السنة التي خرجت فيها من القرية وفق روايتي ضرب فيها طاعون الماشية القرية والقرى المجاورة، ولحقته موجة من وباء الكوليرا، فلم تبق في القرية أحدًا حيًّا.

جاءني الخبر كضربة برق، لم أستوعبها، بل إنني حاولت أن أستعيد بذاكرتي المشوّشة شيئا يفيد بخبر الوباء خلال رحلتي على

t.me/qurssan

القـارب حيث مررنا على مدن وقرى عديدة. ولم يذكر أحد شـيئًا عن الطاعـون آنذاك. كان أقصى ما تشبثت به الذاكرة مشـهد عدّة عائلات على جزيرة كانت هي ما تبقى من قرية أغرقها فيضان النيل.

قلت له كيف ذلك؟ مستحيل.

عـاد يؤكد لي أن هـذه القرية تحديدًا لم ترحم فيهـا الكوليرا أحدًا، وتردد قليلًا قبل أن يقول في أسى:

- وأُحرِقت..

ثم استدرك قائلًا:

- أقصـد وأُغرقـت جثث الموتى بعـد فترة في النهـر بعد أن تعذر دفنهم في المدافن.

قال لي إنه من سكان قرية بعيدة، نزح إلى هنا مع آخرين توالوا على القرية، بعدما زال شـبح الوباء. أمسـكت برأسـي وأنـا لا أصدق، فعاد يسـألني عـن الكيفية التي خرجت فيهـا من البلد فحكيـت له مضطرًا. سـألني إن كنـت التقيـت أحـدًا يومها من سـكان القريـة أو إذا كان في صحبتـي أحـد في ذلك اليـوم البعيد؟ فقلت له إنني بالفعل لم أشـاهد مخلوقًا طوال الطريق من المدافن وحتى وصلت للطريق العام، وحتى بلغت النهر.

فهز رأسه كمن وجد وثيقة مهمة وهو يقول: شفت بقى؟

كان السيناريو الذي رسمه الباشكاتب يتمثل في أن العائلة أصيبت بالوبـاء وهو ما حـال بين الجدّة والعـودة للمقبرة حيـث أدخلتني فيها

t.me/qurssan

حيًّا، ثم ضرب الوباء الجميع، ولأنني لم أذهب إلى القرية، إذ غادرتها بعد أن قضى الوباء على من فيها، من دون أن أعرف بالأمر، فقد حال أمر ربي أن أعرف بالمصيبة آنذاك. ثم قال بابتسامة يحاول بها تخفيف الموضوع: احمد ربك أنك لم تلتقط الوباء وأنت في الطريق.

مرّت في ذهني كل الوجوه متتابعة، أبي، أمي، إخوتي جميعًا، وجدّتي، ورأيت في خيالي جثثهم وهي تُلقى في النهر، فنهضتُ محاولًا إخفاء دموعي التي باغتتني، والتي لم أدر أمن هول ما سمعت، أم من شعورٍ طاغٍ بالذنب تجاه أهلي بينما كانوا قد ماتوا جميعًا.

وحين خرجت من المشيخة تولاني شعور رهيب بضرورة الهروب من القرية، وأن أدير ظهري لهذا الموت الرهيب كله، وبين شوقٍ طاغٍ لأن أذهب لأتفقد بيت طفولتي، ولكني تراجعت، لأنني لم أحتمل فكرة أن أجد البيت مغتصبًا من آخرين لا أعرفهم ولا يعرفون عني أو عن أهلي شيئًا. وآثرتُ أن أحتفظ بما تبقى في ذاكرتي من المكان ورفضت كل محاولات شيخ الخفراء لاستبقائي وزيارة العُمدة لأجل أن أبيت الليلة في مَضْيَفته. لكنني لم أكن أشعر بأنني سأحتمل البقاء دقيقة أخرى، وكان عليّ أن أغادر القرية للأبد هذه المرة.

كان الأمر أكبر من قدرتي على استيعابه، يأتي الطاعون فيأخذ في طريقه كل القرية؟ ولا ينجو منها أحد؟ والآن، أكتشف أيضًا أن جدّتي التي عشت كل تلك السنوات ظانًّا أنها ظلمتني لأنها ألقتني في المقبرة حيًّا ونسيتني، قد أنقذت حياتي، كما كانت تفعل دائمًا.

t.me/qurssan

لا يمكن احتمال هذا التأخير في قراءة الفاتحة حتى على روح أمي، أبي، جدتي، إخوتي. ولا أنني لم أتلق العزاء فيهم، وعشتُ هذا العمر كله من دون أن أعرف أنهم ماتوا حتى قبل أن أخرج أنا من القرية.

وهجم الماضي الذي كنت أستبقيته بعيدًا عني كله هجمة واحدة. أبي الذي يعيش في البيت رجلًا مُهابًا لا يكرر كلمته مرتين، ويرتدي جلبابًا وقفطانًا في استقبال زوّاره، أما عندما يصل إلى الأرض فيخلع جلبابه ويبقى بالسروال والفانلة والطاقية، ويمسك بالشادوف مثل إخوتي والفلاحين الذين يساعدونه، يزيل التراب ليفسح مجرى المياه لتصل على طول الأرض، ويمهدها لما سنبذره فيها، ولا يبارح المكان وقت الظهيرة، بل يختار موضعًا يستريح فيه ساعة بعد أن يتناول الغداء معنا، ويعود. يراقبنا جميعًا ويتأكد أن كلًّا منّا يؤدي المطلوب. يتأكد من تناولنا الطعام، وقبل الوقت المحدّد لذهابنا بالجاموستين للنهر لشرب المياه، يغادرنا سابقًا إيّانا للبيت، بعد أن يؤكد له صاحب المهمة أنه ذاهب للزريبة.

في الليل، تُغلق أبواب الزريبة، ثم باب الحوش، وتُسرج المصابيح الزيتية؛ في كل غرفة مصباح، معلق على الجدار، وفي الغرفة التي يجلس فيها أبي يُضاء مصباحان آخران، حتى موعد نومه. تذكرت أيضًا غرفة العجن القريبة من سطح الدار حيث يستقر الفرن في ركن.

استدعيتُ الروائح، الملامح، الضحكات، والبؤس، فأصبح الماضي الذي أهرب منه، غيمة كثيفة تسبح فوق رأسي وتبكي طول

t.me/qurssan

الليـل. وحتـى في النهار. ولكني لم أتمكن مـن الهروب، بل بقيت في أسر كل هذا الحزن، وحدي.

سـرت وقد أصاب سـاقي اليسـرى ألم، جعلني أعـرج رغمًا عنّي، وتذكـرت الذيب، الـذي خرج معي من هنـا قبل ثلاثيـن عامًا، ولعلي كنت سبب نجاته هو أيضًا من الوباء. أين ذهب الذئب يا ترى؟

t.me/qurssan

نـداء

لا أدري كـم مـرَّ عليّ من الزمن في مقصورتي فـي هذا القطار؟ لم أعد أهتم، لكني لم أعد أشعر بالخوف، ولا بالحيرة. في النهاية أصبح لـديّ تاريـخ دونته بنفسـي، وأعتز بكل ما فيه. لا أعـرف أين ذهب من كنـت أعرفهم أو أعيـش معهم قبل الوصول للقطـار. كانت حياتي في القطار مشـاهد للوحدة والعزلة في قطار مجنون لا أحد يدري من أين جاء وإلى أين يمضي. انشـغلت بالكثير مما عرفته عن سيرتي وبحثت فـي تاريـخ الناس الذين عرفت أسـماءهم من حكاية زرقاء، وشـغلت ذهني بأشياء كثيرة، لمواجهة حياة العزلة.

الأمر الوحيد الذي لم أدونه هو ما ذكرته زرقاء بشكلٍ عابر، عن ضريح أقيم أعلى تل قريب من قرية عاد إليها رجل نجا وحده من وباء الطاعون، إذ زار الرجـل القريـة وغادرها بعد عقود من زمن الوباء. وحين علم أهل القرية، اعتبروا الرجل مبروكًا لأنه جاء من قبره بعد موته بسـنوات طويلة لكي تحل بركته على القرية ويمنع عنها الوباء في المستقبل.

قالت إنه القبر الوحيد أو الضريح الذي يحرسه ذيب يأتيه كل ليلة، ويبقـى بجـواره حتى الصبـاح، وحين يسـمع أهل القرية عـواء الذيب يعرفون أنه ينادي على روح صاحب القبر أو يحييها.

t.me/qurssan

لـم أفهـم تمامًا موقع هذا الأمـر من حكايتي، ولكنـي تذكرته الآن فقـط. أو بالأحـرى إلـى اليوم الذي اسـتيقظت فيه وأنا أشـعر بشـعور غريـب. الصـمت والهـدوء من حولي مكللان بطابع غريب، لم يسـبق لـي أن شـعرت به أبـدًا من قبل. شـملني إحسـاس غريب بـأن القطار لا يتحرك. ولكني استبعدت الخاطر الذي انتهى من بين توقعاتي للأبد. فالقطـار لـم يتوقف أبدًا لشـهور، أو لسـنوات ربمـا الآن، من يدري؟ ولا يمكن أن يكون إحساسـي بتوقفه الآن إلا خدعة أخرى لحواسـي. ولم تكن لديّ القدرة على النهوض من فراشـي حتى لتبين الأمر. فقد اسـتدعيت كل محاولاتي الفاشـلة التي كنت فيها ساذجًا أركض وراء أحاسيسي المضلّلة وبراءة أحلامي بأن القطار سيقف وسوف أنزل منه لأسـتعيد ذاكرتي. والآن بعدما أصبحت محمـود الوهم بكل تاريخي يبدو لي أن توقي للخروج من القطار أصبح معدومًا تمامًا.

وهكذا بدأت نشاطي كما اعتدت، الحمام، التريّض، إعداد القهوة، وقـراءة اليوميـات التـي أدونها، أو قـراءة صفحات مـن كتب حصلت عليهـا تباعًـا من المكتبـة، وبقيت أقرأ فيهـا كلما طاردنـي الملل. فقد فقدت الرغبة في رؤية أي أحد حتى زرقاء منذ زمن بعيد.

وحتـى عندمـا تناهى لسـمعي صوت طرقـات على البـاب لم أعر الأمر أي انتباه، فهذا بلا أدنى شك خداع آخر للحواس. ولكن صوت الطرقـات زاد علـوًا وإصـرارًا، ممـا ألقـى حجـرًا فـي بحيـرة فضولي الراكـدة، فاتجهت إلى نهايـة العربة حتى بلغت بابهـا وفتحته، ورأيتُ

t.me/qurssan

صبية جميلة، لعلها في السابعة من عمرها، أو أكبر قليلًا ربما. وقبل أن أنطق بشيء ألقت بنفسها في حضني. ولم أفهم شيئًا كيف جاءت هذه الطفلة للقطار، لكني احتضنتها بدوري وأنا أسالها عمن تكون؟

نظرت لي بلوم قائلة: ألا تعرفني يا أبي؟

ضحكت بصخب. وطلبت منها أن تأتي للداخل وتخبرني بما تريد لأنني لم أعد أقوى على الوقوف طويلًا، وسبقتها بالفعل حتى بلغت أقرب أريكة وجلست. جاءت وجلست قريبًا مني وراحت تتأملني بنظرة محبة غريبة، وقد لمحت في عينيها ألفة لكني لم أتمكن من تفسيرها. أتكون إحدى بناتي أنا وزينب؟ أعرف أن لديّ ابنتين لكني لا أعرف شكلهما للأسف. لقد وصفتهما زرقاء بدقة، ولعل هذه الصبية كبرت قليلًا. حاولت استعادة اسميّ ابنتي وتذكرت: صفية وسنية، فأيهما تكون هذه الصغيرة؟

جاءت خلفي باكية، وقالت: أمي ماتت.

فقلت بدهشة: هل ماتت زينب ؟!

- زينب من؟ أقول لك أمي.

- من هي أمك؟

- ألا تعرف أمي؟ أمي ذكرى.

وطرقت رأسي وقد انتبهت لكل شيء في لحظة. ذكرى! معقول؟ وأين كانت أساسًا؟ لقد اختفت حتى ظننت أنها ربما لم تكن سوى

t.me/qurssan

شبح من أشباح القطار. وبسبب اختفائها اللعين مررت بأسوأ تجارب الحياة في القطار. استعدت الساعات القليلة، أو لعلها الأسابيع التي جمعت بيننا. وليلة الحب التي أخرجتني من عربة الحفل لأجلها. والرسالة.

أتكون هذه الفتاة ثمرة تلك الليلة؟

قلت لها: ما اسمك؟

فقالت: فتنة.

وأحببت أن أتأكد من الأمر أكثر فقلت لها بعد تردد:

- وكيف حال خالتك؟

نظرت الفتاة للأرض، وفاضت عيناها بالدموع. قالت إنها اعتنت بها الشهور الأخيرة قبل أن تفارق الحياة قبل ليلة واحدة فقط. ثم أردفت: على أي حال. لقد انتهت الرحلة. ماتت خالتي بعد أمي. وتوقف القطار. وغادره الجميع. لم يبق أحد هنا إلا أنت وأنا. فهيا بنا نغادر القطار يا أبي.

احتضنت الفتاة متأثرًا، ثم وضعت جبينها بين يدي، وأدركت وأنا أتأمل عينيها سر الألفة التي رأيتها فيهما فقد كانت تشبه ذكرى كثيرًا بالفعل. ولكن. كيف؟ ما الذي يمكنني أن أفعله الآن؟ لا أريد الخروج من القطار. ولا أستطيع. وإذا خرجت فإلى أين؟ كيف سأجد زوجتي وابنتي؟ وماذا سأقول لهن؟

t.me/qurssan

لا. أنـا أفضل البقـاء هنا. لديّ ذاكرتي وهـذا يكفيني. ومن يدريني أننـي إذا خرجـت من القطار سـوف أسـتعيد ذاكرتي المفقـودة وأعود لعالم آخر قد لا أعرف عنه شيئًا مرة أخرى.

لكن لحظة. ما الذي يؤكد كلام هذه الفتاة؟

كانـت تتأملنـي وهي تقول: أبي هيـا بنا. لا يمكن لنـا أن نبقى هنا. لا أحـد يـدري ما يمكـن أن يحل بالقطـار بعد أن توقـف، وبعد موت خالتي.

لم يكن أمامي إلا أن أتفقد القطار بداية، وقد تبين لي صدق ما قالته فتنة التي تقول عن نفسها إنها ابنتي. طيب طالما أنها تعرف أني أبوها، فلماذا لم تأت لي قبل ذلك؟ ومن دلها على طريقي؟

رفضـت أن تجيـب عن أي سـؤال قبـل أن نغـادر القطـار، وظلت تجذبنـي خلفهـا، حتـى وصلـت إلى العربـة. العربـة التي كانـت مقرّا دائمًـا لزرقاء. كانت خالية بالفعل. كأنها لم تكن أبدًا لامرأة بقيت تقرأ فيها لسـنوات لتمـد القطار بطاقته التي كان يركض بسـببها مثل حيوان مجنون.

تمـددت مـكان زرقاء، واسـتعدت ذكريات القطار كلهـا، بكل من التقيت فيه، وبزرقاء التي كانت لها اليد الطولى في كل ما حدث لي.

لـم أجد في نفسـي القوة لأن أتحرك من مكانـي. قلت للصبية إنني لا يمكننـي أن أغـادر هـذا القطـار. فجن جنونهـا وبدأت فـي البكاء.

t.me/qurssan

أعدت عليها قولي وأنا أوضح لها أن ما يحدث لا قدرة لي على منعه. طلبت منها أن تغادر هي القطار، لو شاءت. شعرت بالخوف من نفسي بعدما تلفظت بتلك الكلمات. لكني فعلًا كنت معدوم الإرادة. فقط أحسست بالخوف الشديد بسبب تلك الفتاة الصغيرة، التي جاءت للحياة من دون علمي وعاشت طوال تلك السنوات، وهي تعلم أو لا تعلم بوجودي، فما الذي يمكن أن أفعله لها؟ أنا لا أستطيع حتى أن أساعد نفسي، لقد ساقني القدر يومًا إلى هذا القطار اللعين، وواجهت فيه كل ما يمكن تخيله من الأوهام وغرائب المخلوقات. وبقيت سابحًا في وحل الألغاز والتضليل والاستهانة بي وبكرامتي. ما الذي يمكن أن أقدمه لك أو أساعدك به يا ابنتي؟ أنا فقدت القدرة على الرغبة في شيء أو التمسك بأي شيء. سأظل ممددًا هنا حتى يأتي مصيري. ربما سأموت مثل زرقاء. أو ربما أنني دخلت إلى بطن الحوت، ولن يُكتب لي أن أخرج منه. أو لعلني بلغت سفينة نوح التي أنقذت جمعًا من البشر، وقد خرجوا جميعًا إلى الحياة من جديد، ولعلني لا أستحق الخروج للحياة. ليس بعد. لا يقلقني الأمر. لا. لا. لن أتحرك من مكاني. أنا باقٍ هنا.

التفتت لي الفتاة وقد اكتست عيناها بنظرة غريبة، بها حزن ولوم وغضب وإحباط، وألم. سددت نظرتها لي كما لو أنها تهددني بهذا كله. ورغم إحساسي بالقلق، وبالشفقة، لكني لم أجد نفسي قادرًا على التحرك من مكاني. كان صوتها يأتيني وهو يبتعد تدريجيًا، وهي تصرخ في نبرة تهديد مبطن بأنها سوف تخرج وحدها، وأنني أعرضها

t.me/qurssan

بذلك للخطر. كنت أعتقد أن المكان الآمن الوحيد الآن هو القطار، لذلك فقد اعتبرت ما تقوله ليس سوى نوع من الهذر. ووجدت لساني يردد: "نموت هناك لكي نحيا هنا".

أغمضت عيني لوهلة، استعدادًا للمسؤولية التي شعرت أنني أتولاها منذ هذه اللحظة. أعدت فتحهما وتبينت أنني لم أعد أرى بوضوح. لم أجزع، واستمر الأمر على ذلك، وكلما أغلقت عيني وفتحتهما كان بصري يضعف أكثر وأكثر، حتى أعتمت الدنيا من حولي. جاءني خاطر فاستجبت له، نهضت وتحسست المكان حتى وجدت شيئًا أسفل الأريكة، تلمسته وتبين لي أنه كتاب. عدت به إلى مكاني وتمددت. أمسكت بالكتاب، وحين فتحته رأيت، رغم عماي، سطورًا، فرحت أقرأها بصوت هامس، وشعرت بأن القطار الذي أطلق نفيرا صاخبًا قويًّا قد بدأ يتحرك. اختفى صوت الطفلة، واستعدت اسمها لأذكر نفسي به:"فتنة"، ولم أكن على يقين إذا ما كانت نزلت من القطار بالفعل، أم أنها بقيت معي؟ رغم أن إحساسًا غريبًا بالخوف، لا أعرف أكان عليها، أم خوفًا مما يحدث لي الآن، بدأ يناوشني. لكنني أيضًا تجاهلت هذه المشاعر. لم أنتظر أن أعرف إذا ما كانت بقيت أم خرجت. كان ثمة خاطر لحوح يدفعني دفعًا لكي أقرأ وأن أستمر في ذلك، وألا أتوقف البتة عن القراءة. كان عنوان الكتاب "كتاب الأحلام".

وشرعت أقرأ: "في الحُلم، يعيشُ الوهمُ حُرًّا، يتشبه بالحقائق. أما الحلم نفسه فيمضي في مسارات خفية في مدينةِ العقل الشاسعة،

t.me/qurssan

يتلمّس دروبه بين آلاتها الجبارة، ثم يندثر في قاع الذاكرة. فإن أحيت الذاكرة الحلم عاش للأبد، وإن ألقته في أوديتها السريّة اندثر في هاوية النسيان. في الحلم نرى صورًا ملوّنة أو شاحبة. تنبثق، بإيعاز من وحش اللاوعي البدائي، صورًا تتشكل وتتجاور أو تقفز لتقول جُمَلًا بلا معنى أو تهذر بالخرافة، وحين نصحو تلعب الذاكرة بالحلم كما تشتهي، فتُزيح وتضيف وتترك إما أثرًا منقوشًا في الروح لا يذهب، أو تغيّب ما كان حلمًا في متاهة العدم، ليصبح وهمًا لا وجود له".

تمت

***

الكويت: يناير 2016- يونية 2020

t.me/qurssan

إشارات وشكر واجب

أديـن فـي كتابة هذا النـص لقراءات عديدة، اسـتفدت منهـا كثيرًا، بينها كتاب "فلوبير في مصر"، ت: صلاح صلاح، و"رسائل من مصر" لليـدي دوف جـوردون، ت: إبراهيم عبـد المجيد. "مذكـرات الثورة العرابية" لأحمد عرابي، و"الثورة العرابية" للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، و"حكايات من دفتر الوطن" لصلاح عيسى.

أتقـدم بوافـر الشـكر للأصدقـاء الأعـزاء الذيـن قـرأوا المخطوط الأول وكان لملاحظاتهـم التفصيليـة الدقيقـة دور مهـم فـي تنقيـح المخطوط وظهوره بالشـكل الذي انتهى إليه، ياسر عبد اللطيف الذي قـرأ المخطوط قـراءة تحريريـة، وأفادني بملاحظات دقيقـة تفصيلية، وكذلك الصديق حاتم حافظ، والصديق سـعود السنعوسـي بما قدماه من ملاحظات تفصيلية لتجويد النص، وامتناني لهم بلا حدود.

وللعزيـزة هايـدي بطبيعة الحال بوصفها القارئـة الأولى للتجارب الأولى لمخطوط النص.

***

t.me/qurssan

مؤلفات

1. باتجاه المآقي (مجمُوعة قصصية) القَاهِرة الطَّبعة الأُولَى عام 1997.

2. كهف الفراشات (رِواية) طبعة خاصَّة عام 1998، القاهرة، 2017.

3. أَشباح الحواس (مجمُوعة قصصية) القَاهِرة، الطَّبعة الأُولَى عام 2001 .

4. ابتسامات القِدِّيسِين (رِواية) القَاهِرة، الطَّبعة الأُولَى عام 2004، الطَّبعة الثَّانِية عام 2005، مِصر: الطَّبعة الثَّالِثة عام 2006، القاهِرة: طبعة بِاللُّغَة الإِنجِلِيزِيَّة عام 2007. وتُرجِمت فُصُول مِنها لِلُغة الأَلمانِيَّة ونشرت على صفحة مشرُوع مِداد المُنتدى الأَدبِي الأَلمانِي العربِي على الإِنتِرنت إِحدَى مشارِيع معهدِ جُوته بِالتَّعاون مع المُؤسَّسة الثَّقافِيَّة الإِتِّحادِيَّة الأَلمانِيَّة عام 2004.

5. مِداد الحِوار.. وُجُوه أَلمانِيَّة بِعُيُون عربِيَّة (أدب رِحلات) القاهِرة، الطَّبعة الأُولَى عام 2006.

6. جنيّة في قارورة (رِواية) القاهِرة، الطَّبعة الثَّانِية عام 2009 .

7. أبناء الجبلاوي (رِواية) . ط4، بيروت 2017. (جائزة ساويرس للرواية 2012).

8. شامات الحُسن (مجمُوعة قصصية) القاهِرة، الطَّبعة الأُولَى عام 2014 .

t.me/qurssan

9. مُغامرة فِي مدِينة الموتى (أَدب النَّاشِئَة: رِوايـة) بيرُوت: الطَّبعة الأُولَى عام 2014 .

10. البـلاد.. وهَمَ الحُـدُود المصنُوعةَ بِالدَّم (أدب رحـلات) الكُويت: الطَّبعة الأُولَى عام 2015 .

11. مصَّاصُـو الحِبـر (أَدَب النَّاشِـئَة: رِواية) مِصر: الطَّبعـة الأُولَى عام 2015. (القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد).

12. معبـد أَنامِـل الحرِير (رِوايـة) بيـرُوت: الطَّبعـة الأُولَى عـام 2015. (جائزة ساويرس للرواية 2016، القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية، 2016).

13. مدِينـة الأَقـلام السِّـحرِيَّة (أَدَب الطِّفـل: رِواية) دُبـي: الطَّبعـة الأُولَى عام 2017.

14. مِفتـاح الحيـاة (رِوايـة) إِيطَالِيَا: الطَّبعـة الأُولَى عام 2018 كجُـزء أَخِير مِن ثُلاثِيَّة «جزِيرة الورد» مع «ابتسامات القِدِّيسِين» و«جنيَّة فِي قارُورة».

15. أراجـوز البحر وقصتـان أخريان (مجموعة قصصيـة-أدب أطفال) الطبعة الأولى، القاهرة 2019.

***

t.me/qurssan

قارئة القطار

[illegible] ولم أفهم الرابط [illegible] وجود نفس الكتاب الذي تقرأ منه زرقاء معها هنا. هل يتضمن الكتاب سراً لا يعرفه إلا من يعيشون في القطار؟ ورغم الحكايات التي حكتها لي قائلة إنها تخص علاقتي بها، فإنني لم أستعد ذاكرتي لكي أتحقق من صدق ما تقوله".

***

في هذه الرواية يضعنا إبراهيم فرغلي كعادته بين عالمين يبدوان متباعدين تمام التباعد، من خلال الراوي الذي يركض ليلحق بقطار، ثم يفقد ذاكرته فجأة، فلا يعرف من أين جاء وإلى أين يقصد. ثم يفاجأ بخلو القطار من المسافرين إلا من امرأة غريبة الأطوار تخبره أنها تقرأ لكيلا يتوقف القطار في أجواء غريبة يسودها الغموض يسعى لاستكشاف عالم القطار الغريب في ذروة اليأس تسرد له القارئة ما تقول له أنها سيرته، فيجد نفسه شاهداً على تغريبة من الجنوب إلى الشمال بطلها فتى خرج من مقبرة حيًّا ليبدأ رحلة فراراً من ماضيه. فما الذي يجمع بين هذين المسارين الغريبين البعيدين؟ هذه الرواية المشوقة المثيرة للأسئلة تجيب ببراعة.

إبراهيم فرغلي، من مواليد مدينة المنصورة عام 1967، نشر أولى مجموعاته القصصية "باتجاه المآقي" عام 1997، وتوالت أعماله الروائية والقصصية، "كهف الفراشات" و"ابتسامات القديسين" و"جنية في قارورة"؛ التي اتسمت بالمزج بين الواقع والغرائبي، في اقتراحات سردية متعددة، لا يحسم أمر الواقعية فيها من العجائبية بل يترك للقارئ الاختيار، الذي سيحسمه هذا غالبا لصالح الخيال. فازت روايتان من أعماله بجائزة ساويرس في الرواية وهما: "أبناء الجبلاوي" و"معبد أنامل الحرير". كما وصلت الأخيرة إلى قائمة البوكر الطويلة، كما كتب عليها [illegible] ووصلت [illegible] للقائمة الطويلة لجائزة الشيخ [illegible]

الدار المصرية اللبنانية

t.me/qurssan